بِئْر

بِئْر

و مجموعة قِصَص أُخرى

حسين أحمد حسين

أحداث هذه القصص ، بعضها حقيقي جدًا

و بعضها غير حقيقي بالمرة ،

و الخيار متروك لبديهتك و خيالك ..

و ليس كل ما هو طبيعي حقيقي ،

و ليس كل ما هو خيالي من وحيّ الخيال ؛

أو أميل للإختيال .

◇ سِردَاب ◇

١

إنه يقترب ؛ فالتَختفَوا الأن .. أهلًا و ســـهلًا بك و يا لفرحتنا ب سلامتك يا سيد "وائل" طال الغياب و لكن بعودة رجوعك لنا أخيرًا .. هل رحلتُك كانت سلسلة ؟ ؛ يا للجمال .. تريد أن ترتاح ؟ ؛ بالطبع ؛ عيوني . تفضـــل بقدمك اليُمنى لتَحِل البركة المفقودة منذ رحيلك .. القصر تغير ؟ .. هذه حقيقة ، فقد بريقه ، ف العتبة تحزن علي فراق صاحبها ، و اليوم أرى القصر يبتسم بملء أبوابه و نوافذه .. يا أهلًا يا أهلًا .. ألا تريد أن تعرف ماذا جري و ماذا حدث في التسعة عشر عام الفائتين ؟ ، أه ؛ غدًا طويل بالفعل و أصلح للحكاوي .. عيوني .. جهزت لك غرفتك و حضـــرت لك الحمام و فرشـــت لك الســـرير و سأروِق لك الدولاب بمحتاويات الحقائب ؛ لا تحتاج لهذا ؟! .. حسنًا انه حقك و أســـف علي التطفل ، إنها فقط فرحة رجوعك تؤثر علي جمال المناخ و تجعلني أريد خدمتك أكثر من الطبيعي .. هل تتذكر إسمي ؟ .. نعم ؛ أنت تقترب ؛ لا لا ، أم عادل توفت منذ عشر أعوام ولا لســت ب عادل ، انا "ســعد" ؛ إبن "موســى" البُســتاني أضــاء وجهك الإله ، كنت أعرف أنك تتذكر بالطبع .. حين سافرت كنت انا

في الســـادســـة من عمري .. نعم ؛ أخبروني كثيرًا بعلاقتي ب بلل بناطيلك الدائم هاهاها .. هذه هي غرفتك التي أفتقدتك كل هذه السنين .. انا الذي هويتُها و كنستُ.... سيد "وائل" !! ؛ يبدو ان الهواء رد الباب في وجهي هاهاها .. أ لن تفتح لي ؟ .. حسنًا ، سوف أتركك ل ترتاح الأن ؛ فالنترك الحديث للغد ؛ أمامنا العمر ب طوله هاهاها .. تصبح علي خير يا سيد "وائل" .

٢

صباحٌ مشرق بنور الشمس يا سيدي ، ما كل هذا النوم لقد قلقت عليك .. ماذا ؟! .. كيف دخلت دون إستأذان ؟! .. و كيف أستأذنك و أنت نائم ، لم أرِد ان أزعجك ، دخلت لأفتح الشـــبابيك للتهوية حتي يتجدد نفسُك و يتنقَّا .. فالتأخد حمامك و تغسل أسنانك و في خلال ربع الساعة يكون الإفطار في إنتظارك بالأسفل ..... يااه ؛ يبدو أنك نظيف و دقيق للغاية ، تأخرت نســبيًا و أتيت في مِعادٍ مضـــبوط بالدقيقة .. فالتجلس يا سيدي الطعام سوف يبرُد ، سوف أجلس معك لأفتح شــهيتك على الطعام فقط ؛ و قد أرشــح لك ما تحســن إعداده "عبير" - خطيبتي مُدبِرة المنزل - من طعام و ما لا تقرب له .. البيض مع البسطرمة فظيع ؛ أنت نباتي ؟! .. بلاها سوف أكله انا ؛ الفول مع البصل شنيع ؛ لا تحب البقوليات و البصل يصنع رائحة فم بشـــعة ؟! .. هذه حقيقة بلاها الفول مع البصـــل لتأكله عبير .. ماذا تحب أن تأكل من كل هذه السفرة المديدة .. سلطة خضراء ؟!!! .. يوجد بالطبع و من أطزج الخضار و أقيمهم جودة و فائدة .. ف انت الحفيد الأغلى للأب الأغلى ... وجبتك ســريعة خفيفة يا ســيدي ، و هذا يبدو علي رشاقتك و صحتك الجيدة .. ثواني و يكون الشاي ... إنتظر هل تحب الشاي أصلا ؟ .. الإنجليزي ، ذوق رفيع يا سيدي ،

سوف نشتريه في خلال دقيقتين و يكون جاهز أمامك في الصالون الملكي .

***

ظننت أنك لن تنزل ، أعتقد أني أوحشتك ، لقد تأخرت ساعتين ؛ هل نمت ؟ ؛ نعم يبدو جليًّا علي عينيك .. الشاي أُعَدَ و بَرَد ؛ يا "عبير" الشاي للسيد ثانيةً بسرعة .. كم ملعقة سكر يا سيدي ؟ ؛ لا سكر .. توقعت هذا من حِميتِك الواضحة .. تفضل بالجلوس مكان والدك العظيم .. عرشٌ يليقُ بك .. اه ، سكن الحزن القلب بعد فراقه ، كان أبوك يحلم برُؤياك قبل أن يموت و لكن الزمن اللعين لا يترك للقاء الأحبة الوقت الكافي .. حكي لي عنك كثيرًا ف قد كنت جليسه المُحبَب ، و حكي لي كل ما وَد ان تعرفه من خلاله ؛ ف لذلك إسمح لي أن أحكي لك بمحبة صادقة و وفاءً بالدَين المُلقي علي عاتقي من والدك الكريم .. بعد سفرك الذي دام كالدهر و عدم سماح الظروف ب زيارة تُهدِأ الروح و تصبرها ، حصل الأعاجيب .. الشاي قد أتي ، هذه هي عبير فلتُسلمي على سيدك و وليّ نعمتك الجديد .. جميلة أليست كذلك ؟ ، و مطيعة أيضًا ، تأمرها فقط و سوف تُنَفِذ عن طيب خاطر بلا سبب غير المحبة الخالصة في قلوبنا لك و لأسرتك العريقة .. كان ابوك يري فيّ شبهٍ غريب بيني و بينك ف جعلني مثل إبنه و أعز خَدَمُه رغم صغر سني إلا أني كنت ضليع بالخدمات الملكية و مع شبوب العمر أصبحت سيد الخدَم في القصر بعد ما مات من مات و ذهب من ذهب .

في ليلة شتويَّة مُبتلَّة كنت أنظف هذا المجلس الصالوني و أُغير في تنظيمه كما كانت رغبة والدك ، حين كان يجلس سيدي المرحوم الغائب الحاضر يشرب قهوته في كاسته التُركية و ينظر في ألبوم صور مُجمع فيه المُدخَر الثمين من صورك القديمة .. بعد أن انتهيت

و أعطيته التمام ؛ امرني بالجلوس بجانبه في ســـابقة لم نتحدث من قبل ؛ و بدأ الحكي :

- هل تعرف يا سعد ان اليوم عيد مولد "وائل" الثامن بعد العشرين ؟ .. و هل تعرف كم الرسـائل التي أرسـلها له ؟ ، و لم يصـل لي منه غيرُ ردود جافة بالإنجليزية الباردة ، حتي يكون رد و قام بواجبه و كفي .. لم يخطر ببالي أن يكون فلذة كبدي هو أقسـي من يُحاكي قلبي .

= أعذره يا سـيدي .. ف أنت تعلم ان الغربة في الصـغر تميت القلوب و تُنسـي الحبائب ؛ و إذا سـمحت لي كان الخطأ الأكبر عليك فيما فعلته معه و ما إضطررته لفعله و رضيت به .

- ماذا تعتقد أني فعلت يا سعد ؟ .

= هل يسـمح لي سـيدي بالكلام .. و يعطيني الأمان بلا خوف او غضب .

- تكلم يا سعد .. طالما تحدثت إليك ، ف إني أمينٌ عليك .

كنت حينها في الثالثة عشر من عمري ان ذاك ، و لكني اشعر اني اكبر الخلق بفهمي و معلوماتي التي لملمتُها منذ صـغري ، الأصـغر من هذا ؛ من كل ما هو موجودٌ حولي ، الغريب هو ثقة سيدي فيَّ و تكبيره لي و كأني بالفعل يؤخذ ب كلامي .

= حين ماتت السـيدة "زهرة" ، حين قفزت من الشـباك ، أعذرني يا سيدي أنت لم تحتوي بَنِيَّك كما ينبغي ب ولد فقد أمه .. ف ما أحكيه هو عن تجربة في نفس الأمر ، و لكن الحقيقة - و أعذرني في ذلك يا سيدي - شتان الفارق بين ما فعله ابي معي و ما فعلته مع السيد "وائل" .

أعرف أنك لا تحب تذكر هذا ، و انا لا احب التدخل صـدقني ، و لكنها أمانة أوصـاني بها والدك أن أنقلها لك بشـفافية والله علي ما اقول شهيد ، ف تحملني بعد إذنك .

- الموضوع ليس بهذا الشكل يا سعد .. أنت لا تعرف المصيبة و ما حولها .. هل تعرف معني أن يتهمني إبني بأني قتلت والدته ؟ .. والدته كانت مجنونة أو ملبوسة .. بها شر مستحكم لم أعرف ما حضـر عليها من جنون ، زاد خطرها علي الولد ف أبعدتها عنه ، ف إعتبرني الجاني القاسـي الذي حرمه من أمه .. و زادت هي الطين بلة و وصـلت له من خلال الخدم ناكري الخير .. و ملأت رأسـه بالأوهام و الأوزار الكاذبة و هو بعقليته الصـغيرة و قلبه غير الخبير ملئه الحقد مني ، و لم يرضـخ ل كلامي ، و حين إنتحرتْ ، جعلني القاتل بلا ادني دليل .

= قد يكون ذلك مثلًا لأن - مثلًا ؛ انا لا أتهمك صـدقني - لأنك مثلًا كنت معها في الغرفة حين الإنتحار .

- لم أقتلها يا سـعد .. لماذا أقتلها و انا مازلت احبها ؛ هي لعنة

قد حلت علينا و أنا أعلم سببها و لكن لم يسعفني القدر لإيقافها قبل فوات الأوان .

نهض غاضبًا ، و تركني و دخل لينام .... لا أعرف ما هي أفكارك اليوم عن الحادث و ما حدث ؛ و لكني أصدق الأن بكل حواسي أن الوالد المرحوم الغائب الحاضر ؛ لم يقتلها ، لا تريد التحدث في الموضوع ؟! .. هذا حقك ؛ و لكن إسمح لي أن أؤدي رسالتي ولو كنت سوف تضرب بها عرض الحائط ، ف هو أمر راجع لك .. الطعام سوف يكون مُحَضَرًا في حدود الساعة الخامسة مساءًا .. ماذا تحب علي العشاء يا سيدي ؟! .. السلطة الخضراء ايضًا ؛ فاليثبتك الإله ؛ و يعوضك عن حلاوة ما حرمت نفسك منه ؛ بلا داعي.

***

بالهناء و الشفاء يا سيدي ، لا لن أشاركك الطعام هذه المرة فقد عرفت ذائقتك و أوصيت أن يأتي الطعام كما ترغب .. هل تريد مني اي خدمة أخري ؟ .. لو تسمح يا سيدي .. أريد فقط أن أتحدث معك في شئ حتي يرتاح قلبي .. بعد الحديث القصير الذي حدث بيني و بين سيدي المرحوم الغائب الحاضر ب عامين ؛ كان يجلس مكانك تمامًا و يأكل ب نهم و إبتسامة أمل تملئ فمه مع الطعام ، طلب مني يومها أن اشاركه الأكل ، في سابقة لم تحدث من قبل ، جلست و وضع لي منابي أمامي حتي لا أُحرج ؛ و بدأ في الحديث الذي أفاض فيه بالكثير من الجميل تذكره في البداية .

- هل تعلم متي أتيت ألي مصر يا "سعد" ؟ .

= أحب أن أعرف يا سيدي بالتأكيد .

- منذ أربعون عامًا ؛ حضـــرت الكثير من تطور هذا البلد و أواخر إزدهاره ، جئت من بريطانيا مالكًا لثروة مهولة بالنسبة للمصـــريين ؛ أحببت مصـــر من حكايات جدي القديمة عنها و عن تاريخها ؛ و حين إنتقل ابي لها حين الإســـتعمار حلمت أن ننتقل معه و نعيش فيها ؛ و مات ابي و جدي من بعده ؛ و ورثتهم جميعًا انا و أختي ؛ ف بديهيًا بعد زواجها ؛ و دون ترتيب هربت من الحزن بالســـفر و إرتياد مكان جديد ؛ و وجدت هذا كله هنا .. إشـــتريت الأرض التي بنيت عليها هذا القصـــر و لم يهمني ماضـــيها .. و مهدت و رســـخت طرق تجارتي التي كانت منفعتُها شِـــركًا ؛ بيني و بين البلد .. و وجدت هنا ما كان ينقص وحدتي ؛ وجدت "زهرة" .. كانت خادمة بريئة أتي بها أباها لكي تمســح و تكنس ؛ أســر جمالها عقلي ؛ كيف لهذه الدُرَّة أن تعمل خادمة ؛ رَاقبتُها و تأملتُها و ذهلني كل ما فيها ، كانت في السابعة عشر من ربيع عمرها ؛ صــغيرة و لكنها جميلة ؛ ســمراء بلا ســوء و بشــرتها نقية و لبسها محتشم و عيونها باسمة و ضحكتها الأسرة أذهبت عقلي ؛ كنت مازلت في أوائل الثلاثينيات ؛ كلمت أباها عليها ؛ و قال لي ان انتظر حتي تتم الثامنة عشـــر و وعدني انها لن تخرج عن حيز بيتي ولن تذهب لغيري .. و بالفعل يوم إتمماها السن كانت زوجتي ؛ أحببتها بصدق و كانت هي منتظرة فقط لحنان و كلمة طيبة و ان تنفتح عليها أبواب الرزق .. أصـبحنا روح واحدة ؛ علمتني المصـــرية مع بعض الكلمات العربية التي كنت أرددها حتي أصـــبحت أتحدثها كاللبلب ؛ أصـــبحت سيدة القصر و كل من كانوا حولها في السابق و أعلي منها في

الخدم يحتكمون الأن لأمرها ؛ و لكنها كانت عزيزة النفس و اصـــيلة الأصـــل ؛ لم تنســـي أهلها ولا من وقفوا بالخير في طريقها .. و انا لم امنع طريق خير يُكتب بإســـمها و يُعْلي من شـأنها .. ؛ و بعد عام بالكمال كانت أنجبت لي وحيدي "وائل" كما أحبَتْ هي تسميته ؛ و أحببته حين عرفت معني الإسم .. و كبر بيننا و عاش في عزنا و حلاوة محيانا ؛ و تعلم و أصـــبح علي وشـــك الوعي ، حتي تغيرت كل هذه الأحداث في الليلة المشئومة .

= ايُ ليلة يا سيدي ؟ .

- الليلة التي نزلت فيها "زهرة" في المنطقة الغير ممهدة أسفل القصر .

= اتقصد السرداب يا سيدي ؟ .

- نعم و لكن قبل أن يكون الســـرداب يا "ســـعد" .. كان قبلها مجرد عواميد تسند قوائم القصر من الأسفل؛ بلا روح او حياة او متعلقات ؛ و لم يكن مســـموح لأي احد النزول له ، و بقينا علي هذا الحال .. حتي نزل له وائل صـغيرًا و أعادته أمه منه بسرعة ؛ و لكنها لم تعد معه .

زاد الربو الحاد الذي عاصـر والدك - منذ ثمان سـنوات حتي اخر أيامه - حتي تمكن منه و أكل صدره ؛ ف أعدتُ له مشروبً ساخن من الكراوية المغليَّة و الينسـون و شـربها علي السـرير و ذهب في نومٍ عميق .

هل شـبعت يا سـيدي ام أفقدتُك شـهيتك ؟ ؛ انا اعرف أنك لا تحب الحديث في هذا الموضـــوع و لكن اعذرني مجددًا ؛ عامة مطرح ما يسـري يمري .. الحمام الصـغير محضـر لك لتغسـل يديك ؛ و شـاي العصـــريَّة ســـوف يكون مُحضَـــرًا في خلال دقائق لســـيادتك ؛ في البستان.

***

أتعلم يا سـيدي ! ؛ اسـتغرب جدا تفهمك للغتي العربية رغم الدهر الذي بعدت عنها فيه ؛ بالفعل انها لغة اصـــيلة تبقا في الوجدان ؛ تسـتغرب انت ايضًـا فهمي لردودك الإنجليزية ؟ ؛ يا سـيدي من هم مثلي لا يغلبون .. تفضـل بالجلوس علي كرســي والدك ؛ نعم ؟!! .. أتذكر هذه الارجوحة ؟! ؛ كنت دائمًا أجلس عليها و ينهرني أبي حتي لا تتســـخ من جلخي ؛ نعم ؛ نعم اعرف انها ملـكٌ لوالـدتك المرحومة ؛ كان والدك دائما ما يجلس عليها حتي دابت مفصـــالاتها و بقيت علي هذه الحالة حتي اليوم و لم يصـــلحها أحد .. الشـــاي يا "عبير" .. أرأيت الســـرعة و النجابة تســـلم يداكي يا عزيزتي ؛ هل تريد أن تصـعد عبير لتنظيف و ترتيب غرفتك حتي تشرب الشـاي ؛ ليس الأن ؟! .. كما تحب يا ســـيد "وائل" .. إذا ســـمحت إذًا في أن تستمع لي لبضع اللحظات الطفيفة .

في عصـر يوم ربيعي جميل يمكن أن يكون منذ سـبع سـنوات علي ظن ذاكرتي ؛ كنت اروي البســـتان و وروده التي زرعتها بنفســـي بالأنواع التي كان يفضـلها سيدي المرحوم الغائب الحاضـر الذي كان يجلس علي الارجوحة و ينظر في البوم الصـــور الخاص بطفولتك

انت و والدتك و أعتقد أنه كان يبكي و يداري ذلك بنظره للســـماء المائل لونها بالتدريج من الزرقة الناصـــعة ؛ للحُمرة البرتقالية .. نادي عليَّ ب صوت حنون ؛ و طلب مني مشاركة مجلسه المُأرجَح المُسلي ؛ في سابقة لم تحدث من قبل .. جلست بجانبه و أفاض في الحديث .

- أنظر الي تلك الصورة .

كانت صورة لكم تمتلئ بالروح و السعادة ؛ كنت صغيرًا يا سيد "وائل" ؛ ربما كنت في العاشــرة .. و والدك كان في أعز شــبابه و والدتك في قمة عقلها .. ف أجبته :

= صورة جميلة يا سيدي .

- كانت قبل أعوام قليلة من تغير الحال للنقيض .. عندما عرفت أن "وائل" و "زهرة" نزلوا للســـرداب ؛ تلبشـــت و تخوَفت ؛ و لكن كانت الأمور مستقرة ؛ و رغم اني كنت اري نظرات الريبة و التوتر في عيون جميع الخدم ؛ و لكنها مجرد نظرات و توقعات لم تفلح في زعزعة روحي المُزعزعة .. حتي أتي الليل علينا .

كنت لم أولد بعد حين هذا اليوم ؛ و لكن قد حكوا لي ما عاده والدُك بالتفصيل ؛ صوت الصراخ الحاد و كأنه منبعث من اعماق الجحيم ؛ لا يخرج من حلق بشري ف صاحبه سوف ينشق نصفين إن حاول ؛ و لكنها كانت السيدة "زهرة" تصرخ و تتشنج و عيونها حل مكان سوادُها بياض مرعب ؛ و لغة غريبة و صوت أغرب ؛ حالة غير

مفهومة و غير متعارف عليها ف وقتها .. الرعب ســـاد القصـــر و تخبط الناس فيه ؛ حاولن النســـاء من الخدمِ تكتيف حركتها حتي لا تؤذي نفسها و لكن لم يستطعو فعل شيء ؛ حتي تكاثر عليها الرجال بموافقة من والدك و في محاولتهم إرتطم كل منهم في حائط مُتباعد ؛ قيل لي و العُهدة على القائل أن قدماها إرتفعت عن مستوي الأرض و طارت في الهواء و هي تتحدث بلغة غير مفهومة لأي أحد منهم لكي يعرف كيف يساعدها ؛ حتي دخلت انت يا سيد "وائل" .. الذي سمعته من الحكي انك دخلت عليهم الغرفة و نظرتم – أنت و والدتك - إلي بعضكم النظرة التي هدأت من كل شيء حولكم حتي سقطت السيدة "زهرة" أرضًا مغشيًا عليها ؛ و لكن لم تغمض عين لأي أحد غيرها .

ماذا ؟! .. لا تصدق في هذه الشعوذة و الخرافات !! .. حتي بعد أن رأيتها بنفسك ؟؟ .. لن ألومك ف من الصعب تجربة ما مررت به ؛ قد ينكره عقلك لتســتريح و تنســي .... قد أثقلت عليك اليوم ب كلام ليس علي هواك حتي قاربت علي كرهي ؛ لو لم تكن تكرهني بالفعل .. انا أعرف .. و لكن تذكر ... اجل عليك نور .. أنها وصية أبيك لي .. أستأذنك الأن لأدعك تستدعي الذكريات .

٣

صباح الخير يا سيد "وائل" .. عشر دقائق و يكون الإفطار جاهزًا .. ماذا ؟! .. حلمت ب والدتك ؟! .. فأل خير يا سيدي لعلها في منزلة من الجنّة عالية .. هل قالت لك شـــيئًا ؟ .. حذرتك من البيت .. يبدو

أنـك بـدأت تخـاف قليلًا ف تـداخـل وعيـك في لا وعيـك .. نعم لا تستغرب يا سيد "وائل" أنا كثير القراءة و علي دراية ببعض الأمور .. لسـت بُسـتانيًا و رئيس خدم جاهلًا كما تظن .. كالعادة الحمام مُعَد و في إنتظارك .. سأنتظرك بالأسفل .

***

بالهناء و الشفاء يا سيد "وائل" .. هناك محامي بالخارج يقول أنك في إنتظاره .. هل تنتظره فعلًا ؟ .. لم تخبرني انه اتٍ .. لا مشـــكلة ســـوف أعد له الشـــاي و اجلســـه في الصـــالون الملكي حتي تنهي فطورك .. بعد إذن سيادتُك .

***

أوصلت المحامي للخارج يا سيدي .. هل يمكنني أن اسئلك سؤلًا ؟ .. هل تفكر في بيع القصـر ؟ .. أعلم انه ليس لي أن أتدخل ؛ و لكنك تعلم أن هذا مسـتقبلي و مسـتقبل الكثير مثلي .. ليس لدي شـك بأنك سوف تعوضـهم جميعًا و هذا الكلام ؛ و لكن .. و لكن .. هذا القصـر قصـــرنا جميعًا .. و ســـيدي الكبير لم يكن يود بيعه .. أســـف على التدخل لن تتكرر .. و لكن بعد إذنك أن تدعني اسرِد ما تبقي لدي ...

كانت هذه المُحادثة منذ خمس سنوات .. في السيارة الملكية لسيدي الغائب الحاضـر و كنت انا سـائقه الخاص و طلب مني أن أقله الي السـيد "فضـل" المحامي .. و بدأ في حكي ما غاب عن درايتي و مخيلتي .

- هل تعلم لماذا انا ذاهب إلي المحامي يا "سعد" ؟ .

= لا استطيع ان أجزم يا سيدي .

- سوف أبيع القصر .. و سأرسل أمواله لوائل في سفره كميراثه ؛ لعل أموال القصر تكون عوضًا بخيسًا حتى عن ما خسره بسببه .

= هل يسمح لي سيدي ب التعبير عن رأيي ؟ .

- تكلم يا سعد .

= الحل لن يكون ابدًا في بيع القصر يا سيدي .

- ماذا تقصد ؟! .

كنا قد وصلنا إلي مكتب المحامي و بتر كلامنا الإزدحام و الصراخ و رعب الملامح المنثورة على الوجوه .. نيران عظيمة و دخان كثيف هم كلُ الباقي من مكتب المحامي ؛ نظرت لسيدي الذي نظر لي في ذات الحين .. و عيوننا تترجم ما دار في عقلنا .

رجعنا حاملين ما أمكننا حمله من صدمةٍ و خوف ؛ و عندما دخلنا إلي القصر عرفنا أن غرفة مكتب سيدي قد شابت بها النيران أيضًا ؛ و هي بعيدة بعد تام عن ما يسبب الحرائق ؛ و قد أغلقها سيدي

بمفتاحه قبل الخروج كما يفعل دائمًا فلم يفتحها أحد .. لا أعلم إذا دار في خلدك ما وصل لي ؛ و لكني أيقنت ان القصر يحذرنا .

في خلال السنين التي عملت فيها في هذا القصر و حتى من عصر ابي .. كانت هناك أشياء غريبة تحدث لمعظمنا .. من يري كوابيسًا مخيفة و يستيقظ من نومه مفجوعًا ليعرف انه مازال يكمل كابوسه للحظة حقيقية كاملة في عالم الواقع حتي يختفي كل شيء .. و من يختال بظلال مُشَكَلة و أجسام أقزام مجسمة سوداء مُشعِرة تتحرك ليلًا في الأنحاء .. و من يسمع الهمس الغيبي الإغتيابي بأسرار مكتومة في تفكير شخصٍ أخر عنه ، أسرها المفكر في عقله ، و دائمًا ما تكون بعيدة عن الخير تمامًا ، حتى تقع المصائب و النزاعات بينهم .. ف مات كثيرون رعبًا و عمل بدالهم أخرون لم يتحملوا كل هذا و غيره ؛ و خرجوا لينشروا الرعب في القلوب ؛ عن هذا القصر و سره القديم الدفين .. و سيدي كان لا يزال يفكر في بيعه ؛ من عاقل سوف يشتريه بهذا الثمن الباهظ و هذه السمعة المميتة ؟!! .

انا .. انا لا اقصد ان أجنبك فكرة البيع .. و لكن صدقني يا سيد "وائل" ؛ لا تفكر في ذلك .. لأجلك أنت .

***

أهلًا يا سيدي .. تبحث عني أنا ؟! .. اسف لو ارهقتك في البحث ؛ لم أنتبه لندائك صدقني .. لم تسمع صوتي منذ الإفطار ؟ .. هذا حقيقي فقد تذكرت أشياءًا غَلَبَت روحي في عناء نسيانها و مازالت

مُحتلَّة البال .. ماذا تذكرت ؟ .. هل تحب أن تســمع فعلًا ؟! .. قد تتضايق و لكنها حقيقة ما حدث .

كان هذا الكلام منذ اربع سنوات .. بعد هدوء فكرة البيع او إنعدامها من الأصــل .. و أعدنا غرفة المكتب الي ســابق عهدها و أفضــل .. كان سـيدي الغائب الحاضــر طريح الفراش للربو الذي ظهر فجأة و توغل بلا ســـبب معروف ؛ و مهما فعل الأطباء و كتبوا تراكيب أدوية مُجدية ؛ لا شــئ يريح صــراخ الصــدر المتقطع و النفس الذي يتحشـرج و ينقص العمر أنفاسًا لم تكتمل .. كنت أعطيه أخر ما كتبه الطبيب "سالم" من تركيبة نباتية و أعدتُ له المشروب الساخن .. و أجلســني علي فراشــه في ســابقة لم تحدث من قبل مع غيري و بدأ الحكي بما إحتمل صدره كتمانه و ضاق بإخراجه .

- هل تعرف يا سعد ؛ أصل الحكاية ؟ .

= ســمعت ما يســمعه معظم الناس يا ســيدي ؛ و لكن بالتأكيد علمك يفوق علمهم .

- حين وصــلت الي هنا ؛ كانت بداية خروج اليهود من مصــر .. الذي اذكره ان اليهود كانوا ذائبين في المصــريين قبلها ؛ لا يمكنك في سابق العهد تفريق المسلم عن المسيحي عن اليهودي .. إلا في إرتيادهم الي محال عبادتهم في مختلف الأيام الثلاث .. و إنقلبت الآية مع إعلان بريطانيا مساندتها لليهود و إحتلال فلســطين و خطو اولي خطواتهم علي أرض الميعاد .. إختلفت بعدها النفوس و تغيرت النظرة و فرق الجميع أنفســـهم عن الأخرين ليعرفوا بعضـــهم و يحـددوا غيرهم .. حتي ترحـل

النسبة الأكبر من اليهود إلي هناك و أثبتوا النظرية المعتصمة في القلوب المصـــرية أنهم مجرد ســـفاحين مُحتلِّين .. يهود إسرائيل كما عهدهم موسى ، و كما أسموا منطقة إحتلالهم .. و كتعبير أخير من بعض الوطنيين هدموا في أراضيهم كل ما هو يهودي ؛ و نبذوا القلة الباقية فيهم حتي قُتِل المعظم و فر القليل الي مصـــير ســـابقيهم .. حتي وصـــلوا الي هدم أغلب المعابد اليهودية .. و المدافن التابعة لهم .. و هذه الأرض المبني عليها القصـــر ما هي إلا أكبر مدفن يهودي من حيث المساحة في مصر .. إشتريت هذه الأرض - كما علمت فيما بعد - من شـــخص كان واضـــع يده عليها لم يكن مالكها ؛ بالبخيس بالنســبة لي من الأموال لما ورثته و الكثير علي أهل البلد العائشـين في تلك المنطقة .. و أعطتني البراح و أعطتني التَخيُل الجميل ل قصري علي الأراضي المصرية .. و منذ بدأ البناء و الحفر خصـيصًـا ؛ و الأمور لم تعد مسـتقرة .. مات كثير من البنائين و جُن الكثير من ما رَؤه .. و جلبنا القساوسة و الشـيوخ و لم أســتطع التصـــرف في جلب حاخامات حتي يتفاهموا مع موتاهم .. حتي إعتمدت علي فكرة واحدة و هي السرداب الفاصل بين القصر و بين ما تحت الأرض كما شار علينا رجال الدين بنوع من التبطين و الحماية التي جاز لهم تأميننا بها ؛ رغم نصحهم الدائم غير المنقطع بترك الأرض و إستعواض الرب .. حتي جربت العيش فيه بعد تجهيزه و كان تحفة فنية أثرية .. لم يوجد علي بساط أرض مصر ما يضاهيه حتي الأن .. و كانت الأمور مستقرة الي حد كبير .. صحيح لم نأمن تمامًا و لكن كنا من حين لأخر تحدث معنا حادثة بسيطة يتم تداركها و كانها لم تحدث .. و كنت أدفع للخدم الكثير لكي يعملوا و يتكتموا و منعت الجميع من النزول للســـرداب مهما حصـــل او تهيأ لهم فيه .. حتي تزوجت ؛ و علمت ان القصـــر

كان يســـتعد كل هذا ليفطر قلبي في الأعزاء ؛ و أشـــهد لـه بالإنتصار .

= و جُنَّت السيدة "زهرة" ثم إنتحرت .

- لا أعرف إذا جُنت "زهرة" من ما رأت في الســـرداب .. أم لبستها روح كريهة كرهت فرحها و قاتلت أسرتنا كلها .. حتي دفعتهـا لتكريـه أبني فيَّ ؛ و إنتحرت حتي تحمينـا .. حقًـا لا أعرف يا سعد .. و لكن ما اعرفه أنني أصبحت محبوسًا هنا .. هل تعرف كم مرة حاولت ترك القصـر ؛ و كم مرة إستدعاني بكل طرقه .. كوابيس كلها عن إبني و مـا ســـوف يئول إليـه مصـــيره .. و خوفًا أن يرجع إلي هنا ف يعيش في القصـــر و يحبس مثلي .. انا خائف .

ضـاق تنفسـه و زاد ربوه المؤذي حتي طلبت له الطبيب من خوفي عليه .. و بعد زيارة الطبيب التي لم تَطُل إرتاح صـــدره و نام ب عمق و إطمئننت عليه .

والدك العزيز كان مثل والدي و أعز .. فلم أعاهد والدي كما عشت مع ســـيدي .. و لذلك - و إذا غلبني العشـــم - أنا أعتبرك كأخي مع حفظ الفروق و الأصـل .. لذلك أنصـحك عن طيب خاطر يا سيدي .. إلا القصـر ؛ سوف استريح في غرفتي بعد إذنك ؛ و إذا إحتجت إلي أيِ شئ سوف تكون "عبير" في خدمتك .

صباح الخير يا سيد "وائل" .. اسف لقد أطلت في النوم .. شكرًا لك انا بخير حال الأن ، هل لبَّت عبير طلباتك البارحة ؟ .. لم ترها ؟!! .. غريبة فقد أخبرني عم "صـــادق" بأنك ناديتها و من حينها لم يرها أحد طوال الليل .. إين إختفت تلك اللعينة .. اعذرني يا ســـيد "وائل" على تقصـــيري و تعبي في ســـابقة لم تحدث لي من قبل .. أراك مشغول البال .. هل هناك ما تحب مشاركتي به ؟ .. حُلم ؟! .. اي حلم ؟ .. حلمت أن أحدًا في الســـرداب يناديك ؟ .. انه كابوس مع الاسف ليس حلم .. أعذرني يا سيد "وائل" ؛ و لكن باقي أخر رسائل والدك لي و علي أن اوصـــلها لك .. و كانت مكتوبة بخط يديه لك .. ارجو ان تأتي معي ؛ ف هي مُخبئة .

في طريقنا للنزول دعني أحكي لك ما حدث في تلك الليلة .. ما هذا الربو الحاد ؟ ؛ سلامتك يا سيد "وائل" عليك أن تثقل من ملابسك .. في الليلة الأخيرة من فراق ســـيدي الغائب الحاضـــر للدنيا .. كانت صحته إنحدرت و العجز إلتهم كل ملامحه .. و اصبحت اوامره لنا بالإشـــارة و الكتابة ؛ بعدما فقد النطق بعدما أكل الربو صـــدره و احباله الصوتية .. كثيرًا ما قال لي ان هواء هذا القصـر هو السبب في ربوه .. القصـــر يخنقه بهواءه .. كنت ممدِدًا علي ســـريري في موعد نومي في الثانية عشر بعد منتصف الليل .. و انا غرفتي قريبة من الســـرداب كثيرًا ف لم يكن يحب أن ينزل لغرف الخدم ؛ و في سابقة لم تحدث مع غيري من قبل ؛ نزل إلي غرفتي و طرق بابي ؛ فتحت له و جلس علي الكرسـي القريب من الفراش و بدأ الحكي عن طريق الإشـارة التي فهمتها و حفظتها عن ظهر قلب لكي اتواصـل معه ...

- انا اري أناسًا لا أعرفهم في القصر يا سعد .

= من تقصد يا سيدي ؟ .

- انـاسٌ مختلفون عن خـدمي .. لا أعرفهم ؛ يـدخلون عليَّ غرفتي و ينظرون لي بإبتســـامة مخيفة .. في كل مكان أنظر فيه أجد شـــخصًـــا مختلفًا ؛ و أناس كثيرة يجلســـون ســـويًا ؛ يرتدون ملابس الخدم ؛ و أرى حاخام يحاول أن يقترب مني و يمد يده ناحية عنُقي .. يريد قتلي يا ســـعد .. هناك شـــيئا جللًا يحدث انا لا أفهمه ولا أســـتطيع تفســـيره .. هناك احدٌ وراء ظهرك يا سعد .

أقسم لك يا سيد "وائل" أن ملامح وجه والدك كانت تقصم القلب و تســـبب الذعر .. لدرجة انني كنت خائفًا من النظر لما ورائي .. و حين أدرت رأســي ســمعت صــرخة بأصــوات جحيمية كادت تصــم أذني جعلتني أقفز من علي الســرير ألي باب الغرفة و كنت ســأطلق قدمي للريح ؛ و لكني تذكرت ســـيدي الذي كان ينظر لي مترجيًا ؛ سريعًا ذهبت نحوه و شديته من جلسته بسرعة و بدأت ان افر به من هنا .. في كل شبر كان هناك ناس غِراب .. كلهم ينظرون لنا شـزرًا و يحاولون ان يلمسـوننا حتي صـعدنا من الجزء السـفلي للقصـر إلي أعلي .. و هدأت الأجواء قليلًا .. صـــعدت ب ســـيدي الي غرفته و كانت قواه قد خارت و إنتهيت إلي حمله و إراحته علي ســـريره .. مســك يدي قبل أن اتركه ، و طلب بالإشــارة ورقة و قلم .. كتب لك كل ما كان يجول ب فكره ؛ و قال لي ان هذه الرسـالة لك ؛ تسـلم لك .. كان من المفترض أن أبعثها إليك في مكانك ؛ لا أن تأتي هنا .. و لكني اخرت تقديمه و ارسلت لك رسالة أخري مذكور فيها وفاة ابيك

و ان تأتي لتورثه ؛ و هذا ل سببين .. أولهم انه كان واجب عليَّ سرد ما حدث مع والدك كله ؛ لكي أبرأه أمامك من جريمة لم يرتكبها ، ف هذا حقه عليَّ ؛ صدقني والدك لم يستحق كرهك له .. ماذا ؟ .. تسأل عن السبب الثاني ؟! .. نحن فيه الأن .. فالتنظر حولك يا سيد "وائل" .. نحن في السرداب .. أهلًا بك في عالمي .

***

لا تتعجب .. كنت في زمنٍ كان بشريًّا أحمقًا ايضًا .. و لكن من العنصر السامي ؛ أعرفك بنفسي انا "ليئور ملاخي" و هذا شكلي الحقيقي .. أعلم انني أبدو أكبر و أقبح .. ماذا ؟ .. ألم أقل لك أنك أحمق .. ليس هناك من يدعي "سعد" في هذا القصر قبل أن تسافر و بعد أن أتيت ؛ انت فقط من تصدق أي شيء .. أنظر يا "وائل" .. كان بيننا و بين والدك إتفاق بسيط .. كان من المفترض ان يشرحه لك في تلك الرسالة و لكنه لم يفعل .. إذا كنت تمل القراءة ف سأخبرك شفهيًا بفحواها سريعًا .

- إبني العزيز - *انتم ايها البشر مبالغون للغاية* - إذا وصلت لك هذه الرسالة ف هذا يعني انني قد قُضي قدري و هذا لقريب جدًا .. القصر هذا ملعون يا "وائل" لا تقربه .. أرجوك .. لا تطمع في أموال بيعه .. اتركه و امضي في حياتك .. سامحني علي خطأي ف تصميمي لعدم الميل وراء الشعوذة و الخرافات ؛ سامحني في إصراري البقاء فيه حتي أصبحت حبيسه .. و أخذ مني أغلي ما أملك ؛ أمك و انت و عمري .. لا تقرب القصر يا وائل مهما حدث ارجوك - اووه .. يبدو أنني لم أنفذ الوصية بحذافيرها ، فالتعذرني - .

ماذا أريد منك ؟ .. هذا سـؤالٌ بليغ .. دعنا ندردش قليلًا ف سـوف أتوحشـــك .. هذا البيت تم حرقه عن طريق أبيك في ليلة موته .. لا يبدو علي القصر أليس كذلك ؟ .. هذا إيهام بصري فنحن لسنا امواتًا هباءًا .. حتى المُحامي الذي زارك فيه هو واحد مننا كنا نريد سـماع طلباتك و أوامرك ، أنظر يا وائل ؛ ابوك خالف كل ما أتفقنا عليه مع القساوسة و الشيوخ ؛ و قرر البيع و حذرناه و لم نخلف عهدنا .. و لكن أن يحرق القصـر ف هذا ما لن يكسـت عليه أحد .. أحرقنا قلبه فيه .. انت حتي لم تسـأل كيف مات والدك .. لو كنت لازلت تكرهه ف دعني أخبرك انه مات شـر ميتة لا تتمناها لعدوِك .. و قبل موته أخبرناه بعهدٍ جديدٍ يُقام .. أن يسـمح لنا بجلبك هنا لتكمل ما بدأه إما ان تموت في مكانك .. كتب تلك الرسـالة الحقيرة المُعبقة بالخوف و خالف أخر ما كان مشروعًا لنا لحمايته ، هو من إختار مصيره ... و للعشـرة الطويلة التي مرت علينا سـويًا قد نفذنا الوصـية و سـلمنا الرسالة باليد .. انت كنت اول من همسنا له ؛ و بسببك كانت والدتك هي أول مفاتيحنا التي جعلت لنا قوامًا متحركًا مرئيًا .. و ماتت غصـب عن إرادتنا جميعًا ؛ معاد مكتوب في كتاب معلوم .... لا والدك ليس من قتلها .. هل كل هذا و لم تصـدق أن والدك برئ ؟ .. يا حسرة قلبه عليك يا "وائل" .. قلبه الذي إحترق لأجلك يا "عزيزهُ" .... ما علينا من كل هذا الهراء .. جاء وقت الإتفاق .. فماذا تختار يا "وائل" ، ان تعمر القصر ؛ أم ان تترك الخلافة لمن بعدك .. ف لأن يكون نسل القصـر مرتبط بيننا و بينكم قد حدث ما حدث بينك و بين "عبير" الغولّة ؛ يا شـقيّ ، هي التي سوف تنجب لنا منك وليّ العهد الجديد .. ف هذا السـرداب لم يفتح أبوابه للموتي فقط يا "وائل" بل لكل الأحبة المشـتاقة لكم منذ العهد القديم .. ف انت من لك الإختيار الأن .. ف ما اسعدك يا أبن العهد !! .

◇ وَسَن ◇

- تفضل يا استاذ .

= ها ؟ .

- تفضل بالدخول ؛ سوف نبدأ .

أفاقني من غفوتي الوسَنية الصوت الداعي للدخول رغم وصولي في ميعادي ؛ و لكن تأخر الدخول نصف ساعة كاملة من العمر الذي لا نملك فيه وقت للراحة ؛ دخلت ببطء الي ما سوف يَمحي أُميتي في الحياة الغانية التي لا تتوقف عن أن تُعلمنا ما يؤلمنا و يقل منا ... دخلت الي الغرفة الواسعة بشساعة بشعة لمن هو غير مُعتاد علي إرتيادها ؛ الإضاءة الفاجعة مُلهِبة أعصاب العين و الكراسي الكثيرة و الوجوه العديدة غير المعهودة عليَّ و مكيف هواء غاية في البرودة و لكن ليس ببرودة هؤلاء الناظرين ؛ جميع العيون تُبحلق فيَّ ، كل نظرة تخترق خصوصيتي و تُميتُني من حرجي ، لمحت إبتسامات و مزاح متبادل ب كلام ينخر روحي ، لماذا لا يترك الناس الأخرين في سلام دون همسات المضايقات ؛ لم لا يعرف الناس السكوت عن المكبوت من أستهزاءٍ قاسي في داخلهم العفن ؛ جلست في المجلس الخالي في أخر الصف ، حين جلست صدر عن الكرسي البذئ صوتٌ مقرف يوحي بأن بطني تملؤها الريح ، ف علا صوت الضحك و رأيت شاب ظريف يضع يده النجسة علي منخاره

المفلطح سارق الأوكسجين من الباقين لكي يحمي نفسه من الرائحة المعدومة ؛ فما كان مني إلا أن تحركت ثانية علي الكرسي ليطلق نفس الصوت و لأتبرأ من تهمة كركبة القاولون ؛ بدأ المحاضر الشاب ذو العوينات الصغيرة و الشعر القليل قريب التساقط من الكلام التعريفي عنه و عن تاريخه غير المؤرَخ ؛ و عن المحاضرة المُراد شرحها اليوم ؛ و يبدو أن شباب هذه الأيام لم يَعوُدو يقبلون النظري من العلم ؛ ف حين قال المحاضر :

- اليوم هو أول محاضرتنا في كورس ال ICDL؛ و اول محاضرة دائما ما تكون أغلبها نظرية كلامية فارغة في المُعاد و المحكي من قديم الأزل ؛ الذي أعتقد انكم جميعًا تعرفوه ؛ و لكنه واجب عليَّ شرحه ؛ و لكني أعِدَكُم اننا سنُلحِق به جزء طفيف لطيف من العملي.

انا لم يكن يفرق معي كثيرًا سواء ذلك او ذاك ؛ الجهل بهم متساوي ... بدأ الشرح و خفت التهامس ؛ أخذ المحاضر في الكلام الإنشائي الذي أشعرني بغبائي اللامتناهي و هو يعرض بعض الصور علي شاشة كبيرة بضغطة عليها تتبدل المناظر ؛ كلام عن أشكال قديمة و أجزاء أساسية و وحدات إدخال و تخزين ؛ كلامٌ كبير ؛ و صوَر كثيرة العقل لم يتحملها ؛ حتي فجأة أحسست بيد تهزني ؛ ما هذه البجاحة !! ؛ ف ألتفت الي يساري لأرى من السئيل الوقح ؛ كان شاب يبدو عليه الإحترام قال لي انني نمت ؛ اللعنة علي الإرهاق و ما يفعله فيَّ ؛ بالتأكيد علَّى شخيري البائس حتي ملئ الكوكب و وصل للجميع ؛ الذين أستمروا في البحلقة فيَّ كما الشامتين في زاني ؛ عَدَلتُ من جلستي التي اهانت كرامتي ثانيةً و بدأت التَنَبُه للشرح بملل سقيم .. أخيرًا تعب الرجل الكلام و نشف ريقه و توقف حينة ؛ نظر في الساعة التي نظرت فيها بالتابعية ؛ فوجدناها الخامسة و

النصف ؛ أي ما يعادل نصف الوقت قد مر ؛ طلب إستراحة صلاة لإراحة القلب و العقل .

خرجت لأستنشق بعض الهواء غير النقي ؛ المكان في الخارج مغلق و معبق برائحة التدخين ؛ أشعلت لفافة تبغ ماركة الكيلوبترا المعتقة المكتومة التي تقضي علي صدري و عمري بأسرع و ابطء وقت ؛ جلست اراقب من راقبوني منذ قليل ؛ تلك الفتاة الحسناء ذات الكعب العالي ؛ ٩٧% تحاول لفت أنظار الشباب من حولها ؛ حتي أنها لفتت نظري شخصيًا بألوانها المبهجة المبهرجة و ضيق ملابسها الملحوظ ؛ المقصود ، و صاحبتُها ضعيفة النظر مثلي ؛ الأقل جمالًا و حضورًا بملابسها الخِماريّة الطويلة ؛ رغم ما تَنُم نظراتها من ذكاء و تربية ملحوظة ، و هناك ذلك الشاب السخيف مثل الفرقع لوز الذي يظن نفسه خفيف الظل ف يكثر من السخرية و التريقة علي أي شيء يحدث ؛ و يقف في جانب منزوٍ شاب يدخن لفافة ٨٩% بها نسبة حشيش ، اللون الاسود القاتم في كل ملابسه يدل انه خطر ، و ألفاظه قميئة ؛ كدت أسُبُه حين سَب زميله ، فالمسكين إرتطم به خطأً و بعدها قدمً له الإعتذار الواجب ، و لكن هل يرمي روشنته في القمامة بقبول العُذر من شاب محترم ضعيف ؛ و كيف يلفت النظر إلا بإهانة المحترم كثير الأدب ب قلة الأدب ، على الجانب الأخر هناك إثنين زملاء لمحت فيهم و في أسئلتهم - المدمرة لخلايا عقلي الخاملة - الذكاء الحاد ؛ يدونون ما لا يمكن لأمثالي سماعه عن قرب ، يكونوا هم دوَّنُوه و توقعوا ما يليه ، هؤلاء الشباب يملك منهم مواهب لم تمُر عليَّ حتي في شبابي البائد ، الباقي مُتشابه و لا يفرق عنهم كثيرًا إلا في إزدياد نسبة قليلُوا الأدب و عديموا التربية .... اهوء اهوء ؛ ربو جاف كاد يُحلق بروحي في سفر لدار الحق و ردم شيخوخة جسمي بتراب القبر ، خِفتُ علي نفسي ؟! ؛ بالطبع ؛ ليس لأهمية حياتي لنفسي ف طول

البقاء ف هذه الدنيا ليس من الأفضـــال التي أتمناها ، و لكن طالما هناك من يعتمدون على هذا النفس - الداخل الخارج - ف عليك أن تحافظ عليه قدر ما تقتدر .

إنتهت الإستراحة المحدد لها مسبقًا أن تكون ربع ساعة ، رجعنا إلي أماكنا و رجع المحاضـــر يتلو علينا باقي النظري الذي أضـــاع نظري في التمقيق فيه ، ملعونة التكنولوجيا ؛ لعنةُ الشيطان المغرور ؛ ف الإثنان يحاولان أن يغلقوا في وجهي أبواب الرحمة .... حين إنتهي المحاضـــر من ملفات النظري التي كنت أظنها لن تنتهي ، وقف لحظة تأمُل ، إنه لم يتعرف علينا و علي أســامينا بعد ؛ ما هذه البواخة ؟! ، لا يَهُم ؛ علي الأقل سوف أسمع شيء أفهمه لا يجعلني أنام ، هتف كلٌ من الشباب الزُمرُدي المعتاد على التمردِ ؛ بإسمه ؛ حتي أتي الدور علي الشاب السخيف محب الكوميديا ذو اللا شخصية و رمى إسمه مضيفًا له سِنه ؛ و أعتقد أني فهمت سبب هذه الإضافة الماكرة ؛ دار الدور حتي وصل إليَّ ؛ فهمت ان علي التكلم حين عم الهدوء التام المنتظر لقنبلة الضحك التي سوف تُرمى الأن .....

- حلمي عبد الباسط الطيب .

إنفجار تام أصـــاب المكان ، قهقهة مدمرة مُسـيِّلة للدموع ؛ قهقهت أُمُهُم عليهم من البكاء كمدًا .. حتي زعق فيهم أخيرًا المحاضـــر - جعل الله له عنده خاطر و تغاضـــي عن ســيئاته - للســكوت .. هل أضحكهم الإسم ؟ ؛ قد يكون قديم عليهم بعض الشيء ، أم ما زغزغ فِشَتِهم العائمة طبقة صوتي المُتجلدة و تزييق الصوت من أثر الكِبَر ؟ ؛ أيً يكن لم يكن هناك ذرة إحترام لي في أي حالة .. عندما عاد الهدوء ؛ رفع المحاضـــر يده لي كأنه يدعوني للتكملة ؛ هل يمزح معي ؟! ؛ يريد إكمال النكتة بذكري للســـن ، لن اجعله يطول هذا ؛

حركت يدي ببطء بإســـتواء يمينًا و يســـار ؛ بمعني أني لن أُزيد بالمزيد.

بعد إنتهاء وصـلة التعارف الخنيقة ؛ إسـتمر المحاضـر ف الثرثرة حتي فاض بي الكيل ؛ كدت أصرخ و أقوم لأشق ذلك الفتي السخيف محب المزاح نصفين كَ بيوضـه المدلدلة ؛ ثقلته أمه أو لكانت بركَت عليه صـــغيرًا ، أخيرًا إنتهينا من الشِـــق اللتات و دخلنا في معمعة العملي و ليتنا بقينا كالخالات في اللت و لم أقع في هذه المهزلة ... كان مخصص لكل طالب منا جهاز كمبيوتر ذو التقليدي من الشكل ؛ طلب منا فتحه ، و بدأت المشاكل ؛ ذلك الشيء حديث علي ما عهدت بعض شـــيء ؛ أين أخفوا الزر أولاد الزانية ؛ يبدو اني أطلت البحث حتي ان الجميع قد جلسوا أمام شاشات مفتوحة جاهزة للطلب القادم ؛ جاء لي المحاضر الذي أصبح شبحًا كوميديًا أخر يحاول الإقتراب من بعيد و لكن بأســـلوب لا يجرح المقذوف به كثيرًا ، و دلني علي الزر الذي كان أمام عيوني و إعتقده علامة تجارية ، الأمر الثاني كان أبشع ؛ طلب منا نقر أيقونة الشباك الملون المُسمى لدي الإفرنج "ويندوز" و كان هذا ســـهلًا ؛ بعد هذا أمرنا بالبحث عن طريق الكتابة عن كلمة بحروف إنجليزية "M,i,c,r,o" و عن طريقها سوف يظهر برنامج نضغط عليه ؛ بحثت في لوحة المفاتيح ؛ مفتاح مفتاح عن حرف ال " M" صبرني و صبركم الله ؛ حتي وجدته ؛ و بحثت في دورة ثانية عن حرف ال " I" لأني نســـيت إذا كنت قد مررت عليه مســـبقًا أم لا ؛ حتي كاد يُنفَخ في الصـــور ؛ لم يتحمل المحاضر ذلك او لم يرغب في إحراجي أكثر ؛ ف إختصر المسافات الي نيوزلاندا التي كنت ســـأقطعها و أكمل الكلمة هو ؛ فُتِح البرنامج و ظهر ان به خلل ما لم أفهمه و وعدنا انه ســـوف يُعاد إعداده المرة القادمة ؛ لعنت حظي الســـيء و إســـتمرار جهلي حتي الغد ايضًـــا؛ و كأني أهتم ، و كنوع من التسـلية الهزلية طلب أخيرًا أن نفتح برنامج

الرسام ؛ لا يتغانى عن تهزيقي بأشنع الصور ، فتحت البرنامج و نظرت للصفحة البيضاء النقية المطرزة من فوق ببعض الأيقونات غاية الصغر التي لم أستدل علي كل فاعليتها ؛ و طلب منا التحرك بالفارة لرسم اي شيء ؛ أعصاب يدي الرخوة بدأت في التحرك بالفارة المنهارة في قبضتي المهتزة عليها ؛ بدأت أرسم خطين طوليين صغيرين و من تحتهم نصف دائرة صغيرة فتحتها للأسفل ؛ محاطين بدائرة كبيرة تجمعهم و عند الخط الطولي ناحية يميني نزلت بالخطأ دمعة مؤلمة متمثلة في نقطة حبر صغيرة .

***

إنقَضَت المُحاضرة الاولي و قَضَي عليَّ التعب ؛ تمتخرت في الخروج حتي فرغت القاعة إلا مني ؛ لم أحب الإختلاط بين هؤلاء الأوغاد ، خرجت من المبنى ذو السلم المُتعِب و ترقبت هواء الشارع المُعبق ليلًا بالمطر الثقيل ، إرتديت الجاكيت الذي إشترته لي زوجتي في تخفيضات الشتاء الماضي ، شهر فبراير ذاك مُهلك و غير متوقع ؛ وقفت في إنتظار سيارة بطلوع الروح جلست في الكرسي الوحيد المُتبقي ؛ و كان القلاب كثير التقلب للنزول و الطلوع ؛ نزلت من عليه أكثر ما جلست و كأن الجميع في غاية أنفسهم يريدون بلّي و نزولي بدور زُكام يطرحني علي السرير ؛ جميع من في السيارة مُتجهمين غائبين عن واقعهم و واقعي ؛ كلٌ مشغول في مصيبته و ما يؤرِقه ؛ و انا كذلك لست هادئ البال ، كدتُ اتعارك مع السواق الذي يتنمر على بطء نزولي ؛ ما حال الحياة هذه الأيام ، الكل لديه ما يُقال ولا يعرفون التكتُم أو الإحترام ، وصلت الي اول شارع البيت و ركبت قدماي توفيرًا لثمن التكتوك ، و وصلت بحمدالله ؛ و وجدت "إسماعيل" البواب يذكِرني بما عليَّ دفعه من تراكم صيانة المصعد و أعطاني فواتير الماء و الكهرباء بنظرة تهكم ؛ ف أعطيته ما كان في الجيب ولا أعرف تراتيب الغيب

في القادم من الزنقات ، ف هذه الدورة اللعينة لم تكن علي البال او الخاطر .. صعد بيّ المصعد إلي الدور الخامس و فتحت الباب لأجد صوت العراك ينبعث من غرفة الأولاد الذين حين سمعوا صوت فتح الرتاج همُّوا جريًا للحاق بي في الحمام ، أغلقت بابه سريعا و إستمعت إلى الطلبات المتأخرة التي لم يُعيلَني الزمن عليها بعد ، أصبح الأب مكينة نقود كالقاعد على خزنة بها أموال الأرض و يبخَل على ذويه ؛ جلست افُك زنقتي الأخرى و أستمع الى مُستقبل الأطفال الذي يضيع ، و الترفيهات التي كانت المُتاحة فيما سبق و حرِمُوا منها ، و المُستحدث من المرغوب جديدًا ، ملابس جديدة ، مصروف يزيد ، خروجة عنيدة مع الاصدقاء التي لا ينفع فيها التحرُج من الفقر و الظروف ، حجز حفلة التخرج ؛ ماذا يا ايتن يا صغيرة ؟ ، تريدين دراجة ؟! ؛ اااه ؛ حزقة من ألم عدم الخلاص في كلتا حالاتي ، خرجت مع إنتهاء ماراثون الطلبات التعجيزية ، ثم حضرتْ لي زوجتي المُطيعة الطعام القليل المُتبقي من امس ؛ سندت قواي بالقليل منه ، و جلست أشاهد التلفاز و أُراقب أخر اخبار الحياة و جلست زوجتي – بعد نَشر الغسيل - بجانبي :

- ما هي الأحوال معك اليوم ؟ .

= جميلة كما ترين علي وجهي .

أسئلنها تثير غيظي ، انا أحبها لا أنكر ، ف هي طيبة و مُستكينة و حافظت علي بيتي و تحملت مُعاشرة عشرتي المُقرفة ، و لكن لا أعلم لماذا أُحب ان أرد على أسئلتها بجفاء ؛ يَبتُر الحديث .

- ماذا فعلت في هذه الدورة ؟ ، إحكي لي .

ماذا أحكي لكي ؟! ؛ هل قد ترغبي في سـماع نكات سـخيفة عن شـيبتي و مراهقة متأخرة صـابتني علي أخر عمري ، أرجو أن تكوني رَبَيْتِي أولادنا جيدًا حتي لا يصـبحوا نسـخة قبيحة من أولاد القحبة الذين تعاملت معهم عن قرب اليوم .

- لا تريد التحدث .. أسفة ، و لكن هناك ما عليَّ ان أحدثك فيه.

الجديد من الطلبات و الكماليات الناقصة من حياتنا الناقصة ؛ عليَّ انا فقط أن أُكمِلها ؛ لن أستطع تحمل المزيد ؛ سوف أخلد للنوم .. تركتها تتحدث مع نفسها و سرحت عيني في التلفاز و هو يذيع في لقاء تلفزيوني عقيم أخر عن الحلول الإقتصادية التي توصلت لها الحكومة للقضاء على الشعب ؛ أم جوع الشعب ؟! ؛ لا أذكر ؛ يبدو انني نمت .

***

إستيقظت مبكرًا علي سريري ، الذي مشيت له في غير وعيٍّ مني بالتأكيد و انا نائم ، دخلت الحمام قضيت حاجتي و توضأت ؛ في الظُلُمَاتِ الحالِكاتِ عليك الإستعانة بالصلاة لتُنير لك قبسًا يُهدِيك و يُهدِأ إرتطامتك العمياء في دار الإبتلاء ؛ إرتديت نفس ما كان عليَّ أمس بذات الجاكيت ؛ لا يوترني عدم تغيير المناظر ولن اكون من عارضي أزياء الموضة ؛ لَمَعتُ جزمتي السوداء ذات الجلد المُتَقَشِر و نزلت لأركب ما يلتقفني و سريعًا يحذفني أمام بوابة عملي .. رميت السلام علي أفراد الأمن ؛ مضيتُ بالحضور في دفترهِ ؛

طلبت القهوة السادة لكي أُفيق من زخم أفكاري ؛ حتي تَنَطَّع عليَّ ما أرق أيامي مُسبقًا و عاد مجددًا .

إقتحم عليَّ المكتب الضيق "داوود" ؛ و هو هنا مثل مدير تشخيصي للعمل و مستشار عن العاملين لدينا ، قد كسر الثلاثة و الأربعين في عيد ميلاد خلاب كنت أحلم بتقديرٍ مُماثل له طوال فترة عملي التي قاربت على الإنتهاء و لم أحظي بكلمة شكر حتي و الأبوَخ ما هم هامون بفعله ، جلس على الكرسي الذي أمامي و هَم بالثرثرة :

- ما أخبار موظفنا الهُمام اليوم ؟ .

= ما رأيك أنت ؟ .

- أراك متعب و مختنق ؛ هل بدأت الذهاب للدورة كما نصحتك مسبقًا.

= نعم بدأت أمس ؛ و لعل ما تراه اثار الغُبار الذي إنزاح عن بشرتي بالفهم و التكنولوجيا التي حصلتُها .

- أحسنت ؛ و إن إستطعت تكثيف محاضراتك يكون أفضل لك ، حتي تحظى بالامتحان أسرع ؛ قبل باقي الشباب الحالمين بمكانك الفَخِم .

= يا أهلا بهم في مقبرة العمل الحكومي ؛ يالـه من مســتقبل مُبهِر ؛ ليتني كنت شابًّا .

تركني بعد ما وَصَـل لي الرسـالة المُرة بمرارة القهوة السـادة على الريق .. أذكر معالم وجهَهُ الفجّة حين تلى علينا في الإجتماع الأخير ؛ أخر الأخبار :

- في هذا الزمن إنتهت الأعمال الكتابية اليدوية ؛ نحن في زمن التكنولوجيا ؛ ناطحات السـحاب و الروبوتات و مازلنا نحن نكتب الإسـتمارات علي أيدينا في سـجلات بائدة ؛ هذا كلام فـارغ ؛ أعتقد أن الجميع يوافقني علي ذلك ؛ و يعرف كيف يكتب علي الكمبيوتر ؛ و بهذا قررنا اننا سـوف نسـتبدل هذه الأعمال من العصـر الحجري إلي بعض من التطور الطفيف بالنسبة للعالم .

و حين أفهمته علي جنبٍ بأني لم يسـبق لي التعامل مع الكمبيوتر ؛ رأيت في عينيه فرحة إليكترونية (٠١٠١٠١٠) لم أترجِمْها ؛ قال بأنني سوف أكون قديم الطراز علي الهيئة المتطورة التي سوف تولد هنا ؛ و لهذا ف لي حق من إختيارين ؛ الأول تعلم الكمبيوتر و كيفية الكتابة عليه في هذه الدورة الملعونة التي إلتحقت بها ؛ أو إحالتي علي المعاش مُعززًا مُكرمًا و إتاحة فرصـة للشـباب الجُدُد ؛ و أظن واضح إختياري .

ملعونـة الهيئـة و ملعونين عـامليها ، انـا لا أتمسـك بهم ؛ و لكن المعاش سـوف يقسـم راتبي النصـف ؛ في دنيا الأسـعار فيها زادت

الضِعف ؛ من سوف يَقْدِر علي العيش مع هذه الطلبات التي لا تنتهي ولا تستقر ، و ليس هناك من يرأَفِ او يُقَدِر .. لم أستطع البوح بهذا لأسرة كل أمالها عليَّ وحدي ؛ و يبدو اني أخطئت في هذا ؛ و لكن هل كان سيفرق يا تُرى ؟ .

إنتهت ساعات دوامي ؛ و مضيت بالإنصراف في دفتره ؛ و هربت من الساعي أمِلًا في دفع طلباتي في يوم يفتح الله فيه عليّ من وسعٍ .. ركبت مواصلة مأجورة ؛ حيث ان المركز بعيد عن مكان عملي بعض الشيء ؛ فاصلت مع سائقها الدوني في نصف جنيه ؛ أجزم انه ليس من حقه ؛ و إذا رضخت هذه المرة ف لن اتوقف عن دفعه زيادة كل مرة .. قبل المركز بشارع وجدت مطعم صغير يبيع سندويتشات الفول و الباذنجان المقلي الذي أفضله ؛ فشَقَيْتُ ريقي و إقتصدت ؛ أخذت نصف رغيف من ذلك و نصف رغيف من الأخر ؛ قَبَلتُ يدي وجهًا و ظَهرًا حمدًا لله علي نعمهِ التي لا تعد ولا تحصى ، و إنتظرت نصف ساعة أتأمل وجوه البشر أمامي ؛ هذه المتسولة صغيرة السن الُمسرَحة من التعليم و من خاطفيها من أهلها بالتأكيد ، ملامحها تدل علي جمال خلاب إفرنجي لا يوجد عند من تُسنِد إليها القروش التي تَلِمُها ؛ حالي أفضل من حالها بالتأكيد ؛ و هذا الرجل صاحب محل سندويتشات الفول السيئة و بجانبه خمسين مطعم أخر أفضل منه ؛ و سعادته بي تدل علي أني أول إسترزاقه اليوم ؛ و قد أكون أخره ، أيضًا حالي أفضل من حاله .. و هذه السيدة الكبيرة المجرورة بكرسي ذو عجل ؛ التي لم تختبر ملمس الأرض منذ زمن و انا مازلت بصحتي ؛ و ذو العوينات السوداء الذي يحاول إظهار انه بلا إعاقة لولا إصتدامه في طريقه ب سيارة واضحة وضوح الشمس ؛ لما كنت علمت بعدها انه فاقد البصر؛ علي الاقل انا رأيته رغم انه لم يرانى .. هناك الكثير من النعم التي مازالت متمسكة ب حياتي و لم تخونَّني ؛ و تأمَلُني لأظل مُستَمسِكًا بالأملِ .

صـــعدت في ميعادي بالتمام ف انا موظف حكومي مخضـــرم ؛ و مَضـيتُ في ورقة حضـور أخري ، جلسـتُ مطرحي في ذات مكان البارحة ف قد أخذ عليّ و إسـتنأنسـته .. تجمع الشـباب متأخرًا مرة أخري ؛ و بدأنا بعد نصف ساعة أصابت دماغي بصداع فظيع مع تغيير الجو من الداخل الي الخارج في هذا البرد القارص ؛ دخل المحاضر و عليه أعراض زُكامٍ حاد ؛ ف إعتذر عن تحشرج صوته و هدوء إنفعالاته ؛ بدأنا من حيث إنتهينا أمس ؛ فتحنا الحواســيب و كتبنـا علي برنـامج "الوورد" و بـدأ في فك رموزه و لكني وجـدت نفســـي عالقًا لا أعرف أين أتحرك ؛ يبدو انني جالس علي جهاز به مشـكلة ؛ أم انا من قمت بشــيء خاطئ ؛ الذين بجانبي يفرون في ما يقوله المحاضــر و انا غارق في ســطرين لا أعلم كيف أتخاطاهم ، إنحرجت طلب المســـاعدة من زميل ؛ و إذا طلبت المحاضـــر ف العيون بأجملها سـوف تتسـلط عليّ كأني كائن بدائي خرافي ؛ أثرت السكوت ؛ و الصداع ينهش أعصاب دماغي ؛ تفكرت ف كل الكرب الذي أمر به ؛ و صراعي مع الوقت الذي لا ينكب ؛ و انا تائه محرج ؛ كيف أتعلم و انا لست ببال مرتاح ؛ أسأتعلمُ ضغطًا !!! ؛ في العمل ضغط و في البيت ضغط و في المستقبل ضغط و الأسعار ضغط ، كلمات الحاسب تسخر مني و من جهلي ، دماغي سوف ينفجر .... خارت قواي مع قوي المحاضر الذي سمح للجمعِ بإستراحة صلاة ؛ الجميع خرج و تركوني وحدي تلتهمني الحياة ؛ أردت أن أصـــلي و لكني لم أقدر علي النهوض .. أغمضت عيني في إستسلام و سلام ؛ ولا أعرف كيف عَلِمتُ أنني لن أفتحها مجددًا .

◇ تَوَحُد ◇

١

● نبوية ●

كنت اقوم من جلستي السريرية و وقفت - إذا أسمينا الإحتداب وقفة - و تنغمشت الرؤية و إسودت الدنيا في عيني ؛ و وقعت من طولي .. ضـــامت بي الأرض حتي كدت أفقد إلتصـــام كل عظامي ؛ لم يتركني حفيدي صـابر .. جرى بي الي المشـفي الحكومي الأقرب ؛ في سيارة الموتي التي يعمل عليها صديقه في الحارة ؛ حين وصلنا كان الازدحام أُمَمً مُأمَمَة ؛ كنت شـبه فاقدة الوعي و لكني اشـعر بما يحدث من حين للأخر ، رأيت " صـابر " مُتَلَهوج متلعثم لا يستطيع شـــرح كلامـه مع كـل الوجوه التي مرت على مســـتوى نظره و الأصـــوات المتداخلة ، كنت اعرف انها ســـوف تُؤثِر علي حالته بالسلب ؛ حمدًا لله انه لم يكن وحده ؛ كان معه صديقه "جعفر" الذي لا ارتاح له ولا اقبله ؛ و لكن اليوم هو مفيد الحقيقة بالســـيارة التي نقلتنا و تصـــرفه العنيف الأن مع الممرضـــة اللعينة التي لا تهتم ولا تســـمع ؛ حتي توصـــل الي بِنَيَّة ابنة حلال جميلة ما شـــاء الله ؛ لولا الظروف لفاتحتها في أن أخطبها لصـابر .. أخذتنا و صـعدت بنا إلى غرفة خاوية لم تكن مجهزة و لكنها مقبولة ؛ حتي أســـندوني الى الأجهزة و المحاليل ؛ و إختفت من عيني الرُؤى .

٢

● جعفر ●

يا بيوضـي أخيرًا وجدنا غرفة ؛ و إنتهينا من هذه الوقعة السوداء ؛ هذه الجدَّة الجثة مُتعبة ؛ المرة الخامسة بعد المليون التي يناديني فيها صابر المتخلف هذا لأنقذ معه جدته التي لا تموت .. صابر ليس أعز

أصـــدقائي و لكنه مفيد في أحيان كثيرة ؛ و يوفر لي ما أحتاجه من مال ؛ صحيح حالته ليست طبيعية و لكن هذه فرصة أسنَح لا يجب علي شخص مثلي ان يضيعها ؛ أنسَنِد عليه ف الضوائق المالية ؛ و احيانًا يترك لي محله لأستعير منه أشياء أبيعها و لا أردها ؛ و لكني علمته كيفية أن يُداريها ؛ انا لا أقوم بشيء غير و هو محسوب جيدًا و مصلحتي فيه مئتان بالمئة .. إنتظرنا عشر دقائق في الخارج حتي أتممت الممرضة - المُعَسَلة كالعسلية - عملها و أقرت بإستقرار الحالة ؛ و هدأتُ صابر بالمُصَبِر من الكلام الذي لا أريده ان يحدث ؛ و حين خرجت الممرضة غازلتُها و لامستها بغير قصدٍ مقصود ؛ و حاولت أخذ رقمها للإطمئنان عليها و علي الجدة الجثة ؛ و لكنها تعففت و نظرت لي نظرة حقيرة أحببت تَمَنُعها و راق لي كثيرًا ، ليت جميع النساء تعففت حتي عن الحلال ؛ جاء طبيب مُتَرَهِل بطنه مُتَدَلي و دخل علي الجدة الجثة و كَشَـــفَ ســـريعًا ؛ و ألقي الأخبار المُقرفة المُفتحة للخيال ؛ ان ســت نبوية بخير حال و أعضــائها كلها ســليمة ؛ الضــغط فقط إرتفع و ســوف ينخفض تدريجيًا ؛ و يمكنها الخروج في الغد .. جميل هذا الكلام السليم كأعضاء الجدّة .

٣

● صابر ●

إطمأنيتُ بعد كلام الطبيب المُطيّب ؛ دخلت الي غرفتها و نظرت لها نظرة موَدِعَّة بوعد بلقاءٍ غدا لأخذها الي بيتها ؛ ف أنا أعرف انها لا تحب نومة المشـــفي ، يا تري بماذا تحلمين الأن يا جدتي ؟ ، نزلنا الي الحســابات و دفعنا ثمن الليلة و متطلباتها ؛ الحمدلله أني لم

أنسَ النقود و أننا في أول الشــهر .. عُدنا بســيارة جعفر الطائش في قيادته ؛ و تركني وحدي أمام مدخل العمارة و أخبرني انه ســـوف يكلمني في أمرٍ هام غدًا ؛ و دخلت البيت الموحِش بالوحدة ؛ جلسـت علي سريري بعد تغيير ملابسي و أعدت الحليب الساخن و تمددت ؛ و كان بجانبي ســـرير جدتي الخاوي ؛ تعلمين أني أخاف النوم في البيت وحدي ، حاولت و لكني لم يغفل لي جفن ؛ وثبت الي التلفاز لاشغله و إخترت قناة الرسوم المتحركة التي تشعرني ببعض الأمان و تنســيني الخوف بُرهة ؛ كنت أحتاج للتبول و لكن لن أدخل الحمام بمفردي ليلًا ؛ لن يحدث انا أسف ، قد اضطر لفعلها علي نفسي اليوم فقط ؛ أعدك سوف أغسل بنطالي بنفسي هذه المرة و لكن لن أدخل الحمام ، اسف .. منتصف الليل مر عليه ثلاث ساعات و انا بوعيٍ مكتمل ، أمامي عملٌ غدًا ؛ و بهذا الشكل سوف أنام في المحل و هو حلٌ أرحم بالنسبة لي .

٤

● سلمى ●

إستيقظت السيدة التي علمت فيما بعد أن أسمها "نبوية" ؛ مُشعثة الشعر الفضي و سُمرة التجاعيد تكاد تأكل وجهها ؛ ف عرفت منها انها سيدة في السبعين من عمرها و لكنها بصحة شبابية تُحسَد عليها ؛ أطعمتُها الإفطار القليل المســـاند للمحاليل ؛ و عندما هممت بالخروج مســـكت يدي و تَبَتَت و طلبت مني البقاء ؛ ســـألتني عن حفيدها ؛ لم أعرف ايهما كان ؛ و لكني توقعت انه الشـــاب المتوتر الذي كان يبكي كثيرًا و تأكدتُ من ذلك بوصفها له ، و إعتذرتْ لأنه بالتأكيد سوف يأتي لأخذها متأخرًا بعد أن يُنهي عمله ؛ و بإستدراك ليس له داعي بدأت تحكي لي حكايتُه المأساوية التي لم أطلب سَمْعَها

و لكني لم أتضـــايق من سَـــمَاعِها ، حكت لي انه يتيم ، مات ابويه ؛ الذي أبنها منهم ؛ في حادثة مؤلمة على متن حافلة نقل عام ؛ و كان لايزال في الثالثة ، ف تولت هي تربيته ف لم يكن له غيرها و لم يكن لها غيره ؛ في البداية ظهرت عليه أعراض غريبة ، حرج زائد و خوف من الناس ؛ و إنزعاج شديد يصل لحد الصرع من الصوت المتداخل العالي ، تلعثم في الكلام ؛ و العقل تأخر نموه مع السـنين ؛ بعض الشيء ، عرفتْ فيما بعد أنها أعراض مرض التوحد ؛ و لذلك عانت معه كثيرًا في مدرســته الحكومية ذات الأطفال السُــوقِية المُتَنَمِرين و لم تملك أموالًا كافية لنقله الي أخري خاصــة ، ف كانوا يعيشــون علي معاش جده و أبيه المرحومين ؛ لملم ما إســتطاع من التعليم ، و لم تتحســن حالاته كثيرًا .. ف قررت أن تبحث له عن عمل بسيط يناسب قدراته عند صديق قديم لوالده ؛ كان عنده محل أحذية و تكرم الرجل و فعل شـيء لله ؛ يشكر عليه ؛ و إستمر معه حتي الأن و قبضه ليس بالكثير لكنه مع المعاشات يقربُ إلي الوفير ؛ فَ هم في الأخير إثنين ، و حكت عنه بإستفاضة مُعَدِدَة صفاته ؛ و أعتقد أني فهمت مغزاها ، قالت أنه طيب و خدوم و ذو قلب أبيض لا يعرف الكُرْه و برئٌ كالأطفال - *بالطبع يا حاجَّة* - ؛ مُخلص و علي خُلُق ؛ غير حُســنُه الذي لا تنكره عين ولا تســتطيع وصــفه الكلمات الخائبات - *القرد في عين جِدَتَه غزال يا حاجَّة* - و مشــكلته الوحيدة أنه عصــبي بعض الشــيء - *كأغلب الرجال* - ، أجبتُها أنه بالطبع يُشبِهها في جمالها ؛ فإفتخرت بذاتها و بدلالها - *الكلمة الحلوة صدقة و لها تأثير السحر* - و أخبرتني عن خبراته العاطفية الفاشلة ، أنه أحب صــغيرًا بنت جِيرَتُه التي تماثله الســن و لكنه كان حبًا من طرف واحد ؛ مُتَكَتَم عليه ؛ و أنها فقط من عرفته ؛ لأنها كاتمة أســراره و مســراه الوحيد عن مشــاعره ؛ و إنتهي حبه علي زواج المحروسة من أقرب اصدقاءه و أكثر من يضمر له السوء في نفسيته الســوداء ؛ صــاحبه ذاك الذي جاء معهم البارحة - ذلك الصــفيق المتحرش - ، و قبل أن تحاول إقحامي في موضــوع ســوف يأذي

نفسيتها ب رَفضِهِ ؛ و يجرح كرامتي ب فَتحِهِ ؛ إستأذنتُها لوجود حالة طارئة عليَّ ان أُتابِعها لقرب إنتهاء ورديتي و تسليمُها لزميلتي .

٥

● صابر ●

مع أذان الفجر كدت أتكعبل في خيوط النوم ؛ التي أصرت و أغمضت عيني في لعبة غميضة لم أصل لل " أُمَة " فيها ؛ إلا الساعة الحادية عشرة صباحًا ، تأخرت ساعة علي العمل ؛ إرتديت الجديد من الملابس حتي أرى بها جدتي و لا تحزن على إهمالي في منظري ، و سخنت الحليب الذي غلته جدتي البارحة قبل الوقعة الأخيرة .. خرجت الي الحارة المنهارة كأنقاض من أثر العمارات التي وقعت علي أهلها قريبًا و كان منهم صديقاي "علي" و "رامي" الذين لم يكملو الرابعة عشر و ذهبوا و تركوني وحيدًا ؛ أفتقدهم كثيرًا ، أحيانًا كثيرة أفكر في الموت و أخاف منه ؛ أتمنا ان أموت قبل جدتي و لا اريد ان اتركها وحدها ؛ و خائف من اليوم التي تموت فيه و تتركني هنا وحدي ؛ فالحل ان نموت سويًا ... في طريقي للمحل القريب أعطاني عم "حباطة " من عربته الجوالة زيرٌ من البطاطا ؛ ف هو يعلم أنني لم افطر لعدم السماح لي باستعمال المقود و جدتي ليست في البيت ، شكرته و حاول ان يحضتني ليُهدأ من حالي و روعي ، لكني إبتعدت ؛ لا أستصيغ أن يلمسني احدٌ غير جدتي ، التي أوحشتني كثيرًا .

٦

● نجاتي ●

صـــابر .. لِمَا انا عليه صـــابر حتي الآن ؟! .. كان أبوه عبدالله صاحبي ؛ كنا أولاد مدرسة واحدة ننعم بذات الظروف المهببة .. لم نكن فردتين في لباس واحد و لم نكن أعداء ، جمعتنا الايام كثيرًا و كان بيننا ودٌ موصول ، حضرت له زفافه و وقف معي في دفنة أمي التي كثيرًا ما أطعمته في صـــغره .. مات صـــغيرًا فجأة بعد زواجه بأربعة ســـنوات علي ما أتذكر و ترك وراءه طفل عبيط ، جلبته لي جدته ليعمل معي ؛ حين رأيته حرك شـــيءٌ بداخلي لا أعرف بماذا يمكن وصـــفه .. لا لم يكن شـــعور أنه ابني الذي حرمت من إنجابه رغم عدم زواجي ؛ شعرت ناحيته برغبة جنسية لم أعهدها في نفسي ؛ كان مراهقًا جميلًا ؛ رغم ما يعتمر عقله من خلل ؛ و جسده جميل و بشـــرته رائقة مثل الفتيات ؛ إعتنت به جدته و بنظافته كثيرًا .. لم اتردد في قبوله رغم المصائب التي سوف تحل من التعقيدات المعقدة في عقله ؛ و لكنه كان مُجدي ؛ كنت حين أحتاجه أختلي به أوقات الصلوات حيث أغلق المحل من الداخل و أضع اللافتة "مغلق لأداء الفريضـــة" ، كنت أعتقد أنه ســوف يصـــرخ و يعوي لما فهمته من حالته التوحُدية و أنه لا يحب ان يلمســـه أحد و لكن يبدو أن جدته مادت في ثقتها فيّ و أوصـــته بإتباع جَل أوامري ؛ لم أغتصـــبه لم أفعل شيئًا كبيرًا فيه و لكني كنت أحب أن أراه عاريًا أمامي و أداعب نفســي بيديه الناعمة ... و بعد هذا ب سـنتين و بعدما اثبت أنه نبيه و يمكن الإعتماد عليه بدأ يبتعد ولا يقبل من تصـــرفاتي الكثير و انا بدأت شـهوتي تخفت عنه حتي أوقفت هذه العادة المقرفة ، و لكني لم اتوقع الخيانة ..... كنت جالسًـــا في محلي الكبير الذي في مرأي

عيني كأنه توكيل "أديداس" الدولي ؛ حين دخل عليَّ أحد العملاء الجدد الذي لم يشرفني من قبل ؛ أراد أن يستبدل حذاءً بأخر و لكنه لا يملك فاتورة و يقول ان العامل الذي كان هنا - يقصد صابر بالطبع - نسي ان يعطيه إياها ؛ و لكنها ليست عادته .. بالنسبة لأي صاحب محل قد يقلق حيال هذا ؛ نظرت الي حالة الحذاء الجديد و لكني لم اتذكر هل كان هنا في محلي ام لا .. ف أتخذت حلًّاً يرضي الطرفين ؛ فتحت تسجيلات كاميرات المراقبة ؛ و حدد لي اليوم و الميعاد الذي إشترى فيه الحذاء ؛ و لكني رأيت شيئًا غريبًا .

٧

● صابر ●

في تمام الثانية عشر المضبوط معها صلاة الظهر كنت قد دخلت علي عم " نجاتي " الصرماطي ، الذي لا أحبه و لا ارتاح له ؛ لكن الحوجة و المصروف و عدم قبولي في اي عمل أخر من أي أحد - لا أعرف لماذا - جبروني علي العمل معه .. و لكنه اليوم نظراته مريبة عجيبة لم ارتح لها ، تأسفت له عن التأخير و شرحت له حالة جدتي و عدم نومي ؛ و أومأ برأسه بنفس النظرة المخيفة التي وترتني و انا لا أحب أن اتوتر ف مفاصلي تسيب و اسمع زنةٌ مزعجةٌ في أُذُني .. ذهبت لأقف أمام المدخل لأراقب الناس من خلف الزجاج ؛ حتي تحرك من ورائي و وجدته يمسك علبة حذاء غالي الثمن و عندما فتحها كانت خاوية ؛ كانت رسالة و لكني لم اتذكر ، هل باعها ؟ ، و لكن نظرته لي مرعبة لا تدل علي فرح بيع .. جلس مرة أخري علي مكتبه و فتح جهاز الحاسوب الذي لا يحمل ألعابًا تُسلِّي ، و فتح بعض الفيديوهات بها أصوات ليس غريبة عليَّ و

ناداني لأشـاهد .. وجدت صـور متحركة للمحل و انا به ب مَلبَسـي المفضـل الأصـفر في أخضـر ، و المكان خاوي ؛ و من ثم دخل "جعفر" ، سـلم عليَّ و جلس بجانبي و تكلمنا ؛ ضـغط زر جعل الصـور تجري بسـرعة أكبر حتي وجدتني إختفيت من المشـهد ؛ و جعفر يقف أمام زبون يختار من الأشـكال حتي أخذ الذي كان فيه الحذاء الغالي و بدأ الزبون يقيسـه و أعجبه و من ثم وضـعه له في كيس و أخذ منه النقود ؛ و لكنه وضـعها في جيبه و لم يضـعها في درج المال .. و عدت انا من الخارج محمل بأكياس الطعام و لم يحدثني حول الحذاء ؛ و قبل أن يذهب مد يده لي بنقود ؛ أتذكر أنهم كانوا مئة جنيهًا كان قد إستلفهم مني سابقًا و رحل .. يبدو انني فهمت ، و يبدو اني لي صـديق شـرير قد خرب بيتي ؟ .. نظرت الي عم نجاتي حتي يقول اي شئ و لكنه ظل صامت .

٨

● جعفر ●

إسـتيقظت قبل ميعادي ؛ السـاعة الواحدة ظهرًا علي صـوت نواح المرأة النكدية التي أقحمت نفسي في حياتها و أقحمتها في حياتي هي و أولاد اللبؤة التي ولدتهم لي فجأة ، ملعونـة الشـهوة التي تجعل الرجل يعتقد أنه يحب هذه البلوة .. تزوجتها في نقص عقل و تهور شـبابي في سـباقًا لم يمكنني تفويته ؛ كانت جميلة و شـهية و عليها عراك يصـل لرب السـماء ، ف وقفت كحجر سـد في الطريق و لم يقدر من احد هؤلاء الرعاع الهلافيت أن ينطق بكلمة او يُجري محاولة من بعدها .. حين نشـرت الأخبار المؤكدة انني علي علاقة

بها و هناك كلام علي حمل نحاول إجهاضه و بعض الصور المفبركة الغير فاضحة ؛ ف أمسى ابوها من يتحايل عليّ لتستيرها .. و فوزتُ بها بأرخص الإتفاقات و بلا شروط .. إستمتعت بها حقًا لم يكن يصح أن تفوتني مثل تلك الفتاة ؛ و لكن الزواج مضيعة لراحة البال و لكني لست طريًّا ولا خام لأجعل حُرمَة تقل مني او يعلو صوتها عليّ ؛ و لكني إكتشفت أن تحت الساهي دواهي ؛ و إنقلبتُ مع الأيام طريًّا و ركبتني هيا و دلدلت قدماها .. و بَلَتَني بولدين احيانًا لولا تشابه الخلقة أشك في نسبهم ف هم أعدائي ليسوا أبنائي ؛ تكاثروا عليَّ و بطحوني و شردوني .. و اصبحت من شخص يجمع هم يومه لتضبيط المزاج ؛ لجامع مُجَمِع ل مأكل مشرب كسوة علام عائلة كاملة ؛ و ضاجعوا مزاجي .... كنت أهرب من البيت بهذا العمل العقيم قليل الطلب ؛ نادر الموت هذه الأيام ؛ الناس أرواحهم متشعلقة في الحياة كما لو انها الجنَّة و لن يحيوا غيرها ؛ و لكني إستأثرت بالسيارة لنفسي بموافقة شرعية بشرط ، لو حدث فيها أي كسور او خدوش سأتولاها وحدي ؛ فأصبحت أنهي بها الكثير من الأعمال الخاصة ولا تسبب قطع الشك باليقين ؛ فاليقين الوحيد في الحياة هذه هي سيارته ، الحياة أصبحت مقرفة منذ فارقت السنة الثانية من عمري ؛ كل يوم إنتصار طفيف و فقر مُقَيَّف علي مقاس أكبر اضعاف من لابسيه ؛ فرأيت نفسي أأخذ زاوية إنحراف مَدَاريَّة نَشَلتُها ف نَشَلتني و رمتني في سكة الحرام ؛ لم يعد لي قلب يخاف او يشعر ؛ أري الناس و كأنهم ما يماثلهم من نقود قد أستفاد منها ، و كان صابر بالنسبة لي مجرد محفظة أحمل فيها الفكة ؛ و لكن بعد ما لمعت الفكرة في دماغي أصبحت الجدّة تساوي دجاجةٌ ب كِشْكٍ ، فكان عليّ البدأ بالتحضيرات .

٩
● نبوية ●

عندما حضـر صـابر لأخذي الي البيت كان منظره لا يسـر عدو ؛ أعلم هذه النظرة و هذا الحزن ، هناك شـيئًا قد حدث و ظلموه فيه و هو لم يسـتطع أن يتكلم .. كيف عرفت ؟! ، هذا حفيدي الذي ربيته أكثر من أبني و لم يخرج من حضني حتي بعد أن أصبح بغلاً يُفصل من مقاسي ثلاثة ، و أعلم انه حين يفعل شيئًا خاطئًا من نفسه يحزن و يتكدر أيضًـا و لكنه يبتسـم إبتسـامة يحاول إخفائها ؛ إبتسـامة أنه أخطأ مثل الكبار و تعلم شـيئًا جديدًا ؛ ف يحكي لي و نظل نضـحك حتي أفهمه ما يصـح وما لا ينفع ... حين ركبنا الترام لنصـل الي البيت - حيث إنه يرفض ركوب الأتوبيس ف هو بالنسـبة له ك قاتل أبويه ، و مدفنهم - حكي لي كل ما جري و كان ؛ أخبرته انني كثيرًا ما حذرته من "جعفر" هذا ، و انه عليه ان يواجهه و يذهب به الي "نجاتي" ليبرأه أمامه ؛ رضـاني او أخذني علي قدر عقلي و جلسـنا نشـاهد التلفاز مع وجبة غنية من السـمك المشـوي لتَرُم العظام و النفسية ؛ و نام في حضني ك طفل رضيع لا يعرف ما يخبأ له الغد ، حركته الي سريره الدافئ المدفأ بالغطاء الحراري و فجأة رن جرس الباب ؛ كان الهباب جعفر ، المُغتاب مني طوال اليوم بأقذر الألفاظ ؛ جاء ليسـمعها مني بنفسـه .. فتحت له و سـلم علي بطريقة مفتعلة لا تدخل عقلي ب قرش ساغ ؛ ولا تأتي منه ، و قال انه كان في نيته ان يقلني من المشـفي لولا قرف العمل ؛ سـأل عن صـابر حتي سـمع شـخيره ؛ و كان بداخلي غلٌ غليل له ؛ ف لم أمنع نفسـي من سَبَهِ و توبيخه علي ما فعله مع الولد المسكين ؛ تعرق و كاد يدمع و تأسـف عن سـوء أخلاقه و سـرقته لأخيه الذي لم تلده أمه ؛ هذا الكلام غير

معتاد يقلق المستمع و يُجِنُه ؛ سبحان مغير الأحوال .. طلب ان يُعِد لنا كوبين من الشاي حتي يتحدث معي بروادة و هوادة ف أمر هام و يعرف كيف يتصرف في أمر "نجاتي" ؛ دخل المطبخ الضيق و أعدهم ف هو معتاد علي البيت و جلس و شربنا و نحن نتكلم أنه سيذهب غدًا ليشرح ل "نجاتي" ما حدث و انه نسي ان يضع النقود في المحل و ان يخبر صابر ؛ و ان ما أعطاه أياه من نقود لم تكن تقسيم مال السرقة ؛ بل القديم من اموالٍ عليه ل صابر .. أنتيهنا من الإتفاق المقلق مع حلول منتصف الليل و دخلت لأنام ؛ كان صابر يحلم و يغطرف بصوت عالٍ كأنه خائف في كابوس خانق ؛ فجلست بجانبه علي السرير و إحتضنته و نمنا سويًا ، يا لها من نومة التي يكون فيها في أحضاني .

١٠

● صابر ●

لم أستيقظ علي صوت العصافير مثل كل يوم ؛ يبدو أن العصافير قد أخذت إجازة من البرد ؛ او لم ترد ان تيقظ جدتي التي نِمتُ في أحضناها ؛ تحركت من بين يداها بهدوء و قمت بعاداتي الصباحية من نظافة و تهذيب و مررت علي الصالة و كان بها كوبين خاليين من الشاي ؛ مع من جلستي البارحة يا جدتي يا شقية ؟ ، و انا أرتدي ملابسي شغلت التلفاز علي قناة الرسوم المتحركة بدون صوت ؛ ثم لبست الحذاء الرياضي "الكوتشي" و كنت علي وشك الخروج ؛ حتي تذكرت أني طُرِدت من المحل ؛ إذا فاليوم إجازة لي انا أيضًا ؛ غيرت ملابسي و بدأت أُعِد في الإفطار الخفيف ؛ المكون من الجبن الأبيض و بيضتين مسلوقتان بالسخان الكهربائي و طبق من الفول

بائت في الثلاجة ؛ و الخبز الذي إشتريناه امس مع السمك ؛ و أعدتُ الشاي بالحليب أيضا عن طريق السخان حتي لا أشعل الغاز الغير مُجاز لي إستخدامه ؛ و أخذت هذه الوجبة الهنية إلي السرير ، جدتي العزيزة لا تحبني ان أكل علي السرير ولكنها اليوم لن تمانع ؛ أشعر بهذا .. إيقاظ جدتي لم يكن ابدًا عملية صعبة ؛ و لكن هذه المرة هي مُتعِبَة ؛ مُتعَبَة علي ما يبدو ؛ مستغرقة و غارقة في غرفة مظلمة تائهة فيها روحها ؛ لا تعرف كيف ترجع الي عالمنا ؛ الوقت زاد و القلق بي إستبد ؛ و انا لا احب ان اقلق فحينها دماغي يسخن و أعصابي تخور و عضلاتي تتشنج .. افيقي يا جدتي لقد اعتدتُ لنا الإفطار ؛ أفيقي و حدثيني لقد إنتظرتكِ يومً كامل بلا نوم ؛ هل فعلتي مثلي و لم تغفل عيناكِ ؟ ، يكفي هذا ؛ العمر يجري من أيدينا و انا اشتاق لكي بحق . لا نفس يخرج ولا يدخل ولا أي صوت حيوي يدل علي الحياة .. صرخت من أعماق قلبي كما لم أصرخ منذ يوم مولدي .

١١

● جعفر ●

احزنني حاله الحقيقة ؛ و انا من لم يحزن على نفسه حتى ، طفل صغير ماتت أمه شيء محزن بالتأكيد .. حين كلمني كنت في غياهب النوم ؛ إستيقظت سعيدًا بالخبر و حزين منه أيضًا ، و لكن الخلاص كان مريحًا ؛ باقي أخر طلعة لكي أيتها الجدة الجثة و نستريح من عنائك و ربما ندعي لكي طوال عمرنا المديد .. الفتي لا يريد أن يهدأ ؛ بكائه صعب لا يتوقف حتي لبلع ريق او أخذ نفس ؛ حضرت الجيرة من النسوة و معهم زوجتي التي كانت تحب الجدة كثيرًا ؛

قاموا بالواجب بلا نفقات كلُ تبرع بما لديه ؛ كم يُسهل الله لك المرواح يا جدة ؛ و أجلسنا صابر علي سريرها يبكي و يمخِط و إنفلات أعصابه يُنبئ بحالة صرع لم ننتظرها كثيرًا ؛ و اغشي عليه ساعة حتي أفاق و كنا قد وضعنا المرحومة في صندوق السيارة التي حملتها كثيرًا حية و حلِمَت بحملها ميتة و ها قد كان .. ركبت انا و هو و قُلت للنساء ان دورهم إنتهي حسب وصية الحاجة التي تلتها عليّ ليلة أمس ؛ و لم يفهم أحد معني الكلام و لكن الجمع إنفض و هذا المطلوب .. سألني صابر في الطريق - و هو يمسح مخاط كاد يغرقنا في السيارة - عن وجهتُنا ؛ ف أجبته اننا ننفذ وصية المرحومة التي تلتها عليّ أمس ف انا أخر من رأها و تكلم معها ؛ و كأن قلبها كان يشعر ؛ يالها من بركة تقترب من أولياء الله الصالحين ؛ و مازال يسأل و نسيت انني لم أعطيه إجابة شافية ؛ ف قولت له اننا ذاهبون الي مشفي مختلف بعض الشيء .. و حين وصلنا كان المكان بالنسبة لي طبيعي معتاد و لكنه غريب مريب علي صابر ؛ هي مستشفي من تحت بير السُلَم في منطقة مقطوعة عفنة تظهر لمن يرتادها اول مرة انها غير مطمئنة و هذا حقيقي ؛ ف فيها تتم بعض الأعمال المتوارية التي يقيم القانون الحَدَّ علي المُرتاد عليها ؛ ركنت السيارة و نزلنا الي المشفي التي مُسِحَت ملامح أسمها من اليافطة و أعتقد أن هذا مقصود ؛ و عثرنا في طريقنا علي ممرض يصطبح برائحة تسطل من بعد خمسة كيلو متر ؛ دلنا علي مكتب الطبيب - لو إعتبرناه مكتب او إعتبرناه طبيب - و كان صابر متشبث في ملابسي من خوفه بطريقة أزهقتني كدت اصرخ فيه و لكن منعني هيبة الطبيب الأول الحقيرة ؛ كان يفطر كباب و كفتة شامية شكيت في مصدرهم ؛ دخلنا و رحب بنا و عزم كالمركبية و سدة نفسي الرائحة و صابر الحزن أكل معدته .. طلب أن يرى الجثة ، يال غبائي نسيت ان أنزلها ؛ و لكني وجدتها فرصة للمقايضة و المفاصلة ف انا واثق من بضاعتي ؛ رمي سعرًا قليل ؛ متحججًا بسن الجثة و أعضائها ، و لكني إعترضت ف إذا أكلنا بالصوت و

بالمنطق ف قد يخس نصيبي نصف ما أأمُل ؛ حتي إرتضينا بإعلاء السعر ب عشرين ب المئة ؛ و أخذت صابر ليحمل معي جدته الي مثواها الأخير ؛ حين فتحنا السيارة و طول حملنا لها كان يبكي و يُوَحوِح كالصِبية المنسونين؛ حتي تعبت أعصابي و فاض بي الصبر ف رميت الجثة ارضًا و كدت أمسك في خناقه ؛ حتي أنفجر أكثر في البربرة و تفكرت في حماقتي قد تكون تلك الوقعة سبب في تلف عضوين او ثلاثة ؛ رجعنا للحمل و وضعناها علي الطاولة الحديدية ؛ و فكينا الكفن و ظهرت لنا بوجه مرعب عليه غضب ربنا ؛ يبدو أن حسابك عسير يا جدة ماذا فعلتي في دنياكِ .. كل هذا و صابر لم يعرف بعد ماذا نحن فاعلين هو مطمئن فقط لأني معه ؛ حاولت أن أترجمه في الخارج و لكن عقله متحجر لا يفهم ؛ لا يثبت علي مبدأي إلا عندما أذكره انها وصية المرحومة الأخيرة و كلها خير لنا ؛ كم كانت تحبنا ... قبل انا يبدأ طبيب الغفلة الكشف على الجثة سأل عن مدة موتها ف قولت صباحًا باكرًا جثة طازجة صابحة ؛ و سأل عن سبب الموت ف قولت ميتة طبيعية على سريرها ؛ بدأ يكشف بعض الوقت و لكنه كل دقيقة ينظر لي نظرة تخترق ضلوعي ؛ حتي إنتهي و نظر لي أخيرًا متسائلًا إذا كنت متأكدًا أن الميتة طبيعية ؛ ف إعتمرني القلق .. أخذته من ذراعيه جانبًا و صابر مازال يبكي أطلاله على جثة جدته ؛ و قولت له انها وُضِع لها نسبة بسيطة من السم و لكني لا اريد ان اصرح بهذا أمامه ؛ هنا ضرب الطبيب كف ب كف و لعن غبائي ؛ ف لم أفهم اللهجة المتخلخلة لحواره ؛ ماذا هنالك ؟ .. بطحني بالإجابة بأن التسمم يفسد أغلب الأعضاء طالما تمكن من الجثة ؛ و هذا يعني أن هذا الشيء المُلقي على الطاولة هو خاوي من الفائدة ؛ أخرجت ما كان مكتوم في روحي بأنفي و فمي ؛ لقد أضعت الفرصة ؛ لو كان القاتل صبر على المقتول ل كان مات وحده ؛ يا إبنة الزانية ؛ ملعون غبائي و ملعون ابوكم يا أوغاد .. أزحت صابر من أمام الجثة الزنخة و حملناها راجعين بها للسيارة ؛ سألني عن السبب ؛ ف قولت له ان جدته سوف تدفن مُعَزَزة مُكرَمة

، قمت بعمل تصـريح للدفن في مصـارعة قبل مواعيد الإغلاق ، و كشفت عليها سيدة إنسدلت على أعينها غشاوة ، لعدم كشفها أعراض التَسَـمُم ، و إتصـلتُ ب زوجتي اللبؤة لتجمع النسـاء و المُعَزين و صلينا عليها العصر و سبقونا الي المقابر ؛ وصلنا قبيل المغرب ب شعاع شمس ؛ دفنوها و أراحوها و دعينا لها ساعة السؤال بالثبات ؛ و ردمنا الحفرة و روَينا التراب علي صـوت المُقرِئ ؛ و أقيم العزاء في بيت الجدة ثلاث ليالي لعلها تنسـي ما اقترفته ؛ و أنهينا الليالي و لم ينتهِ الحزن في قلب صابر ؛ حتي قررت أن اصالحه .

١٢

● صابر ●

الحياة من بعدك يا جدتي لا تُعاش ؛ لم أنام من يوم الفراق و أتعبني السهر ؛ اشعر أن راحتي فيها خيانة علي حزني عليكِ ، أعلم ؛ أعلم أنك لا تريدين شقائي و لكني لا أعرف ماذا أفعل .. تكاثرت عليّ كل عاداتي السيئة ، لم أعد أستطيع إمساك مثانتي و لم أعد ارتاد الحمام ؛ لا أكل لأني غير قادر علي إستعمال المقود و حين تأتيني نفحة من جارة لا أردها بعدها - كما كان يحدث من كرمك - ف إنقطعت النفحات ؛ و إنقلبتُ شبيها لك في آخر ايامك جلدٌ علي عظم لا إشتهاء لي للطعام .. حالات الصـرع زادت عليَّ و لم أعد اتحملها ؛ تعبت و تمنيت كثيرًا من الله ان يأخذني لكي ؛ ماذا يفعل بي هنا وحدي و ماذا ينتظر مني .. ربُ الخير لا يأتي إلا بالخير ف اي خير في حالتي تلك ؟!!! .. لا اقصُد انا اسف ، سامحيني ، سامحني يا رب لم أكن اقصد ... من كان يحن عليّ بعض الشئ كان جعفر ؛ الذي سمع وصـيتك و لم ينفذها و لم يخبرني ماذا كنت تريدين ؛ لأنفذه انا لكي .. صحيح ، كيف تخبريه هو عن رغبتك و تداريها علي حبيبك ؟!!!

؛ انـا حزينٌ منـك و لكن يعز عليَّ خصـــامك .. كـان جعفر يكثر الزيارات هو و زوجته و أولاده البلطجية الصغار ، و كانت جلستهم تلهي بالي عن الوحشـة حتي أنظر ل صـورتك الجميلة ف اشـتاق ل حضنك و ل صوتك و أغط في البكاء .. لم تتركي لي غير صورتك و رائحتك في ملابسـك التي تنام في أحضـاني؛ ألبِسُـها للمخدة علي الســرير حتي بدأت أنام وحدي لا أعرف كيف ؛ بحث لي عن عمل أخر غير "نجاتي" الذي إرتحت منه و من قرفه ؛ كثيرًا ما قولت لكي انه مقرف ؛ كنتي تضحكين و تظني انه يضع بده ف منخاره او يطلق الريح بكثرة ؛ لم يصـــب ظنك في قرفه و لكني أعتقد انك عرفتي الأن في مكانك ؛ و لن تفرحي برجوعي للعمل عنده .. لم يتقبلني أحد و إذا بدأت يومين ف مكان و تأتي لي حالة من تلك الملاحقة لي لا ادخل ذلك المكان بعدها ثانية .. لم يرأف أحد بحالي حتي نفذت أموالي و عشت علي المعاش بعد قرف ما بعده قرف في تخليص أوراق و زحمة كادت تجنِنُّي لولا معارفك القديمة و حب الناس لكي و وقفة جعفر معي ما كنت انهيتُها .. في ليلة باردة ف البيت جائني جعفر و هو حزين يحكي لي ضـــيق الحال و كثرة المصـــاريف ، كنت اعتقد انه يحتاج ســلفة غير مردودة ك عادته و لكنه قال لي انه يحتاجُني ف عملًا أخر اســـاعده فيه و لكنه لم يحدد نوعية العمل ؛ وافقت بلا تردد قد حاق بي الزهق و جلســـة البيت خانقة ؛ إتفقنا ان اقابله في مكان سبق و إلتقينا فيه مرة واحدة لا أحب تذكرها ؛ و حدد المعاد في الصـــباح الباكر و قال لي أن اســـبقه و سوف يُحصلني بعدها ب نصف ساعة ليُنهي بعض الشئون لديه ؛ نمت في حضن وسادتي المُعَطَرة ب ريحك و إستيقظت مبكرًا في تمام السادسة ، إرتديت ملابسي التي إنتقيتها جيدًا ف يجب عليَّ ان أظهر اول يوم عمل بشكلٍ نظيف يمكنني فيه أن أُلفت النظر و تأكيد صـلاحيتي للعمل ؛ ألقيت السـلام علي عم "حباطة" بائع البطاطا و أعطاني واحدة ؛ سـرى دِفئُها في جسـدي المُعتل و سـألني علي أين العزم ؟ ، ف طلبت منه أن يدعو لي ؛ ركبت ميكروباصًـا نقلني الي

أقرب نقطة من ذلك المكان ؛ و أقرب نقطة كانت بعيدة و انا لســـت خبيرًا في الطريق ف سألت حتي لا أتوه حتي ظهرت معالم تشبه ما اذكره في مُخيلتي بعض الشئ و إنتظرت مكاني في وحدة فارغة من البشر ؛ حتي وضِعَت يدٌ علي كتفي ؛ و أطمئننت بعدها في إرتياح .

١٣

● جعفر ●

إرتاح قلبي حين بُلِغت من الطبيب الرضــا و القبول ؛ و التأكيد بأن الأعضـاء سليمة غير أن السن صـغير .. هنا سوف تختلف التسعيرة كثيرًا ؛ يا عزيزي صـــابر نام في أمان ؛ ف انت لا تنتمي إلي هذه الدنيا .

◇ عَجْز ◇

- فلتستعدي هيا ؛ أنهم يطرقون الباب .

= حاضر يا أمي اللمسات الأخيرة فقط .

- يا حسرة قلبي علي المجهود الضائع هباءًا ؛ هل أنتِ متأكدة مما سوف تفعلين يا عزيزتي ؟ .

- بكل كياني يا أمي .

= أتريدين ان أدخل معكي ، أم تفضلين ان اسبقك ؟ .

- انتِ تعلمين أني يجب أن أدخل وحدي .. و انتِ سوف تضايفينهم حتي ادخل .

= اسفة يا حبيبتي انه التوتر فقط .. حسنًا ؛ سوف أسبقك .

أخيرًا .. بعد كل هذا الإنتظار قد أتى .. بعد حب دام السـنتين أتى ليخطبني .. الحمد و الشـكر لك يا رب .. أخيرًا سـوف ينفك النحس عني .. أخيرًا سـوف أعوض ما فاتني من عمري الذي يتسـرب منه السـنين بلا زواج .. سـمعت رتاج الباب و هو يفتح .. و امي ترحب بهم .. هيا .. الساعة السابعة مساءًا ، في ليلة خريفية يتهلل لها الفؤاد .

أنا جاهزة ، رغم أني لم أبدو بالشـكل النهائي الذي كنت أمله ، و لكني مقبولـة جـدًا .. اتمني ان تهـاودي يـا أمي ولا تتمنعي ، هـذه الفرصـة قد لا تأتي مجددًا .. لا أعرف هل أتمني ان تكون حيًا في هذه اللحظة يا أبي أم لا ؛ و لكن إذا كنت سوف توافق ف ياليتك كنت معي .. حـان وقـت الظهور .. ذهبـت الي المطبخ كي أدخـل معي العصـير ف يمحو بعض من الخجل المُلاحق لي كظلي .. وجدت أختي "مني" مازالت تصـب فيه ، غمزت لي مُشـيرة الي سـعادتي التي صـعدت الي السـماء و لن ترجع بإذن الله .. أعطتني الصـينية ثبتها بصـعوبة .. بعدها تفكرت ، لن أسـتطع أن احمل الصـينية و المشـي في ذات الوقت ، ف كلمت نفسـي ، و طلبت من أختي ان تنتظر قليلًا بعد دخولي و تدخل هي بالعصـير، و أنا أدخل بذاتي بلا خجل فقط سوف أُداري عيني .

دخلت و انا يفيض مني حرجي المُميت ، و إبتسـامتي تهرب من فمي ؛ و فرحي يسبقني اليه .. مع صوت أمي و هي تقول :

- ها قد أتت العروس .

رسيتُ في الفراغ ، بالقرب منه و من أمي في صالتنا الكبيرة نِسبيًا ، كان بجانبه أخيه الأصـــغر ، الذي تبدلت نظراته إلي حرج و قلق ؛ في توتر عام إجتاحه .. يبدو أنه لم يُكاشِـفه بكل خبايا الموضـوع .. لماذا تضعني في هذا الإحراج يا "سيف" ؟! .. لا يهم .. أبدا "سيف" مُلطِفًا الأجواء بعض المُجاملات علي جمالي و حُســـن ذوقي في إختيار فُســـتاني ، في مُزاحٍ لطيفٍ أعهده عليه .. و أَقَر بذلك أخوه الذائب في حرجه و إنفعلاته الغير مُصَـدَقة .. و دخلت أختي "مني" بالعصـــير الذي هم به الأخ بطريقة مُنفِرة كأنه ظمأن منذ حدود السودان الي هنا .. أعاد عزيزي "سيف" فتح الكلام للموضوع الذي نأمله انا و هو منذ سنوات .. طلب يدي و أقر بتوفر اللازم لبناء عش الزوجية .. و ان خير البر عاجله .. أرجوكِ ان توافقي يا أمي بلا كلام ، أرجوكِ ان تقبليني في تعداد النســـاء التي لها نصـــيب في الزواج و ترتاحي من همي .. نظرت لها و عيني تكاد تغرورق بالدموع .. أعرف نقطة ضـــعفها انها لا تتحمل البكاء ، و بكائي خصيصًا بعد كل ما حدث لي .. تركت هي الأمر يجري في حجري ب مقولتها المُعادة في أغلب تلك المواقف :

-الرأيُ رأي العروس .

لأفعل ما تفعله كل فتاة تخجل توَد ان تكون رقيقة ، بابتسامة خفيفة هادئة و نظرة مُنكسرة مُنكسفة من الكسوف ، ليقول "سيف" كما دبرنا مُسبقًا :

- أرى ان السكوت علامة الرضا .

بالطبع راضية و حامدة و شاكرة لقدري الذي بدأ يبتسم لي أخيرًا بعد كل تلك الويلات .. جلب من وراء ظهره باقة الورود الذي كان مُخبأها قائلًا :

- لم أكن لأقدمه إذا لم توافقي حتي لا تكون خسارة من جميع النواحي .

أخذت الورود الجميلة و ضحكنا بلطف و هدأت روحي و إطمأنت .. حتي رجع الميكروفون الي حلق أمي سائلة عن ميعاد العزم إن شاء الله .. رد عليها سيف سريعًا :

- في خلال شهر و نصف ؛ شهرين بالكثير .

حتي قذف أخيه ما كان في جوفه من عصير .. و إعتصرتُ يد أمي من القلق .. و لكنها تركت يدي و تكلمت :

- أنا أرى انه ميعاد مُتسرع بعض الشئ .. ربما تحتاجون لأخذ فترة أطول حتي تأخذوا على شكل الحياة سويًا ؛ هذه الامور لا يفضل فيها التسرع .

وافقها أخوه السئيل .. و رضخنا للرؤية العامة .. قرأنا الفاتحة بقلب مُستكين قلق .. و ألبسته دبلَّته الفضية و ألبسني - مع بعض المعاناه - الخواتم الذهبية .. و تولت تصويرنا أختي "مني" و إبتسمتُ ب شفتاي و تخوفت في روحي .. و لكن لمسة يداه لي كانت

تدعمني و تطمأني و همس لي في اذني انه لن يتركني مهما حدث .. ف إرتخت أعصابي و رجعت لفرحتي السابقة .

الأوقات الجميلة تمر سريعًا في غمضة عين .. وصلت الساعة للتاسعة مساءًا إلا دقيقتين ؛ و هنا تنحنح أخوه السئيل في مُطالبة ب فك اسره و إطلاق سراحه .. و استأذن "سيف" لتأخر الوقت .. و بدأنا في التحرك .. و طلبت من والدتي أن أمشي سابقة لهم بخطوة لأفتح الباب لهم ، و تحرك أخوه معه يمسكه من يده .. و في تلك الدقيقة خرج العصفور الصغير من الساعة القديمة الأثريّة مُعلنًا حلول التاسعة بصوته الصداح المُفجِع في حين كان قريب من اذن "سيف" ف فُجِعَ .. ثم نطَر يده من يد أخيه من الخضّة ؛ و إرتطم في التلفاز الذي كان بجانبه حتى تعثرت خُطاه ؛ و رفع يده ليتشبث بأي شئ قبل أن يقع ف وقعت يداه على كُرسيَّ المتحرك ف شَدَهُ مني حتي وقع – سيف - ارضًا و وقع الكرسي عليه و وقعتُ انا فوقهم ، ثم وقع التلفاز علينا ، صرخت اختي "مني" من الهول و حاول أخيه أن يساعدنا للقيام و لكنه لم يتفهم طبيعة جسمي بعد ، حتي هرولت أمي لتساندني و تعيدني للكرسي المتحرك .. و أسنده أخيه حتي يقف و جلبت له "مني" نظارته الشمسية التي سقطت عن وجهه مرتعبة من منظر عينيه البيضاء ، و ظهر مكان النظارة ب قرب عينيه جرحٌ غائر من أثر الإرتطامات ؛ إطمئنت عليّ أمي و كنت بخير .. و إطمأننا علي "سيف" الذي حاول تمالك نفسه و تدارك الموقف قائلًا :

- أعذروني ؛ العتب على النظر .. لم أعرف بوجود عصافير .

***

غيرت حالتي علي الفيس بوك أخيرًا و اصـــبحت في علاقة مع "سيف قدري" و غيرت صورتي الشخصية و جعلتها صورتي مع "ســـيف" و نحن نرتدي الدبل ؛ و تهالت عليَّ التهاني و الدعوات بالحفظ و التوفيق و تذكرت أناسًـــا كثيرون قد أختفوا من حياتي البائســـة و عادوا بالتهنئة في التعليقات .. فرحت جدًا .. و جاءتني رسالة علي صندوقي الخاص بعد ساعتين .. كنت أتوقع صاحبها .. "هيثم" حبيبي الســـابق الذي تركني بعد الحادثة ، يتأكد من صـــحة الخبر .. لم ارد .. لقد تخطيت أمره و بالفعل كرهته و نسيته .

وقت الحادثة كنت في ريعان شبابي في الثالثة و العشرين ، حديثة التخرج من كلية التجارة و عملت كمحاســـبة في بنك و بدأت الحياة تزدهر و لكنها كانت مُجرد بداية للويلات .. كان "هيثم" زميلي في العمل ، كان وسيمٌ براقٌ .. خفيف الظل و جميل الملامح .. حلم لأي فتاة أن يكلمها فقط .. و كنت اطمح في أكثر من الكلام و الأحلام .. مشـــيت وراء تعليمات امي في كيفية الإيقاع بعريس لُقطة .. و كان في شباكي في غضون ثلاث شهور من التشويق و عدم التذويق ؛ مع الإهتمام بنفسي و شكلي و طريقة كلامي و الحفاظ علي سمعتي .. حتي إعترف لي بإعجابه و كنا علي محور الخطوبة .. و لكن كان هناك محور أخر دمر لي كل شـــيء .. كنت اقود سيارتي ، سيارة والدي - رحمة الله عليه - ، الذي تركني بعد تخرجي بعام يتيمة الأب و بقي في خلدي و ذكراي .. كانت ليلة غائمة ثقيلة و كان محذور فيها النزول من البيت و لكن الشوق للقاء كان اصعب من التمنع و الحفاظ علي النفس .. نزلت و يا ليتني مُنِعت .. إنحرفت مني السيارة لخطأ في الفرامل كنت أعرفه مُســـبقًا و لكن نادرًا من يصـــدق ان السيارة سوف تخونه قبل أن يصلحها .. و خانتني .. خرجتُ من الحادثة و أفقتُ في المشفى فاقدة للحركة بشلل نصفي لا أمل في

شفائه .. و ضامت بي الدنيا و كأني عدوتها اللدودة .. ضاع كل شئ ، المشيُّ و العمل و "هيثم" الذي لم يسأل عني غير مرة و حين رأى حالتي تبخر مع الهواء ، حظيت بالإهتمام أيام و بعدهم رجعت الي حياتي و وحدتي السابقة ؛ فاقدة قدماي .. إنهرت ، لم استوعب كيف يمكن أن تقذف بك الحياة من علٍّ و تتركك بعاهتك تعيش و تتعايش معها .. أختي هي من أنقذتني من جنون كاد يُعشش في ثنايايا .. رشحتلي طبيب نفسي أسلوبه هو تخفيف الصدمة و رسم طريقة للتعايش مع العجز .. تهيأت و إنتظمت و واظبت علي الجلسات و خصوصًا الجماعية التي يتكلم فيها عدد من المرضى ، كلٌ عن مشكلته و كيفية تغلبه عليها ، من يرى بلوة غيره تصعب عليه بلوته أيضًا .. حتي رأيته .

جلس الطبيب مُضيفًا قبل البدء أن لدينا صديق جديد سوف يشاركنا اليوم ، في الطبيعي لم أكن لأهتم بذلك ، و لكن حين أعطاه دفَّة الحديث تمعنت و تعمقت معه بكل كياني .

- إسمي "سيف قدري عبدالنبي" في السابعة و العشرين .. كنت أعمل كرئيس وحدات تُجارية كان يملكها أبي - يرحمه الله - ، بالطبع كان هذا قبل الحادثة ، أعلم أبدو كتاجر عِطارة مُخضرم .. كنت ناجحًا و دؤوبًا ؛ كنت .. و لكن الأن لم أعد أملك الرؤية التُجارية الفادِحة السابقة ؛ ربما لأني لم أعُد أرى .. علي اي حال انا سعيد بمشاركتكم هذا الحوار و أرجو أن أفيدكم و أستفيد .

كان خفيف الظل ؛ لطيف الروح .. و رائق الملامح رغم نظارته الشمسية المُخفيَّة لأغلبها .. تصادف أن يكون يوم أن يحكي عن نفسه نكون ثلاثة فقط .. انا و هو و شاب مُراهق مُصاب بالشلل الرعاش

لم يكمل معنا ســـاعة حتى أخذته أمه لتدهور حالته ؛ الباقي - لســـرٍ إلاهي ما - قد إعتذر في يومها متأخرًا ؛ ف لم يُلغى اللقاء ، و كان هذا من حُســـن حظي .. تحدثنا كثيرًا و حكينا أكثر .. و أصـــبحنا بالتكرار و المُمارسة و العلاج النفسي السليم لأنفسنا شبه مسؤلين عن التعامل مع الأعضاء الجُدد .. و تبادلنا أرقام الهواتف كأصدقاء ناقصين يكملون بعضهم .. كان هو من يحتاجُني أكثر ف رغم العجز كنت أتحرك بالكرسي ؛ و لكنه رغم قدماه لا يرى ما حوله من جمال .. كان يحاول التغلب علي إعاقته يمشـــي في الشـــارع بلا أحد و بلا علم من أخيه الذي أصبح مسؤولٌ عنه و وفر له سائقًا خاص ، كان يريد أن يشـــعر انه طبيعي ، و تلقي من الحوادث ما كاد يُجلســـه بجانبي علي كرســي أخر متحرك .. لم يُحب إستعمال العصـا لأنها سوف تميز ما يحاول أن يداريه .. و لكن المُثابرة لم تكن يومًا قادرة على دبر الإعاقة .

في الآونة الاولى لم أكن أمشـــي معه على نهج كيفية إصـــطياد عريس لُقطة .. فقط كنت أحتاج لصديقٍ يهون عليّ أمْرِي و أمَرِّي و يمُر بمثل ما وجدت نفســـي فيه فجأة .. حين كان يتحدث عن الحادثة يكون مشـــحونًا بمشـــاعر الهوان .. و لكنه لم يخبرني كيف حدث له ذلك ، و انا لم ارغب في إقحام نفسي بطريقة فضولية تضايق ؛ قد تكون حادثة مثل الأُخَر .. و رغم ما يحمل من مئاسي كان متماسكًا يعطي القوة و يتدفق منه الصبر لمن حوله ب صـدقٍ .. كان كلامُنا مريح يخرجني من اي شعور سيئ و يسعدني ب تَقَبُّلِ احدًا لحالتي .. بالتأكيد لم يرَّ جمالي ، و لكن في حالته هو ؛ مكسبه المأمول في من حوله هو جمال الروح .. و هذا ما يَسَّرَ لي طريقي في كيفية إصدياده .. شخصٌ مثله في السابق كان لا شك يحمل قلبه المئات و له الكثير من المعجبات ، و لكن حين نخســـر من النِعَمِ ما يضـــلِّلُنا و يُعَجِزُنا نصبح لا شئ ، غير مرئيين .

تفاتحنا في أمر الزواج مُبكرًا عن الأن .. ظللنا عامًا أصـــدقاء و العام الثاني نفكر في بعضــنا كأحباء .. كانت لقائتنا تحدث بمســاعدة اختي "مني" التي تختلق اســباب لنزولي متأخرًا و تقوم بتوصــيلي بســيارتي - التي تم تصــليحها - و أكلمها قبل إنتهاء اللقاء بنصــف ســـاعة لتقلنني الي البيت ، و بأنها معي مما يطمئن أمي .. و هو – سـيف - كان يعرف كيف يُدبر أموره مع أخيه السـئيل و رجاله .. و مع الايّام توغلنا في بعضنا أكثر حتى عرفنا أننا لبعضنا ، و لا يمكن أن يفرق بين روحينـا إلا الموت .. فقط مـا كـان ينقص أمرنـا كيف يمكن أن نتزوج و كيف ســـوف يتقبل ذوينا الأمر .. و الأهم كيف سوف نعيش معًا ؟ .

- يجب ان نتكلم .

أخرجتني أمي من عُنُق ذكرياتي ، بدخلتها التي كنت أنتظرها منذ ذهبوا .. كـانـت بـالتـأكيد تجلس مع "مني" لمعرفـة افضـــل طريقـة توصـل لي بها رؤيتها للمصـيبة التي أكتبها علي نفســي بيداي - من وجهة نظرها - ، أعرف أمي ، إنها طيبة و جميلة و لكن بعد الحادثة أصـبحت تخاف عليَّ أضـعاف مُضـاعفة حتي أصـبحت أسـئم و أكره خوفها و طيبتها الزائدة .

- ماذا هنالك يا أمي ؟ .

= القدر قد لَمَحَ لكم يا "دنيا" عن شكل حياتكم معًا .. انا لا اريد ان أمنعك مما يفرحُك ؛ و لكن لا أريدك أن تندمي علي قرار خاطئ مُزيّن لكي ؛ و هو فخ .

كنت أفهم ما تقصده ، و لكني أصررت ان أتغابا .

- فخ !! .. ماذا تقصدين ؟! .

= لا اقصد ان "سيف" سيئ انه شخص جميل و يبدو عليه التربية و الحب .. و لكن .. لن ينفعك يا دنيا .. انا أسفة ؛ انتي تحتاجين من تتعكزي عليه ؛ لا من يتعكز عليكي .. و هو يحتاج من يتعكز عليها ؛ لا من تتعكز عليه .. لن تنفعوا بعضكم بل سوف تضيفون علي العبء عبئًا .

- أمي أرجوكِ ، انه قراري دعيني أقوم بما أريد ؛ لن تكوني انتِ و الدنيا عليَّ .. هذا كثير .

جهزت قنواتي الدمعيّة و أعطيتُها الأمر بالفيضان ، جزء مني يعرف أن جزء من كلامها مُحق ، و جزء أخر يُغَمِيني و يَتَشَبَثُ بالحلمِ ....

- في حياتي المرار زائد عن الطبيعي .. ف ليس هناك مانع من التجربة ؛ ف قد تكون فرصة عمري التي لن تتكرر .. و لن اسامحك طوال حياتي يا أمي إذا ضيعتِهَا مني .

كنت أعلم أن أمي سوف تتقهقر بعد هذا الكلام .. و هذا هو المطلوب المرغوب .. أغمَضَتْ عينيها و حاولتْ رسم إبتسامة مُجهَدة الصُنع و قالت ...

- إنها رغبتُكِ يا "دنيا" ؛ أتمني ان يصيب حدثك و يخيب ظني .

ضـــمتني بهدوء و نزلت دموعها علي كتفي العاري و خَرَجَتْ ؛ تاركة معي همي و فرحي .. و كرسـي متحرك يأكل روحي بصـمته و وجوده .

***

في تمام الرابعة عصرًا كنا جالسين في كافيتريا على النيل نتحدث.

- انا سـعيدة للغاية ؛ أشـعر و كأن بدل القدمين نبت لي جناحين .

= لا تطيري اني أشـعر بك علي الأرض بمعناة ؛ صـحيح هل سمعتي عن طيرٍ أعمي ؟ .

- هل يمكن أن نخفف من التلقيح علي أنفســنا بعض الشــيء .

= أعتقد أن هذا واجب أيضًا .

- لماذا لم تخبر أخاك بحقيقة من سوف تخطبها .

= أنه أخي الصـــغير يا "دنيا" لن يتحكم فيَّ و لن يمنعني ، انا فقط أردت أن لا يكون له معلومة مسبقة حتي يتصرف بطبيعية بلا تكلف .

- يا ليتك أخبرته و تكلف .

= هل الأمر كان بهذا السوء ؟ .

- و أكثر؛ و ما كان رأيه بعد ما فلت من مأزقه المفاجئ ؟ .

= أخي لا يتكلم يا دنيا ؛ أحيانًا أعتقد أنه أخرس .

- هو فقط يتكلم بلغة الإشـارة حتي لا تسـمعه .. و لكنه متحدث بارع بالملامح .

= و أنتِ أخبريني ؛ هل هناك أي من التعليقات السـيئة عليَّ ؛ أم انني عريس فوق مستوي الشبهات .

- لا جديد ، ف هم كانوا يعرفون عنك من قبل ؛ ف أنا ثرثارة بعض الشيء .

= و لكن صوتك يقول أن هناك ما يعكر صفوك .

كان يعرف خبايا نفسي من نبرة الصوت ؛ أو من طاقتي التي تصل له ؛ كان يستطيع معرفة حالتي مهما داريت بسمة أو دمعة ؛ لذلك لم اكذب ...

- تري امي - ولو انك أعجبتها بشـدة - أن حياتنا سـوف تكون عسيرة سويًا ؛ هي لا تعرف اننا درسنا الأمر جيدًا فقط .

= سـوف يتوقع هذا العالم كله ليس والدتك فقط ، و لنكون صـرحاء هذه الحقيقة المتوقعة يا دنيا ، نحن فقط نخالف التوقعات و نحاول هزيمة عجزنا الذي إعتقدوه نهايتنا .

- و ماذا إن فشلنا ؟ .

= النجاح و الفشل يعتمد علينا ؛ و لأي مدي سوف نستمر و نتحمل بعضنا ؛ الشخص الطبيعي يعاني مع عزيزه العاجز ؛ ف ما توقعاتك عن أثنين عاجزين مع بعضـهم .. أنها مهزلة مضحكة ؛ و لكن سوف نجعلها حقيقة واقعة .

كلامه جميل .. يحمل القوة و الدهاء ؛ ليس لدينا ما نخسره ؛ و هذا ما لا يفهمه الأخرون .

***

مرت شهور و الوضع أمِن و لم يتغير في شيء .. مازالت علاقتنا محملٌ للأنظار و الإنتقادات و لكننا سـعداء .. يدارون ضـحكات السـخرية و يكتمون اللاذع من الكلام ، أو لا يكتموه .. لم يعد يفرق معنا .. أمي كل يوم تعطيني وصلة مشفرة مُأرشَفة عن المخاطر المُحلقة حول عش زوجيتي المتهالك ؛ و انا مازلت أتبع معها

أســـاليبي اللا ســـلمية العتيدة .. أختي "مني" تدعمني و كأنها مؤمنة بعقيدتنا أن الحياة لا تســـتحق الخوف ولا يعني العجزُ العجز عن الحياة .. "ســـيف" مازال يراني في ظلمته النور و مازال لي يمثل نهوضـــي من رقدتي الجليســـة .. ولا يحكي لي عن أخيه الســـئيل و لكني اعرف انه عدو بدائي مازال يبحث في الحياة عن المعتاد ؛ و بالتأكيد هو لا يقبلني و قد يكون لا يقبل أخيه نفســـه .. كل شـــيء كالمعتاد ولا شـــيء تغير .. حتي زففنا لهم ميعاد الزفاف .. و زاد الرعب في الوجوه الخائفة النافرة و زادت السعادة في القلوب المحبة المؤمنة .

كنت يومها أقيس فســـتاني الذي كان يجب أن يكون صـــغيرًا من منطقة الوِسـط ؛ حتي يجلس معي بأريحية علي الكرســي ؛ و أقنعت "سيف" ان يخلع نظارته الشمسية حتي لو كان البياض هو كل عيناه .. كنت اتمني ان البســـه بدلة بيضـــاء حتي يهرب من الســـواد الذي يلاحقه دائمًا ، و لكنه أصـــر علي التقليدي في هذا الفكر فقط ؛ حتي لا يزيد من تقليب رماد السخرية .

جلسنا في الكافيتريا التي كثيرًا ما ضمَّت علاقتنا و كلامنا .. و أراد "سيف" ان يبوح لي ب سر فقدان عيناه نور البصر ؛ و الذي يبدو أنه لســـبب غير مريح و خبئه ســـنوات .. و لكني اوقفته لا اريد ان اعرف ؛ و لو كان لسبب لا يحبذ أن أعرفه ف انا لا أريد ما يزعزع فرحتي بقربنا الابدي بعد أيام .. احيانًا عدم المعرفة المُخَبَأ في بواطِن النفوس القديمة أفضـــل و أريح .. المهم أن يختلف فيما أنت عليه الآن و كفى .. شعرت انه ضعيف مكسور و هو الذي يمدني بالقوة ف كيف أكسره بنفسي ، فَ ليبقا كل مدفون في عتمة سرابه .

يوم زفافي الذي إنتظرته طويلًا ؛ اليوم كل شيء يصدح بالفرح .. كنت ابدو ك أميرة قعيدة ؛ أميرة فقدت حذائها قبل الحفل ؛ ف لم تخطو قدمُها الأرض .. تجهزت كما كنت أحلم ؛ فستاني مضبوط و تجميلي خفيف يبرز جمالي لا يغطيه ، و جميع أهلي و اصحابي لبّو الدعوة و حضـــروا ؛ و ينتظروني بالأســـفل .. و كان المفترض أن يكون ميعاد نزولنا منذ ســـاعة .. و لكن "ســـيف" تأخر .. و هاتفه مغلق ؛ و حاولنا مكالمة أخاه من مديرين القاعة ولا رد .. ماذا هنالك .. هل أصـــابه مكروه .. لا لا ، بالتأكيد لا .. ســـوف يأتي انا أعلم .. أمي جالســـة معي تنظر لي بقلق و أختي تُرَبِت علي كتفي تحاول تهدأتي و لكن روحي تختنق ؛ قلبي محروق ؛ انا خائفة ؛ أشعر بشيءٍ لا أجد طريقة تسـمح بوصـفه .. الدقائق تمر و الموقف ثقيل كالدهر ولا رَد .. لا رَد .. يا "ســـيف" لماذا تفعل بي هذا ؟!!! .. هل جرى لك شيئًا ؟ ؛ هل خفت من مسئوليتي ؟! ، إذا فلماذا طاوعتني كل هذا !! ؛ أم خِفت من نفسك و سرك الدفين ، الذي تمنيت الأن أن أعرفه .. لماذا بحق الجحيم ؟!! .. هذه اول مرة اشـعر ب عجزي مصـاحبًا له عجز من نوع جديد .

هل إنقطعت الكهرباء ؟! ؛ إختفت الموسيقي و إنتهى التجمع و ساد الظلام .. الأن فقط انا أري الدنيا مثلك يا سيف .

◇ صَيَّاد ◇

المركب يهتز و البحر يبدو عليه التوتر ، زال من بيننا جهم الغربة و الكسوف و أصبحنا ثلاث أصدقاء تعساء نبحث في بعضنا عن الخلاص ، ابحث انا عن السمك لبيعه و سد قوت يومي ، و يبحث المركب عن السمك لبيعه و تحسين أحواله و تصليح كسوره ، و يحاول البحر ان يلقف في حجرنا السمك لنتوقف عن كحته و تركه وحيدًا بعدما أصبح يكره البشر من المعاملة الحقيرة التي يعاملوه بها .. السماء ملبدة بالسحاب ، فالباكر من الصيد مفيد و به وفرة رزق قبل إزدحام سطح الماء من كلِ رَامِّيٍ يرمي توكله علي الله .. مركبي ليس بكبير و القوة ليست بكثير لأستعمل الشِباك ، هي صنارة صغيرة تقوم بالغرض و هي أكثر اصدقائي عِشرة ف هي ورثٌ دفينٌ عن أبي ، أحيانًا اشعر انها تقرف من الطُعم ذاته ، ف هل تتقايئه بعيدًا عن مرأَيَّ حين تغيب في زُرقَة الماء ، أم السمك من أصبح أكثر دهاءًا و يأكل الطُعم قبل أن أشعر بحركته ... في الآونة الأخيرة أصبح الرزق شحيحًا و السمك إندثر في جحور مائية غير مرئية ، او أُخِذَ كله ممن سبقوني صيدًا ، كتب الله لهم البخت و النصيب ... أحسن قراراتي أني لم اتزوج ، مركبي لا يتحملني لكي يتحمل عائل جديد ، غير أن الحب رفاهية ، في لحظة يُقلَب إلي عذاب مؤلم حين يتعطل مَدَّه ، أو يصعب جذرُّه .. أحببت القمر ، نصاعه و ضيُّه ، و حتي هو لم يتحملني كل يوم ، و كل حين يُريني وجهًا جديدًا مختلفًا له ، ينير العتمة و لكنه غير دائم ولا يثبت علي وجهٍ ترضاه ، ف عَلَمَا المعاناة ؟! .. الوحدة راحة و إستراحة ، ف الناس جوعة و لا تشبع من حقد و كراهية و غدر و خيانة ، ولا نفس لوامة ، كلها لمامة للبغيض المُضني من الصفات ، المستحسن البعد عنها .. صديقي ف البيت هو الكتاب ، ف انا من حفظته و حارسيه ، ف ما اجمل ان تقرأ كتاب يتحدث فيه الله لك ، و ما أجمل أن تُصلي ف تتحدث انت مع الله دون رقيب او وسيط .. و تذكرت حين كنت

عاملًا مرمطونًا يافعًا ، كنت أأخذ أوامر و تُملي عليَّ بصيغة كريهة لم أستجب لها ، لست متمردًا ف من أنا حتي اتشبه بشيطان تمرد علي الحق ، و لكني لم أعثر علي نفسي كشخصية ثانية مساندة ، رغم ان حياتي خاوية إلا مني ، إلا أني لا أقبل في اي شئ ان أكون ثالث ثلاثة او حتي ثاني إثنين ، ف كيف أكون خمسون الخمسين ، متي قد يُسمَع لي صوت و أثبت كياني و أُوَضِح كبريائي .. في المشمش .. تأمر عليَّ البشر و تعققت عن الرضوخ ، و قررت إعادة سيرة والدي المقبور في قبره ، المجبور من ربه ، بإذن الله ، بالصيد.

خَلَت الحياة من ذي القُربي و لكني لم أُخليها من الصُحبة ، في واقع البحر في منطقة "بحري" السكندرية ، أن تعرف أشخاص في حلقة السمك لتكسب أرضية بيع ؛ أمرٌ صعب و معقد ، و لكن جودة السمك سوف تجعل الزبون الفهمان يأتي لك ولو في أخر بلاد المسلمين ، و عدوك إبن كارك و هذه جربتها في كل الأعمال التي عملت فيها ، ف إنعزلت عن هذه الصُحبة الزفرة .. أصبحت أتقرب بالصداقة لكبار السن و أصحاب العلم ، في مقهى كبير قريب من عُشَتي الصغيرة ، يسمونه مقهي "الأنس" يجمع فيه أشخاص تحب الإستماع إلي حكاويهم و ذائقتهم الأدبية و خبرتهم العلمية لا تمل الكلام فيها ، أصبحت موطني و مجلسي الشعبي مع حجر من المعسل يُعَسِل الكلام و كوب من شاي بالنعناع المُحَلَّى بأرطالِ السكرِ ؛ و هناك تعرفت علي نفسي ؛ و بسببهم غلي ثمنها و إنعدم بيعها ، مثل إبن سينا .

عِشَّتي الصغيرة هي عش عصفور مهاجر ، لا أزيد فيها شئ خارج عن الضروري ف أنا عازب كما سبق و حكيت و لا أعتقد أن عقليتي تسمح لي يومًا بالحب و الزواج ، و كأنه ممكن ، ف قد تعديت الأربعين و شاب مُقدمة شعر رأسي الخفيف من ملوحة

البحر، و تَقَشَف الجلد .. أصبحت غير مُغري للإعجاب ولا التعجب ، و إرتحت بعد توديع القطار الذي إنطلق أخيرًا ب دوني .. ل نكون صُرحَاء إن مشاعري جافة ك صَحَراء ؛ لن يتقبلني أحد أو يعيش معي و يتحمل عناء عِشرَتي .. كل ما أعيش معه ف البيت هي الصنارة التي تقريبًا أخذها معي في كل مكان ، ف قد يهفني الشوق للصيد ليلًا و لو أنه غير مُستحب كما تقول بعض الأساطير الخُرافية التي أحاول إبطالها بالعقل و أهزم خوفي من البحر و الظلام .. ف من هو مثلي لا يجب عليه ان يهاب بشرًا ولا مخلوق من مخلوقات ربه ، طالما يستعين به و يرمي عليه التوَكُل ... أجلس على الكرسي الوحيد المُتهالك الذي عفي عليه الزمن ، أُعِد على "السبرتاية" - أو المقود الذي أعيش علي ناره - قهوة بسكر زيادة ، عشقت السكر منذ صغري ، كنت أسِفَّهُ حافًا سفًا ، حتي تنخورت أسناني و أصبحتُ علي بُعد خطوة من المرض الوراثي الذي سوف يتسبب في موتي بلا شك ، ف قد أتغلب على اي عادة و أتركها ، ماعدا حُبي للسكر .. لا أقدس النوم ، رغم ان وحدتي ليست بالجليس الذي تعوقني نفسي علي تركه و أنام ، و لكن ظلام النوم يسحب الروح و يسرق الزمن ، من يصدق ان هناك من ينام ثُلثَي عمره .. أضحكتُني ، أتكلم عن الايام و كأنني أعيشها ، تعمقت أكثر من اللازم .

عندي مجموعة كبيرة من الكُتُب أضعها فوق بعضها فلا أملك لها مكتبة ، تتكلم عن شتى ما تكلم فيه البشر ؛ علم النفس و الفلسفة و التاريخ و الجغرافيا و الفيزياء و الكمياء و الأحياء ، و ركن صغير من الأدب ، كالروايات و القصص القصيرة ف هي لا تستهويني إلا ما يثير الجدل و النزاع في الوسط الأدبي ، كلها نُسخ مُستعملة و لكني ادقق في إختيارها او أذهب لمنطقة "النبي دنيال" و اختار المستعمل الأصلي النظيف القيم .. رائحة الكتب تسوى الأفيون في سوق إذهاب العقل ، و هي صديق حميم لا يترك صاحبه إلا إذا

تركه صـــاحبه ، ولا يتوقف عن الحديث حين تصـــحبه بأخوته المتنوعين في المواضـيع .. فكرت كثيرًا في كتابة مذكرات صـياد ، و لكن إذا وجدت ما اكتبه اول يوم من أين سوف أعثر علي جديد في الثاني و الثالث ، الحقيقة حياتي مملة ، و انا أحبها هكذا ، لا أنتظر حدثًا جلل ، ف من الأفضـــل عدم حدوث أحداث ، ف حين كانت حياتي مُمتلئة و حدثت الأعاجيب فيها ، كنت اتمنا الرجوع للأيام العادية التي لا يتخطي فيها حزني عن خسـارة نادي الزمالك أو عدم كفاية مصروفي لشراء اللب و العسلية سويًا .. خسرت امي مبكرًا و إخوتي تنقلوا كلٌ في مكان بعد خسـارة ورث ابي الذي أسـتولي عليه عمي بالخبيث من الأسـاليب معدومة الضـمير ، و فجأة ألقانا جميعًا في الشارع .. لم يكن ورائنا كنز اي نعم ، لكن كان هناك بيتٌ يسترنا ، و عَرتنـا الحيـاة و حمدًا لله لم يُخَوينـا ابي ببنـات ، كنـا صـــغارًا مأخوذين باليُتم الذي حل ؟ و بدال ما يحل عمي محل الأب ؛ قضـــي وطره فينا ، و ســـافر هربًا من إنتقام معتمر في القلوب حين يكبر الوِلود .. تولى ربـايتي عم "فرج" ، الـذي أفرج عني همي و أفرح قلبي علمًا ، لَمَا بخلت عليه الأقدار ب طفل يســـنده في كِبَرهِ .. ف كنت انا الســند و كان لي خيرُ اب ، تركني إخوتي ف لم يكن احدهم قادر علي حمل أخر على عاتقه ، و من يومها عرفت ان الحياة ب طولي أفضل بكثير .

بعد وفاة عم "فرج" ذهبت شـــقته للورثة ، و عرفت ان ليس لي مكان بعد الأن ، و لكنه ترك لي جزء من أمواله بإسمي في البوسطة و كان مبلغًا يسـر لي أخذ هذه العشـة و ترتيبها بالبسـيط ؛ لتبسـيط أمور العيش .. و بدأت رحلتي في العمل عند من هب و دب ، حتي كرهت حياتي ، و عرفت مرة أخرى ان بطولي أفضـــل بكثير ، ف إعتمدت ذاتيًا على نفســـي ، ما يدره البحر علي هو رزقي المكتوب لي ، حتي تستحدث الأحداث ، و لم يتغير شـئ من عشـرين سـنة ..

كنت مجرد صـــياد يرمي صـــنارته ، حتي إتدخرت مبلغًا جعلني أشتري هذا المركب الصغير لأشق به البحر و أَخْذ فرص أفضل في صيدٍ أكبر ، أصعب اوقات عملي تكون في فصل الشتاء ، يُغطيني الماء من كل النواحي ، أثقِل في ملابسي و ابتعد عن مناطق السحب الغائر حتي لا يبتلعني البحر و أصبح غريق يتعلق ب قشة ، أفلتت منه .

أكملت اليوم قراءة كتاب عملاق في علم النفس كنت قد بدأته اول أمس ، المذكور فيه مفيد ، و لكن ليس لي ، فتعاملي مع البشـــر قليل و ســـطحي ، و لكن من الجيد ان تفهم من حولك حتي في اقصـــر الدقائق التي تتعامل معهم فيها .. تشـــعر حينها انك ادرى المخلوقات و اذكاها ، و لكن مع إقتصـــار التطبيق على ما يقع تحت يديك .. أجريت بعض التجارب في حلقة الســـمك لأنهم المحيطين بي ، و كيفية التعامل معهم ، انا شبه مولود في الشارع و إبن بلد و مدقدق ، و لكن البشر أسرار ، كيف تخترقهم و تحصل علي كلمة العبور .. في الحقيقة لم أعُد أهتم .

الساعة الأن الثالثة فجرًا ، لا يُغنى الشخص عن ثلاث ساعات من النوم على الأقل حتي يُريح عقله و يهدأ باله .. غدا أكمل بإذن الله ، جلست على مرتبتي التي هي أكبر مساحة من اي شئ في العالم - لأنها تحتوي أحلامي - ، و التي تأكل نصف العشة ، أسندت رأسي - التي ينهشها الصداع - علي يدي و أغمضت عيني و سرحت .

إستيقظت في الخامسة و النصف صباحًا ، قبل ان تملئ عربات الفول الشوارع ، أخذت صنارتي و الطُعم المتبقي من أمس - عليَّ ان أتذكر شراء البعض اليوم - و مشيت ف الشارع الفاصل بيني و بين البحر، و عثرت علي مركبي المُزركش بألوانه الأصـــفر و

الأحمر .. دفعته حتي وصـــلنا الى أخر الرمال و اول الماء ، خلعت حِذائي و شَـمرتُ بنطالي و إقتحمنا الماء سـويًا حتي بدأ الماء يغمر منتصـــفي الاســـفل ، و صـــعدت علي المركب و بدأت التجديف ، الشـمس مازالت مميزة لا تجرح ، فقط تُضـئ .. في مسـافة بسـيطة بعيدة عن الشـاطئ بدأت تجهيز صـنارتي بالطعم و ها قد رميتها .. الصبر حليف الصائد ف قد أجلس هنا طوال اليوم بلا سمكة سردين واحدة ؛ و قد أرمي توكالي ســـاعة و أرجع بعدها بجميع أســـماك الموســـم بكمية مُخيفة كأنه إنتحار جماعي من الســـمك ؛ ل يباركوا ســعة رزقي .. اليوم عوضـــت ما فاتني في هذا الأسـبوع الصـــعب الشـــاق الضـــحل .. رجعت بمركبي علي حدود الســـاعة الثامنة و النصـــف مُحمَّلًا بما لذ و طاب ، حينما بدأ الصـــيادون التجمع و بدأ مشوارهم في النزول بمراكبهم لعرض البحر ، ما أجمل أن تسبق و تنتهي مع بداية الأخرين .. بدأت مســـاري إلي حلقة الســـمك التي لا أحبها و لكنه وقت رائق لتجربة حظي .

كنت أول من أعد شـــادره و بدأ البيع ، هناك زبائن في أيام الجمعة و الســـبت - الإجازة لمعظم الموظفين و أربـاب البيوت - ينزلون للعثور علي الحاذق الذي يبيع الطازج من الســـمك ، و هم زبائني تعودوا علي مواعيـدي البـاكرة و حفظتهم في الـذاكرة ، حتي أنهم كثيرًا ما قالوا لي انهم لا يشترون إلا من سمكي لأنه جيد ولا أغشهم في سـعر او جودة غير باقي زملائي الرعاع .. و بالفعل لم يخذلوني و أتوا و فرحوا بما لديّ .. الســـمك يباع بالكيلو جرام ؛ و ثمنه ليس بالغالي و يفيد صـــيده و بيعه دون وســـيط ، ف أنت تجلبه من قاع البحر بلا سـعر سـوا العمر، و تعطيه للزبون بالسـعر الذي يلزمك به السـوق و الضـمير .. و انتهى السـمك و انتهى معه عملي لليوم ؛ مع مجيء باقي زملائي مُحَمَلين بما ألقاه البحر في حجورهم ليبدأو بيعه ... ما أجمعه من أموال من البيع تكفي لعيشة بسيطة هنيَّة هي أقصى

أحلامي ، لا أحلم بالأرتقاء ولا الوصول لما لم يصل له بشرًا قبلي ، أحلم فقط بالستر و المعرفة و القبول و الرضا ، هل هي أحلام صعبة ؟ ؛ ماذا أفعل أنها مخيلتي و انا المسئول عن طيش أمالي .

كنت في زمن كان ، أكره رائحة السمك الزفرة و لكن الإعتياد يقتل الغربة ، و أصـــبحت أجدها مثل رائحة الهواء ، ف من عاش في البحر طوال عمره يستغرب البر و هواءه .. أفطرت علي عربة فول قريبة من المقهي ، أخذت طبق مخلوط الفول بالبيض و معه بعض البطاطس المقلية فلا اقدرعلى هضـــم الفلافل ، و دفعت لصـــاحب العربة ما فيه النصيب ، و ركنت الي ركني العزيز في القهوة أستمع و أســتمتع بما غَفْلت عنه كل عمري المديد هذا .. و أســعد لحظاتي حين يتكلمون فيما أعرفه مســبقًا ف أُلقي رأيي النابع عن علم ، فلا أتحدث بما لا أعرف ، و أبتسم في رضا حين يوفقني الله و يوافقني أحد الرأي و تَرجَح كفة معلوماتي .. ما زال طريق العلم و التعلم طويل و انا لا أتعب ولا أشــبع .. الدخان مُهلك و يســبب الوفاة ، لا يُعنيني ف طالما يحقق لي السلطنة و المزاج فلا يفرق معي خطورته ، ليس لديّ مانع من تجربة المخدرات ولا تخالف مبادئي ، و لكن سعرها لا يسهل تسهيله خصوصًا لو أدمنتها ، ف انا شَرِهٌ فيما أحب .. الجنس في حياتي لم يكن مُحرك غريزي يُعتد به ؛ فالنقول ان حيواناتي المنوية ضعيفة بعض الشيء و لم تأتي بعد من تفتح شهية شــهوتي ، ف إرتاح بالي من المصــاريف المدفوعة في الزنا او في الحلال .. أشـــهد اني مرتاح البال ولا أحتاج لأطفال يشـــحططوني معهم او أشـــحططهم معي ، و ملامحي و إســمي ليســوا بالنادرين ليحملهم من بعدي شخص ، دعوني اتأملهم وحيدًا مع من عشاروني و سوف يتذكروني و سريعا سوف يلحقوني او لعلهم يسبقوني .. ملعونة الفانية .. الساعة الثالثة عصرًا ، ميعاد الوجبة الثانية .. ليس من الصعب تخمين غدائي ؛ أخف سمكتين في الميزان من صيدي

أضـــعهم في كيس وحدهم ، و أقوم ب شـــويهم عند عزيزي عم "فرحان" و لا يأخذ مني مليمًا ، ف هو يضــعهم وسـط أسـماكه في الشوي و حين ينضجوا يحضرهم لي مع بعض الطحينة و السلطات و الخبز ، ف قد كنت وقفت بجانبه في زمن ليس ب بعيد حين إنتكاسة مالية كادت تُنهي رأس ماله ، لم يستطع فيها شراء أسماك لبيعها ف كنت أورِد له السمك دون مقابل لثلاث أسابيع ، حتي رزقه الله و فتحها عليه من جديد ، و لم ينسَ موقفي هذا حتي الأن ، فيه الخير .

ها قد رجعت الي عُشَّتي الصغيرة ؛ إشتقت لها .. أعدت القهوة هذه المرة مغلية بدون وجه ف قد سمعت ان هذه الرواسب مضرة .. لا اقتنع بكل ما أسمعه و لكن إذا خرج من استاذ "عصمت" بالذات ف لن أبحث وراءه .. إنتقيت كتاب عن الفلسفة اليونانية ؛ أم العلوم التي إنعدمت و بهتت في هذا الزمان ذو اللا عقل واللا فكر .. يعجبني في الثقافات القديمة الخيال ؛ ف هم لم يجلســو منتظرين المعلومة علي الجاهز المُجهز لأخذها بالملعقة بل بحثوا و تمحصـوا حتي إذا كانت أراءهم فارغة ناقصـــة و لكن تكفي محاولتهم .. تدبرت في كتاب الله خوفًا من هجره الذي أصـــبح منتشـــرًا بين الناس الأن و أكدت علي حفظي و ما سقط من بالي من أيات أعدتُ تدبرها .. يبدو اني نسيت شـراء طُعم .... المحل ليس علي بعد و انا لسـت معروفًا بالكسـل ، لبسـتُ ما كان أمامي و نزلت ، تمشـيت ناظرًا لحبيبي السـابق الذي تركتـه عن عمد حتي لا يتعلق بي أكثر و يزيد ألمه حين فراقي ؛ عذرًا يا قمر الحياة أولويات ، مر من أمامي بائع "فريســـكا" يبدو عليه الهم و الغم ، مع أنه يبيع المُسَلِّي المُحَلِّي للوقت ، إشتريت منه قطعتين عندما هفَتُني نفسي عليها ؛ ف قد تعلمت ان لا احرم نفسي ، ف اليوم لي و غدًا عليَّ ؛ و لن أنتظره ، إلا لو عَثَر هو عليَّ .

حياتي مُمِلة ؛ أليس كذلك ؟ .. أعرف هذا و أحبه ، فكرت كثيرًا كما قلت أن اكتب مذكراتي و شعرت أنها فكرة فاشلة و تأكدت الأن من هذا و لله الحمد .. يمكن أن يأتي يوم يحتاج ان أكتبه و قد لا يأتي كما أتمنا .. و لكن شـــغف التجربة لم يكن لينتهي إلا إذا أجريت التجربة .

وصلت للمحل الذي أتعامل معه و اشتريت بما تيسر لي دفعه ، و أضفت خيط جديد للصنارة الصبورة حتي لا تبلى ؛ و تتحمل معي ايام أُخرى .. خرجت من المحل و شـــعرت بإهتزازٍ في جيبي و انا أعبر الطريق ، أخرجت هاتفي الجوال الصـــغير غير المتطور ، و وجدتها رســـالة من رقم غير معروف ، فتحتها و كان المكتوب : " فالتعيش اليوم يا عزيزي ، ف لا علم لنا بالغد " .. علي رأيك ايها الرقم الغريب .. و شـــعرت أننا على حق و يقين ، حين رأيت نور الكشاف الفاقِع القوي فجأة عن يميني ، يقترب مني ب سرعة البرق ؛ كم اكره الشتاء و أخاف الظلام .

◇ كَاتِب ◇

إستيقظ يا أحمق يا مُستَهتِر يا أرعَن ، إلخخخخ ..... هكذا أسمع رنَّة المنبه اللعين - يكرر بنغمته الساخرة - ، و هو يقهر حصون جفوني المُرهَقَة المُتعَبة ذات الهالات السوداء .. أعز ما على المرء أن يستيقظ من نومه مُبكرًا ، مغصوبًا ، خصوصًا إذا كان السهر قد أكل معظم ساعات نومه الهنيّ المُبكر و ترك له ساعتين يُنأنئ فيهم ، و كأنهم سوف يكفوه .. أندم و أُبروِز سأمي بالعسير من الصداع المُتصدِع المتصاعد ، و لكني لا أستطيع ترك ما أفعله ليلًا ف هو ما يصبرني على أيامي الجافة العِجاف .. أُضِئ النور سريعًا و أنتقي ملابسي في غمضة عين ؛ تكون موضوعة كلٌ بما يلائم الأخر كما تحضرهم زوجتي "راندا" ، ليس لإهتمامٍ بأناقتي - لا سمح الله - ف انا أخر ما يشغلُ بالها المُبتَلَّى ، و لكن حتى لا أضجع منامها الطويل المُتَمَطِع بضوء الغرفة ، الذي يخترق الأحلام الهنيَّة ، و انا متأكد من اني لا أُشاركها أيًّا منها ، ف سوف تنقلب أحلامها كوابيس تجعلها تنتفض من سُباتِها الثابت و تجري بخاطرها لتساعدني .

إرتديتُ ملابسي في الصالة و أغلقتُ التلفاز الذي كان يستهلك الكهرباء طوال الليل على قنوات الرقص .. أكثر ما يُحزنني من فلذة كبدي "لؤي" ليس انه بَجِح ، بل كونه غبيٌّ و نسايّ ، ليس عندي

موانع في تَفَتُّح ثقافته (الجنسية) و أنها أكثر ثقافة يسيل لها لُعاب فِكرُه النجس ؛ و لكن لا تجعلني أكتشف هذا كل مرة .. رغم أنني جلست معه بعد ما أسَر لأمه بالتغيرات الفسيولوجية التي لحقت به ، و شرحتُ له خبايا الفحولة و مفهوم الرجولة و أضرار السري من العادات المُمتِعة و لعنة الأفلام المُسرطِنَّة لشبابنا ؛ المُنتشرة على صفحات الإنترنت ، و ما يُبيحه أصحابُ السوء و لا يجلب إلا السوء ... و لكن ، لا حياة ؛ ف لمن أُنادي ؟ .. ف بعدما إلتَحَمَ الزَغَبُ الخفيف على وجههِ ظن نفسه رجُلًا مُكتَمِلًا ، ذلك الفَسْل المُشعِر ، بالتأكيد يستحلِبُ التعيس نفسه على أقل تقدير خمس مرات يوميًا .. و لكن يبدو أنه صاحب ذوق بلدي شعبي ، لن أتفاجئ إذا عثرت عليه في إحدى الملاهي الليلية التي أرتادُها ليالي الخميس .. من شابه أباه فما ظلم يا "لؤي" ، و لكنك غبيّ ؛ و هذا يُحزنني .

ما هذه الأناقة المُبعثرة ! .. اقوم بحركتي السحرية و أُفَرِش بالفرشاة الهائش من شعر رأسي القليل ؛ حتى أتوَسَّم في وَسَامَتِي - المُنتَهيَّة - بعض الخير .. حسنًا ، الأن لا بأس بي على الإطلاق .. الإفطار ليس ما يشغل بالي صباحًا ، أي شيء يوضع في خبزٍ يُغير بعضًا من خصائصه الناشفة و يُعطيه مذاق مُتغيِّر حادق ؛ هو ذوقي ، لا أهتم بملء بطني و هذا يبدو عليَّ باديًا ، ف معدتي جوفاء ينزل فيها الطعام و تلفظه في حينها علي هيئة فضلات ؛ ف بدلتُ الطعام بحبوب الفيتامين المُعوِّض و السجائر و المشروبات الكافيينيَّة ؛ أشرب منها و أُعبِئ حتي تنتظم أفكار عقلي في العملين ؛ و تقلل آثار النوم التي تغزو ملامحي ، و لتُنعِش خلاياي و تفتح لي أفاق الخيال ، المُختال بنفسهِ بالإختيال .

اتأمَل سيَّارتي القديمة العظيمة المُكافحة ، هي أكثر ما يفهمني ؛ و أكثر ما أركب .. ف قد إنتهى ترخيصي ب ركوب زوجتي بعد إنتهاء المشاعر الكاذبة التي تبادلناها و ظننا أنها قد تُهيئ لنا حياةً مُستقرة ، و لكن لكل كذبة عمر قصير تنتهي بعده ، كلانا تغيَّر و تحيَّر في أمرِ الأخر .. ف فشلنا في الإستمرار و أصبح بيننا ما صنع الحداد ، و لكن ألزمنا الأطفال في تمثيل تلك الأدوار الواسعة علينا ؛

مُهلهَلة التفاصـيل ، حتى إلتزم كلٌ منا بالمكتوب له في السـيناريو و أصبح روتينًا ، كعملي الحكومي البائِس المُبتَئِس .

أُدَوِر سـيارتي و تدور بي الدنيا في الطُرُقات ، لأصـطدم بهذا الزحام اللعين .. هذا البلد بالتأكيد قد ولد في زخمِ أفكار كاتب ؛ كُتب عليها الشقاء و عناء أهلها في زحمة مرور و إزدحام بشر و مستقبل ميؤوس منه .. يكفي ان تكون موظفًا حكوميًا لتعرف المسـاوئ و الخبايا العفنة لهذا البلد .. حضـرت في موعدي ف التأخر ينخر راتبي المنثور كالتراب - المسـتور ب سـتر الله - وسـط هذا الغلاء الزائد في الزيادة .. وضـعت حقيبتي على مكتبي الصـغير و جلسـت علي الكرسي الضيق الذي لولا خفيَّة وزني و جثماني البالي لجلست فردةٌ محظوظة تعاير الأخرى الطائرَّة في الهواء مُتألمَّة .. عملي هو أن أعملُ نفسـي أعمل .. يأتي لي المواطن المُعَمَّص العابس يحملُ أوراقًا قانونية ناقصـة دائمًا - فالكمال لله وحده - يكاد يبكي لي و يتحايل و يحتال عليَّ بالكلام ليعبر عن معاناته فيما سبق من ايام في هذه المتاهة الحكومية و ان التأخير ليس في صـالحه بتاتًا ؛ و ان كل أوراقه سليمة مختومة لا ينقصها شيء سوا تأشيرة المرور و الختام ؛ التي انا صـاحبُها .. بنظرة واحدة أعرف هل هذا الرجل بالفعل قد ضاق به الحال و قام بما عليه ، ف ارد له انا ما عليَّ ، أم انه يتحنيَّك و يريد العبور الساهل المُسَهَل بلا جهدٍ مبذول يساوي الخلاص ، و أدَوَّره لإحدى زميلاتي لتدور بـه هي في دورةٍ أخري .. كل هذا متوقف علي رغبتي ، بعد سـنين صـعودي في السـلم الوظيفي الي رتبه نائب المدير الذي يؤشـر بال "نعم" أو ال "لا" .. كم أتعب في الإنتقاء ؛ ف هو مسـئولية أتمنا ان أكون عادلًا فيها ؛ بما يُرضـي ربي.

تتصـلُ بي كل يوم في نفس التوقيت بنتي الحبيبة "حبيبة" الذي كُتِبَ عليها ان تكون من صـاحبات التاء المربوطة و التصـنيف الأنثَوي في هذا المجتمع المائع المُرتَخي فيما يخُص بناته ، تطمئن على حالي و تطلب و تتطلب ؛ ف هي الوردة الوردية المُثمِرة الوحيدة في زواج صـحراء جرداء مُتمثِلة في زوجتي "راندا" ؛ و

فلاح عنيد بائد ، يُمَثِّلُني .. "حبيبة" رقيقة ك نسمة همست لي ب فرحي بعد طول مُناجاتي التي ظننتها غير مسموعة ؛ ممنوعة من الوصول ، جاءت و عوضتني ب بسمة أمل و قلب من ذهب لا تُضاهيه كل كنوز الأرض ، الوحيدة التي يشغلها حالي ولا تعتبرني مصدر تحصيل حاصل للأموال .. رؤيتها فقط تُنَحِّي عن روحي الهم و سماع صوتها كل صباح اقوي من ألف مُسَكِن لصداع دنيتي النصفي ، كبِرَت الأن و اصبحت في كلية الآداب قسم النصوص الشِعريَّة ؛ وَرَثَت عني حب الأدب و حلو الكلام و عذوبة اللغو و الحكي و المفردات التي يجب علي خبراء اللغة تذوقها بنبرة صوتها و إحساسها المُعجِز ، جميل أن تلتقي مُشابهًا لك يؤنس وحدتك وسط عالم مُمتلئ بالبشر، الخاويين من الروح .. و تفوق غلاوته إذا كان منك .

حين تفرغُ الهيئة تهدأُ الأنفاس و الأنفُس ، و أبدأ في إستجماع أفكاري و بلوَرَتُّها حتي لا أتعب في سهري و أُنجِز سريعًا المُنتظَر إنهائه ؛ حتي أُجَمِع وقت نومي و أفرد ظهري بعيدًا عن جلسات المكاتب ؛ و شتاه الفارق بين هذا المكتب و ما أملكه في البيت ؛ ف هو يليق ب عرشِ مَلِكٍ مُستنير يُبدِعُ في خَلقِهِ و يُضفي التفاصيل الجديدة المُحكمَة في رسم مصائر أشخاص تنتظر يده الرشيقة لفك طلاسِمها و تحريكَها ، كما هو محتوم في ذهني السرمدي الباهر .. نعم انا كاتب .. و هذه هي حياتي .. في الصباح موظف و في المساء كاتب ؛ أُشبِه "نجيب محفوظ" في حياته و أخذت من روتينه ما يجوز لمن يتطلع في نَيْل شبهًا طفيفًا منه .. كتبت و إشتهرت كثيرًا بروايتي الأولي "مخلوق من طين" نظرًا لكسرها تابوهات تقدير و تقديس البشر لأنفسهم و لعالمهم كله .. وضعتُ كلً منهم في مكانه المحدود و أظهرت الحقيقة المكتومة في النفوس ، كان نجاحي الساحق هذا بعد عناءٍ و إعتناءٍ كبير ب هذه الروايَة ، كل خبرتي و قراءتي و رؤيتي في خمسة و أربعين عامًا وُضِعَت في كتاب من ثلاثمائة صفحة يتجرعهم القارئ على الجاهز في أيامٍ معدودات .. يا له من عرضٍ لا يُفوَّت .

لا يعلم القارئ ذو البال الرائق كم الجهد المبذول و إرهاق التفكير ليخرج له هذا العمل المكتوب .. و بكل سهولة يعطي رأيه كأنه فيلسوف عصره و أوانه : الأسلوب ردئ ، الفكرة بشعة ، اللغة ركيكة مُنحطة و الحبكة مُنعدِمة ؛ و نصيحة لا تكتب مجددًا .. يمسح بكرامة الكاتب و المكتوب الأرض و يجعل الكلمات المكتوبة له من القلب مركونة ، مردومة بغُبار الهجر .. حدث هذا مع أعمالي الاولي السابقة ، كنت لا أزال أتعلم مداخل هذا العالم الغريب ، أري ان لديَّ ما هو جديد و يجب على الجميع رؤيته و إحترامه ؛ ف بدأت الكتابة في المنتديات الأدبية الكثيرة حينها و على صفحتي الشخصية على الفيس بوك و كنت أُقابَل بمنتصف العصا ، محبون ب شدَّة و عدائيون ب حدَّة - لما أكتبه - .. و ظهر هذا جليًّا أخيرًا في روايتي الأخيرة ، بعد دفع مبلغ و قدره لدار النشر لبِدأ الطباعة و إنهال عليَّ النجاح الصادق و تتالت الطبعات و المُتابعات ، و عرفت انني كنت على حق ، انا كاتب ، لا أتوهم او أختلق ذلك .

أصِلُ إلي بيتي في حدود الرابعة عصرًا مُعتصرًا عرقي من ملابسي ؛ بعد خروجي من عملي ب ساعتين كاملين ، أتتخيل ماذا كان يمكنني فعله بهما إذا توفروا لي ببالٍ هانئ ؟ .. ادخل لأجد "راندا" مُتَشَعِبة و مُتَشَبِعَة ب جَلسَتِها المُريحة لها و المُتعِبة لأعصابي ؛ تنظر لي من أعلى لأسفل و تكاد تفتح فمها الكريه بالموَشَّح المُعتاد و لكني سَبَقتَها بالنظرة التي تُخيفُها و تُعلِمُها بخطر الإقتراب مني الأن و إلا سأُمطِر عليها وابِلَ الشَّتائِم المُتعارَف الدائِم فيما بيننا .. كنا في زمنٍ كان أقرب كثيرًا من حالنا الأن ، غيرتنا الدنيا للأسوء كأي شيء يتبع قوانينها و الأنفُس تبدلت ، تراخت في الأعذار و تَتَبَعَت أسباب الكُره بمناظير تُكَبِر الأمور و تضخمها أكثر ؛ حتي تكتلت ارواحنا بالبُغض و فقدنا سبيل العودة حتى لمُفتَرَق طُرُق واحِد لنتقابل فيه ، و إستسلمنا لهذا و كأننا كنا نأمله ، حتى اننا لم نعد نذكر من منا المُخطئ أخر مرة ل يُبادر يومًا ما بالإعتذار - لو حدث هذا أصلًا - .

ألقيتُ نظرة على غرفة "لؤي" وجدتها مقفولة الباب ، إستَمني يا عزيزي و أغرقنا من بركاتك ؛ ثقلتك أمك .. دخلت المطبخ لأُعِد طعامي ، غدائي هو اي شـــيء يُضَـــع على الأرز يغير من طبيعته البيضاء السادة و يعطيه بعض المذاق الحادق ، مع نوع من البروتين ب كم بسيط و كفى ، أتبعه بكوبٍ من الشاي للهضم و سيجارتين للفهم و اســـتيعاب ما حولي مجددًا ، بعدها أجلس ســـاعة مع زهرة عمري الحبيبة "حبيبة" نتحدث في كل المواضـيع التي تتيح سماع حلاوة صوتها و النظر لبراءة ضحكتها .. و من ثم تتركني و تدخل غرفتها و أعود انا لأُعِد القهوة على الريحَة ، و أخذها لغرفة مكتبي و أغلقها عليَّ ، أشـغل المكيّف البارد و أجلس علي كرســيَّ المريح أراقب الورقة البيضاء الناصعة .. تتحداني ذِبلَةُ الشجر منذ شهرين ولا أستطيع دبرها ، بعد ما أخذت فترة نقاهة لثلاث شهور لأُصفِّي ذهني و أخرج من عملي الأول بكل تفاصيله .. و بدأت من شهرين التفكير في الفكرة الجديدة التي سوف تُأكد نجاحي السابق و تُرسِخ وجودي في المجال ككاتب عظيم يستحق التقدير .. و لكن أين الفكرة ؟! ، أضمحل خيالي و أصبح بورًا مدحورًا ، لديَّ مواضيع شتى أريد الكتابة فيها و عنها و لكن أين مدخلي لها ؟ .. لا أعرف ، ليس صـــعبًا عليَّ تركيب قصـــة و التحكم برموزها مما يثير الجدل الذي يجعل الناس تقرأ ، و لكني لم أســتقر على ســياســتي فيه و الإطار الخارجي له بعد .. أفكر أن نلعب بالتاريخ ، ف ما أشبه اليوم بأمس ، و ما اســـهل كتابة التاريخ بدون أن نحدد له تاريخ ، ولا حاجة لتأريخ ... إذا فالنجرب رسم الخطوط العريضة بإختصار .

♤ ♤ ♤

يكفي هذا لليوم .. غدًا ســـوف ابدأ في إرســـاءِ بناء عالم الرواية الجديدة بالتفاصـيل الدقيقة المُمِلة .. أما الأن ف عليَّ النوم ؛ لأشبع من بناتي غدًا ، ف هو اليوم الوحيد الذي أطولهم فيه و أجالســـهم بعيدًا عن نظرات أمهم اللعينة ، نلعب و نضـــحك و نعيش كما كنا نفعل سويًا قبل عامين ؛ قبلما نتخذ أسعد قرارات حياتي و أقساها ،

إنفصالي عن "ريم" ؛ و تبع لهذا تحجيم علاقتي ببناتي إلي يوم وحيد مُوَحَد في الاســـبوع ، تتركهم أمهم لي عند الباب في تمام الثامنة و تفر ، لا أدري فرارها مني أم من مســـئولية البنات ، فالتحترق ولا يدفن رمادها النجس ولا ترتاح روحها ولا تهدأ .

أفرد قامتي - بعد إطفاء الانوار السَهَّاريَّة - على سريري المُلاصِق للمكتب و أدفن وجهي بوســـادتين يكادان أن يخنقاني ؛ في هي عادة قديمة لديَّ منذ وعيت على النوم وحدي ، و كأني أمنع عالم الواقع من التســرب لداخل أحلامي ، و أحجِم أحلامي حتى لا تخرج للواقع إلا من خلالي .. معظم كتاباتي أتت أفكارها من منامٍ واضــحة رؤيته كنت فيها بشــخصــي و تحدث لي أحداث عجيبة ، غريبة عن عالمي المشــئوم ، و لكن كعادة الأحلام لا تكتمل ، فتترك لي عنان تضــخيم التفاصــيل و تزويد الحبكة و رسـم الشــخصــيات و وضــع النهاية .. إلهامٌ إلاهي يضــعني على أول الطريق الصــحيح ، و بالفعل مع أول منامٍ و أول رواية ؛ نجحتُ نجاحًا لا يُصـــدَّق .. و تتابعت الأحلام و تتابعت الروايات .. حتي وقفت أحلامي ، و حل محلها الســـواد ، أو ذابت ذاكرتي السُّـباتِيَّة بسـخونة تِرس توصـيلها ب وعيّ ، و إنقطع المدد .. ف كان عليا التحرك .. ف الكتابة هي لُقمة عيشــي المُغَمَسـة بالزُبدِ ولا أملك غيرها لنفقة أولادي و فتح بيتي .. فقررت الإرتجال.

حينَ يفتقر خيالُ الكُتاب و يقربون ســـدَّة الكتابة ، يهربون بالكتابة عن الكتابة .. يحاولون الوصـول للضـائع في تيه فكرهم ، و يأخذون من روحهم و طقوســـهم ما يملؤون به فراغ التفاصـــيل .. ليس من عادتي كتابة أيَّ شيء للربح ؛ و أسلوب سلق البيض للتربُح ، ف ثقة الجمهور في كاتبهم كالصـــفحة البيضـــاء لا يجب ان تتلوث ب حبر الصـدمة الغامق ، خصـوصًـا لو خطت أصـابعهم فيها معاني السـقوط من النظر و عدم الميل لتجديد عقد القراءة مجددًا .. ف الكتـابـة الشـــائكة الناجحة لها خلطة كنت أســـتبدل بعضـــها بالأقرب للذوق العربي الذي يَدعي التديُّن و العفاف ، و بداخله فجور ينتظر التفجُر ، يبحث عن الجنس و مخالفة العقائد الســليمة و الســياســـة القذرة ، التاريخ الخاطئ و نظرية المؤامرة ، إنتصـــار الخير دائمًا لو كان ب

ظلم لأخرين ، مُداوَاة مرضاته و شعوره انه ليس الوحيد الذي يُخطئ في الخفاء .. و لكن العجب العُجاب في رد الفعل المُقابل لهذه الأعمال ، ف كُتابها ينالون من الخيار المُنتَقى و من الاراء السيئة بالزوفة ، و في أيامٍ معدودات يُهدَم عرشهم المتين و يفقدون التبجيل السابق و يُصَفون بالعُهر ، و لكن مع إنتشار خبر عملهم الجديد يتسابق الناس مُجددًا للحظيّ بالنسخة و التوقيع و إعادة تجديد عهد الثقة .. كنتُ في راحة من هذا بالأفكار الجديدة المتطورة و أسلوب الكتابة المتفرِد و اللغة السليمة ، و لكني لم اعمل حساب هذا اليوم ، الذي أفتقر فيه للخيال و المادة ؛ و يجعلني القدر أسبح في بركة ضحلة رميت فيها كل فضلاتي القذرة و سخرت من مُرتديها ، حتي عطشتُ ف نزلتُ أنهَلُ منها ما لي فيه النصيب .. ملعونة الحوجة .

أنا لا استطيع النوم ، ف أسوأ نوم هو ما يعقبه شيءٌ هامٌ في الصباح .. تظل الشرايين ضاخة الدم في المُخ تعمل كأني في سباقٍ لاهث ولا تتبع الأمر المطلوب بالهماد و الإسترخاء .. سوف أتوقف عن التفكير .. أو ليتني أستطيع ، من أخدع .

في لحظة إقتحم عقلي صوت حاد مُزعج لا يصمت ، جعلني أتململ في رقدتي لأجد أن جفوني ثقيلة و دماغي يإن ، يبدو انني نمت دون أن اشعر و إستيقظت ـ للأسف ـ دون كفاية او متعة من التي أتمناها الأن .. جلست ثواني أستوعب أين أنا و من اكون ، و من أين يأتي هذا الصوت غازي الأحلام ، هو بعيد ف إذا ليس الهاتف الراقد أمامي في سُكات ، هو بعيد ف إذن هو الباب ، نظرت في ساعة المحمول لأعرف كل ما يحدث ، الساعة الثامنة و البنات أمام الباب لم يجدوني أنتظرهم على اعتابه مثل كل مرة ، ف علمت امهم انني نائم ف تركت العنان للفتيات و دغدغت ميولهم غير الموسيقية لإلقاء تلك المعزوفة النشاذية لتعذبني .. في ثواني ـ أقل من المُستهلكة في الإستيعاب ـ كنت قد هرولت لفتح الباب ، لأجد البنتين مازالَ في جعبتهم إيقاعات أخرى لم يعلنوها بعد ، و لكن نظرة من عيني كانت كافية للتوقُف و أخذ التحيَّة من أمهم ؛ التي ما أن إطمأنت أنني فتحتُ الباب حتي ضحكتْ و طارت كالنسر الحر .

أدخلت الفتاتان و سألتهم عن حالهم ، و عن غذائهم و إستذكارهم .. خصوصًا "حبيبة" الكبيرة التي تتوّج دراستها الإبتدائية بالعام السادس المُتَمِم لها .. أما "أميرة" الصغيرة ف مازالت في فترة الإستهجاء التي تبعث بالإبتسام التلقائي حين يُسمَع منها الكلام .. أعتقد أن نشوء نُطفَة "أميرة" كانت أخر ليلة هانئة جمعتني بأمها الملعونة .. و بعدها ظللنا في خلاف لعامين كدنا ندمر فيهم صحة الفتاتين النفسية و نهدم حياتنا بقتل أحدنا للأخر و ضياع مستقبل الحيُّ منا وراء القضبان المُسلحة ، فأخذتْ هي القرار و نجدتنا من مستقبل مُدمَر .

بدأنا في إعداد إفطارٍ يستلذ من رائحته الغارق في الشبع ، ف قد كنت جهزت ثلاجتي بما تحبه الفتاتان و توَّجتُ غرفة المعيشة بالجديد من الألعاب و شاهدنا على التلفاز الممتع من الأفلام الكرتونية المُرَقبَّة من أيِّ أفكار مغلوطة مدسوسة ، و بعد الإنتهاء من المرح العارم جلسنا نُبَحلِق في بعضنا من الملل .. ف قطعت "حبيبة" الحبيبة الوِدَّ و الفرحة الموصولين بيننا بسؤالٍ مُباغِت سبق السن المُنتظَر فيه :

- بابا .. هو ليه إنتَ و ماما سيبتوا بعض ؟! .

لماذا تفاجأت ؟ ، هل كنت أنتظر ان تسأل "حبيبة" هذا السؤال لأُمها و تجيب المُتعَجرِفة بما يُعَلي من شأنها و يُهبِط من وجودي ، هل لذلك لم أفكر في إجابة ؟! ، و ها قد سنحت الفرص في أن أأخذ حقي من تلك الشمطاء و أُعلي من قيمتي لديهم و أحطم الصنم الذي قامت ببناءه لنفسها تلك المُلحدة - الممسوسة - من صخور و ثغور شخصيتي .. و لكن هل هذه الطريقة السليمة للتربية ؟ .. أريد لحبيبة ان تتذكرني دائما بالخير بأني كنت شخصًا جيدًا تذوب في وجوده المشاكل و التعقيدات ، ف حتي إذا زَرَعَتْ فيها "ريم" كُرهي مع السنين ؛ تتذكر أيامُنا ف تُكَذِب الظنون بيقينها عني .. ف قررت عدم تجميل ملامحي من قُرب ، او تقبيح إضافي لقبح "ريم" عن بُعد ، سأحكي كل ما كان من الوِجهَتان ، و لعلك تفهمين يا "حبيبة" .

لا أعرف لِما بدأتُ سرد أسباب طلاقي من "ريم" منذ طفولتي .. حين كنت صـــغيرًا بريئًا أجلس مع أخي تحت طاولة الطعام نلعب السُـلَم و الثعبان على أصـوات صـراخ أبواي و تأوهات نابعة عن إهانة و ضرب ، هكذا تربيت ان هذا هو الطبيعي في كل بيت ، حين كنت أحاول أخذ مُنحَنًا إيجابيًا و أحاول التصرف او التفرقة بينهم في النزاع كنت أُقَابَل ب رد فعلٍ عنيف يُوئِد تكرار المحاولة .. ف حاولت حماية أخي من تلك المأساة حتي أصبح يصطف بجانبي في تلك الأوقات للمُشـــاهدة و الإســـتمتاع .. الوحيدة التي كانت ترأف لحالنا و تؤنِسُ بؤسَـــنا هي جدتي "إيمان" .. تُجلِسُـــنا بجانبها على الأريكة و ترمح معنا بجُعبَتِها الخيالية من أحداثٍ و تجوب بنا العالم في مكاننا المحدود .. نتعلم و نستفيد ، نحلم و نطمئن .. و لكني كنت أرى المعاملة الســيئة التي تنالها هي أيضًـــا من جدي الكبير و رضوخها له مُستسلمة كالأسير الذليل .. ف أمسى في عقلي ان هذا هو نظام الكون الثابت ، تعرفنا انا و "ريم" بطريقة زواج الصالونات ، الذي لا يقوم على محبَّة مُسبقة بل مجرد تنبؤ بإستقرارٍ قد يَصدُف أو لا يَصـــدُق ، كانت بدايتنا مُشـــرقة بالتفاؤل و التفاهم ، نتناقش بالتحاور و نضع يدنا على حلولٍ ملموسة ، كل هذا كان قبل أن يغلق علينا باب و رباط مقدس إســـمه الزواج ، توَحَش إنفعالنا و حِسُّـــنا وصل لعنان السماء ، إرتفع الصوت و إمتدت الأيدي تباعًا و وصلنا للطبيعي المأثور ، ما إستغربته هو رد فعل "ريم" ، و كأنها أبَت ان نعيش بشـــكل طبيعي تقليدي ، زارت أطباء نفســيين و ملأت البيت بأقاربها و جعلوني مُجرمًا غير مؤتَمَن على بنات الناس ، ف كيف لي أن أُرَبي بنتين ، وجدت نفسي في صالة مُحاكمة و القاضي يحكم ب خلعي و حرماني من حبيباتي .. لم أعرف حينها على من أرمي اللوم ، هل وَجَب ســـقوطه على "ريم" التي خرجت عن النظام و ســـهلت لها القوانين العبث بحياتي ، أم ألوم نســـاء عائلتي لأنهم لم يعطوا أنفسـهم الفرصـة ليكونوا مثل "ريم" ف ينبهوني بحقوقها قبل خطئي .. في الأخير إنتهت حياتنا ســويًا بطريقةٍ حضـــارية راقية ، كما يقولون ، و لا أنكر لها جميل وجودكم عندي ليومٍ من كل أسبوع ، ف هذا يؤكِد حِرصَها على حُسن تربيتها لكم ، و لي .

حين إنتهيت من القصِّ وجدتهن نائمات ، يبدو اني أســـهبت في المُمِل تذكره ، رغم اني كاتب تشويق و لكن لا يُستحب سماعي أتكلم ، طلبت الغداء من مطعمٍ بعيدٍ مشـهور ؛ ليصـل بعد سـاعتين سـوف يناموها الفتاتان في راحة ، و أجلسَـــهُم أنا في مكتبي للإســترخاء و إسـتدعاء أفكاري الهائمة ، لعل مُعاناتي تَخفُت ، و تُنَحِّي عن روحي التيه في سبيلي الذابل .

أين وقفنا يا أستاذ "ماجد" أين يُمكِن أن يَكمُن سرك الذي سيغير مجرى الأحداث ، هل تبدأ الكتابة و نكون في عالميين متوازيين لعالم الماضـــي و إبراز تدهور الحاضـــر من خلاله ، أم خروج شخصية من روايتك لتأخذك معها في عالمها عن طريق قلم سحري ينقِلَك لما تَسطُره يداك على الورق ، لك مداخل كثيرة محيِّرة ، فلنبدأ بالإرتجال حتي تُفتَح لنا الطريقة المُثلَى لطريقِك .. هيا فلنبدأ بالتَخَيُّل ، لعلنا نرتاح .

♤ ♤ ♤

يكفي هذا لليوم .. ف عليَّ الإستعداد لليلة بكل ما فيَّ من طاقةٍ و تركيز ، ف اليوم - لمن لا يعلم - هو الذِكرى الســـابعة على زواجي من حبيبتي "حبيبة" .. و إذا كانت أيامُنا ســـويًّا كلها من أيام الجنَّة ؛ ف اليوم نَعتَلي مراتبِها الأعلى بكل ما فينا من سـعادة .. أسـتَحِم بكل ما زَهَت بهِ عطور الأرض ، أنتقي من ملابســـي الجديد المُزَيِّن للحظة ، أعتني ب أشـمل التفاصـيل و أدقها لكي تكتمل فرحة اليوم كما خلدتها ذكرانا في الأعوام الســـبع و ما ســـيتبعها طوال عمرنا المديد - بإذن المولى - .

في تمام الساعة التاسعة مساءًا بالدقيقة في مثل هذا اليوم ؛ كانت بداية تحقيق أثمن أحلامي و أَتمّها ، لحظة ما تسـلمت فتاتي من أبيها و الشـــوق اللامتناهي لملامســـة يداها و مُداعبة مشـــاعرها بكل ما حملتُ في قلبي من كلامٍ دالٍ على فرحتي .. تمشينا ب تَمَختُر الطائر الذي يعرف أن مكانه الســـماء بعد لحظات ؛ و لكنه تنازل ل يَتَقَبَل

التهنئة و الدعاوي الخيّرة من أهل الأرض قبل الرفرفة لأوسع الأُفُق ، صـعدنا على نغمات الموسـيقى الطَلة بالأبيض وسـط عَتمَة باقي الحضـور ، النور الذي إنفرجت له روحي و أساريري ، همست لها ب سـرٍ أُفضِـل كِتمانُه ؛ ف ضَـحكتْ و مالت عليَّ و بدون تخطيط مُسـبَق أغلقتُ عليها حضـني و أدَخَلتُها بين ضـلوعي ؛ بجانب قلبي الذي أخذته من حين اللقاء الأول و حان الأن وقت رجوعه لمكانه المحفوظ .. رقصـــنا و إعتَلَّت أقدامُنا الأرض ، تذوقنا حلاوة الأيام القادمة برشفةِ سكر إنهالت من شفتيها الورديَّتين ، كنتُ أتَحَايَّلُ على هذه اللحظات أن تَمُر سريعًا و ان تُحفَر في ذاكرتي ايضًا ؛ لأُعيدُها عليَّ كلما تضـــيق بي الفانية الخارجة عن إطار بيتنا .. كان ب وِدّي ان أُعيد اليوم بكل تفاصـــيله و لكن ما من أحدٍ ســـيَتَقَبَل هذا الفعل المُتكرر من عاشـــقٍ مجنونٍ وَلهان .. ف قررنا أن نعيده على إطارٍ أضيَق يزيدُ بهاء الذكرى بالوحدة التي نأمُلهَا مع أنفُسِنا .

كُتِبَت علينا الوحدة إختيارًا و إجبارًا ، ف لم تُسعفْنا الحياة ب جنينٍ يتحمل مقدار الحب الذي تكوَّن به ، لم تكتمل فرحتنا ب ثالث لنا ، و لكننا إرتضـينا ، و شَـعرنا ب أن السـعادة تكون أسـعد لو إقتسـمها - غَصبًا - إثنان فقط .

عَمَلنا بكل جدٍ و إجتهادٍ في وظائفنا التي مدت يد الحكومة بها لنا - علينا - ، و لكن كان الرزق يكفي و يفيض ف نحن مازلنا وحدنا ، نلتقي ف تمام الرابعة عصـــرًا ليبدأ اليوم من جديد حتي ينتهي بأخر نظرة تســـرقها عيني ل وجهها قبل أن تنام ، في إطار اليوم نأكل حسب التساهيل إذا كانت بها طاقة تكفي لإعداد طعام يُغذي معدتي و قلبي ف أشبع بكل حواسي ، أو جاءت متعبة ف نضطر لطلب طعام لا يُشبع ولا يُسمن إلا من نظرتي لها حين الأكل .. أعرف انني أبدو رومانسـي بشـكل زائد قد يضـر ببعض القراء ، و لكن أعذروني ف أنا كاتب روايات رومانسـية ، قد بَذَرَت فيَّ تلك الموهبة عيناها حين أمسـكت الورقة و القلم و اسـهبت في وصـف كل تفصـيلة فيها ؛ و مهما كنت أكتب كان أبخس ب كثيرٍ من قَدرِها ، أحببتُ التَغَزُل فيها و باللغة التي تتكلم عنها ، ف وصلت لقدر كبير من التثقف بسببها ..

حتي بدأت احكي بعضً من قِصَصِنا في مجموعة قصصيَّة حملت إسمها ، "حبيبة" ، و نالت إعجاب الجمهور، بالطبع ، ف كيف يمكن أن يوصف الملاك و لا يتهافت الناس على محاولة نَسجه بالخيال ، على الأقل انا ملاكي حقيقة تُرَى ولا احتاج لخيالٍ يُختال .

أشرُع الأن في كتابة روايَة جديدة ، قررت أن أجعلها تدور حول الكتابة و عالمها ، كاتبٌ يكتب رواية جديدة عن كاتبٍ يحاول أن يكتب رواية جديدة ، و في الأصل ما هي إلا فكرة كاتب يحاول أن يكتب رواية جديدة ، أمرٌ مُمتِع ، و لكن حتى لا أخرج عن ما يطلبه المهتمون ب فني ؛ حاولت أن أجعل لها سياقًا وهاجًا عن العلاقات ، علاقات مُدَمَرة ناخِرَّة أدت إلى خراب بيوت و جروحٍ لا تندمِل من أمَلٍ او أسَفٍ ، او حتى مع الوقت ، المرأة المُتَجَبِرَة التَي تغيرت بعد الزواج ف حالت حياة زوجها جحيمًا ؛ ف هرب بالكتابة ، و الزوج الذي تعود على نظامٍ خاطئ بلا ذنب منه ف أضحى في نظر زوجته و المجتمع رَجيمًا ؛ ف هرب بالكتابة ، رغم ان حياتهم لا تقرب من حياتي في شيء و لكن هذا هو التحدي الذي احببت إرتياده ، كيف اخرج من نفسي و أكتب عن غيري و اشرح ما يدور ب خلده و يتم تصديقه كأنه حقيقة .. إستمعت لبعض أحاديث أصدقائي و أخذت بعض التفاصيل من برامج و حوارات و مُداخلات ، و في كل مدخل مناسب سوف أضع بعضها ؛ حتي لا اكشف كل أوراقي بسهولة كأي كاتب هاويٍ .

وضعتُ الشموع و الأطباق على المائدة و بدأتُ تحضير العشاء ، أُحب أن أُفاجئ "حبيبة" عندما تأتي للبيت و تنسى أني دائما ما أأخذ يوم عيد زواجنا إجازة من العمل ، ف تأتي في الرابعة لتجد كل شيء مُحَضَر مسبقًا ، لا ينقصه غير حضورها ؛ المُستَحوِذ على قلبي و لُبّي ، حتي ذلك الحين وقفت أتابع من الشرفة - في الثانية ظهرًا ، أسوء أوقات الحياة - المارَّة و السيَّارات و الدنيا ، أنظر من جَنَّتي على عالم مالِّئ بالضغط و الزحام و العرق ، تلك هي الدنيا - لمن لم يفهمها للأن - مجموعة من المُشاجَرات مُختلفة الأسباب ، حبٌ و كره ، رزقٌ و ضيق ، أملٌ و يأس ، حزمٌ و تراخي ، بإسٌ و

خوف .. أراها فانيَّة لا تستحق التَمَعُن في أذاها و التنقيب عن أمالنا تحت ثَراها ، يكفيك أن تفوز منها بشيءٍ يُسَهِل لك رحلتك فيها ، لا تَطَمَح أبدًا للإكتمال ، حتى ترتاح .. ف الإنسان خُلِق ناقصًا لسببٍ ؛ ليبحث دائمًا عن صاحبِ الكمال .

مرّوا الساعتان ببطء يَقتِل ، حتى سمعت صوت سَحب المصعد الكهربائي ، جريت أغلق الأنوار ، فرشت الأرض بالورد الأحمر و الأبيض الزهري ؛ ف لم يكُن مُلائمًا أن أدهسه من لهوَجَتي المُتَلَهِفَّة ، وقفتُ بجانب الباب من زاوية فتحه حتى لا تراني و أُفاجئها ، وصل المصعد للدور و سمعت المفتاح و هو يستنزف معدن الرتاج بحكُّه ؛ و دخلتْ أخيرًا في الظلمة الداكِنة ، لم تستغرب عدم وجودي ظنًا منها أني لم أعُد بعد ، مشت خطوة و أغلقت الباب ورائها و فُتحت الأنوار مع صوتي المُبتَهِج يصيح بالفرحة لمُفاجَئَتِها ، و لكني صُدِمت من رد الفعل المُعاكِس ، إختفت السعادة المنتظرة من بريق عينها و حلت محلها دموع و نظرة يأس .. ماذا هناك يا حبيبة ؟!!! .. لمحتُ في يدِها مثل دفتر أشعة ، كيف لم تخبريني بأمر مثل ذلك ؟ .. ماذا بتلك الأشعة يا حبيبة ؟!! .. صمتت و تحركت لأقرب كرسي في همودٍ و إستسلام ، تحركت ناحيتُها ببطء و أخذت الظرف و قرأت محتواه في خوف .

هو الخُبث في ذاته ، مرضٌ يأكل في الجسد و ينخُر الروح و يجري في الدم ، يُميت الأحبَّة ب بُطء و يُسَوّي القلوب على نارٍ هادئة ، نظرتُ لها بإستنكار غرضه التكذيب ، نظرتْ لي بإنكسار يُفيد التأكيد ، ماتت البهجة في مَهدِها ، إنطفأت الشموع ثم تذبذبت الرؤية و تبدلت كل المشاعر .. كنت على أعتاب الإستسلام ، و لكن قلبي مازال يَنبُض بأملٍ أن الله لن يحرمنا من بعضِنا ، لا يمكن ، من لنا غيرنا ليثبتنا على الحياة حتي يفقد أحدنا الأخر ، لا .. هذا إبتلاءٌ مؤقت غرضه إثبات الطاعة و التسليم لمشيئة من لا يُحمَد على مكروهٍ سواه .. فالحمدلله .. الحمدلله انا راضي .. الحمدلله انتِ راضية .. الحمدلله يا رب .. الحمدلله يا رب .. اه ، مُخي سينفجر .

مع أذان صـلاة الفجر وجدتُني قد نمت على الأريكة ، إنفعالي زاد عن الحد و لم أسـتطع أن أهوِن عن "حبيبة" و زدتُ الهَمَ طِينًا مُبتلًّا .. انا أســف ، كنت أظنني أقوى من ذلك بكثير ، و لكن حين يقترب الخطر من أغلى ما تملك تصبح هشًا من حركةِ الهواء .. كانت نائمة بجواري أرضًـا ، همسـتُ لها اني أحبها و أخاف خُسـراتها و أتمنا قربهـا ولا أريـد بعـده أي نِعَمٍ أخري ، حتى تململت في نومهـا ف أيقظتها لترتاح على السرير ، و في مشينا ثَبَتُ قلبها بأننا لن نستسلم و من الغد سـوف نبدأ بزيارة افضـل الأطباء و بإذن الله سـيُكتَب لها شـفاءً لا يُغادِر سـقمًا .. أغمضـت عيناها و طبعتُ على جبهتها قُبلة اراحت قلبي بإستمرار قُربها مني للأن .

جلســت على مكتبي مُشــتتًا ، بداخلي بركان به حِمَمٍ من القلق و الخوف .. حاولت إخراج كل هذا من داخلي بالكتابة و لكن وجدتُني لا أكتب عدا جُملَتين بالعدد ، " حبيبـة يـا رب .. حبيبـة يـا رب " ، مُناجاة من قلبٍ مكلومٍ يَدمِي ، أصــرخ بداخلي و فَمّي مُغلق .. كنت أعرف .. كنت أعرف أن هذا حال الدنيا ، لا تترك شــيئًا على حالٍ نرضـاه ؛ تأخذ ما نُحب ، و تُوْجِع من تُحب ، و تَنثُر رماد الأماني و تُشيّد أصـنام الذكريات ، و تتركنا بلا دليل .. تتركنا فقط ب قَبسٍ من أملِ .. إسمه "حبيبة" .

♤ ♤ ♤

يكفي هذا لليوم .....

◇ إغتِمام ◇

في يوم زاد نسيمه التمني .. و أشرقت شمسه بوضوح غار على وضوح البشر ؛ في قصر شامخ كاد يطول السماء تطلعًا ، جلس علي عرشه يتأمل إثنين يحتكمون لأمره و حكمة رؤيته .. يفصل بينهم بالحق و العدل .. كان أولهم راعيًا معروف لدى أهل البلد بالسطوة و الغِنى ؛ و ثانيهم مزارعًا بشوشًا ؛ نقيٌّ مثل خضرته

النضرة النديَّة .. و كان الأمر الذي فيه يستفتيان عن أكل رعية الأول من خضـرة الثاني حتي شبعت و إرتوَت ؛ الأول يري أنه ليس عليه ذنـب ف هي خراف ترعى في حظيرة الرب كُتِب لهم الرزق من حيث لا نعتَلِم .. و الأخر يرى مجهوده و تعب شـــهوره قد ذهب بلا أجر يُجفِف به العرق و يســـد به جوع أهل بيته .. ف حَكَم بينهم ذو الحِكمة و الأصول بتبادلٍ رئيف مقبول .. ف الاول لا يملك لِما سلبه غنمه رد ؛ لصِغَر سنهم و قلة لحمهم ف لن يقدر على بيعهم بعد ، و الثاني لا يملك غير خضـرته للعيش ؛ التي إلتهموا نصـفها .. ف أمر سُـــلطان أول الزمان و أخره ؛ مُقابل الخُضـــرة المأكولة أن يعطي الراعي للمزارع غَنَمَين من أغنامهِ ؛ يتولاهم المزارع بنفسه و يأخذ منهم ما كتبه الله له من رزق .. و إرتضـــى المزارع بالحكم و هز الراعي رأســـه في ندمٍ و غير إحتكام ؛ و لكن بعد قول الســـلطان لا يوجد ما يُقال ، إلا في الخفاء .

● الغَنَّام ●

في عيد مولدي الخامس ، فاجئني أبي بهدية بلَّلت لباســـي و إحتلت كوابيســـي إلى اليوم ، تركني في ظلمة الليل في طريقٍ مقطوع لم أســـمع فيه صـــريخ ابن يومين ، و تركني وحدي لا أعرف طريقًا للعودة ولا أجد من اســـأله على بوصـــلة تدلني ؛ او من يؤكد لي إســـتمرار وجودي حيًّ إلي الأن .. تركني أتعلم كيف أعتمد علي نفسي ، كيف اتغلب علي خوفي ، كيف أقتل قلبي .. شاكرٌ لأفضالك يا أبي .

لم أصِل إلى ما أنا فيه بالساهل المُسَهلَ ، لقد قدحت عمرًا و غدوتُ حرًا بإرادتي ، أملك ما اريد كيفما أريد ، علمني أبي أن الرجل هو من لا يصـــعُب عليه شـــيء في الحياة الدنيا ، قلبه قوي و يأخذ حقه بأسنانه ليس ب يديه فقط ، ف الطيب المتراخي يكون أحمق ، يسهل

على الناس كسره ، و لذلك قررت أن أكون فوق الناس حتي يصعب عليهم لمسي ، كثيرًا أحمد الله علي موت امي المبكر ، ف على رأي أبي حُبُها لي كان سيجعل لي قلب يمكن دهسه و إلامه ، و مكان القلب وضعت أيدي من حديد يصعب لويُّها .. أذاني أبي كثيرًا و مسح بي الأراضي ، كان يعاملني ك عبد ذليل ، حتي أسيطر على الدنيا بأجملها عند تحرير وثيقة عَتْقِي .. و قد كان ، شربت التجارة ب ماءٍ مُحلَّى ، و إستثمرت مالي و شيدت مملكتي و أصبح عندي من العبيد ما يجعلني إلَهً مُصَغَر غير معبود ، ب أمرٍ مني .. ملأت حياتي بالجواري و لم تليّن إحداهن قلبي ، و لكن حين حبلت إحداهن قررت الزواج منها حتى يأتي ولدي للدنيا حُرًا بلا حاجة لأحد ولا نظرة واحدة مُسيئة تسبق وجوده ، حين وُلِد لا أعرف ما الجديد من الفرح الذي صابني ، شعور ب أن من الحجارة ما يخرج منها الماء ، سعدتُ به و جعلته ينال شرف النوم على سريري ك شرف لم يحلم به أحد و لن يطوله إلاه ، كبر أمام عيني و بدأ المشي و سمعت صوته يناديني و رنَّا بالتعلم ، عاش في عزي – بين العائشين – خمس أعوام ، و ذهب .. مرض مرضًا مؤذي كاد يخرج روحه من ضلوعه قبل أوانها ، لم تنفع معه أيُ أعشاب ولا من التي في اعالي جبال الهند القصوى .. و كانت أول مرة اشعر بضعفي و إنهزامي ، أول مرة اشعر أن لي قلب ، و انه يُمكِن دهسه ؛ لذلك اقصيت فكرة الإنجاب من عقلي بتاتًا .. و قررت أن الحياة لن تأخذ مني شيئًا أخر إلا ب رضايّ، ، لن يسعد أحدًا ب شعرة مني إلا و سوف يتذوق من العذاب ألوان تشفي غليلي و ما يليه .

***

قرر الراعي "الغنام" – إسمًا و عملًا – أنه ظُلِم ، و زاد حقده من نظرات التشفِّي من الرعاع البُغضاء ، الذين لم يكونوا يستجرون رفع النظر عن الأرض في حضرته ، وصل لزوجته "شجن" الخبر ف أسمعته ما زاد ضراره و عمى بصيرته ملأت مخيلته الرمادية بما زاد سوادها نَحَرَت كل فكرة للتغاضي عن الأمر ، التي لم تكن لتأتي في باله من الأساس ، و أسهبت فيما سيَؤل إليه حاله إذا لم

يُرجع حقه و كيف سينظر له العامة بعد كسر شوكته ، حتي وَسوَسَت له نفسه أن أغنامه لا يجب أن تعيش هنيَّة خارج حظيرته ، بل قُل لن تعيش أصلًا .

● شَجَن ●

الفقراءُ من البشر جنس نمرود ، يظنون أن التساوي مع أسيادهم في صالحهم ، فقراء و أغبياء ، كيف يجرؤ واحدٌ من هؤلاء الرعاع ان يتعدى المسموح له و يشتكي اسياده من الطبقة المِخمَليَّة ، كيف وصلت الفكرة إلي تلك الجماجم المتحجرة العفنة ، مثل هؤلاء عليهم أن يذوقوا مرار الخذلان و كسر الخواطر .. هكذا علمتني ستي "عواطف" .

نعم لم أولد ب فمي معلقة من ذهب ، تم إخطافي من أهلي في ريعان طفولتي ، تربيت علي يد أكبر نخاسة في البلاد ، الست "عواطف" ، أحبتني كإبنتها ل جمالي البادي و لجسمي الليّن اللادن البض ، و بياض بشرتي كان غير معهود علي أهل البلاد لأصول أمي الشركسية .. حُبها جعلني محروسة من العيون و كأني مستشارة لا بضاعة تُباع و تُشترى ، و علمتني أن كبريائي هو ما يُضفي على قيمتي إبهارًا و بهاءً ، جعلتني طاووس وسط الدواجن ، و لبؤة بين القطط .. حتي إرتضت لي بيعة تضمن هنائي ، جارية "الغنام" ، السيد الهُمام الذي ينطق صوته بالأمر ولا يرتد له جفن حتي يكون نَفذ .. لم يدق الخب بابي ، كنت ارى نفسي أعلى من أن يتطلع لي البشر ، لكن حين رأيت بهاءه ذابت غشاوة قوتي و ظهرت الطبقة الملساء التي تربت على الدلع و الغنج بتعليمات "ست عواطف" ، جعلت سريره يدفأ في أبرد ليالي الشتاء و راق باله بأُنسي في حرارة

الصـــيف ، و أنرت بصـــيرته بفكري في أصـــعب الأوقات و أشـــد المشـــاكل ، ف صـــار ليس له غنى عني ، حتي حبلت ، طار بي و كأني أتيته بالرسالة و أنزلت عليه الوحي ، و أمسيت سيدة البيت و تزوجني ف أصبحت حرّة من ملكِ يمين .. حتى سقط ستري و مات ولدي ، نعم ؛ ولدي انا ليس ولد "الغنام" العقيم ، حققت له مراده بالولد ، حتى لو لم يكن من صُلبه ، ف لكي تضمن حقك في الحياة عليك أن تكون ثُعبان ب لدغةِ خُبث ، حتى تعيش مَلِكًا مُهابًا من الجميع .

***

وصـــل المزارع "حاصـــد" لبيته جارًا في يديه غنيمته - الغنمين - الأثقل من أحلامه ، تبارك ب قَدَرِ الله ، ف قد قدر له خير لم يتصوره مهما طفا خياله عن المسموح المُتَدَبِر ، فرحت بنته كثيرًا بالأغنام و بدأت تلعب معهم ، و الزوجة نظرتها كانت تحمل من الخوف أثقال ، كانت بحساسية المرأة العالية تشعر أن الأمر مجرد تضحية مؤقتة من الغنام سيتبعُها تكفيرٌ للحق الذي أتمُّه كَرهًا ، ف تبسم ب رضا مُعتمرٍ بقلبه أن الله معه و لن يرضا له إلا الخير و لو لم يفهم مغزاه .

بدأ "الغنام" تحضـيره لغزو بيت المزارع ليجعله يحصـد القهر .. بعث له بشوالين من علفه المخصوص المُكلِف كهدية للتراضي بينهم و إظهار حُسن النيّة ، قَبَلَها المزارع بنفسٍ هادئة ودودة ، و رد الكرم بأفضـل ما بقي عنده من عشـب ، رغم بخاسـة الرد من المزارع و لكنه كان كل ما يملك بالفعل - رضـــا بهم الغنام أمامه و في أول أرض قاحلة صادفته قذفهم و عاصَـهم بالبَصْـقات و السُـباب .. بدأ المزارع بإطعام الغنمين من بركة مالكهم السابق ، أكلوا في نهم حتى الشَـبَع ، و ناموا في رضـا .. و رجع الغنام لبيته ، و أعطا لرجالة - من سَمَموا العلف المُهادا للمزارع - بعض البقشيش ، و اكدوا له ان أغنامه قد طُعِمُوا من خيره و ناموا في أمنه بسلام .

في صـــباح يُثار له العجب من إبداع خالقه ، إســـتيقظ الغنام على نُوَاح حريمه و رجاله نَواحِي حظيرته ، وصـــل لها بخطوات وجلَّة ليري كل غنمه و ثروته نافقة لا يرتد لها زفير ، مشي وسطهم و هو يري كل ماله و محتاله قد ولَّى الي تراب سيملؤه الدود ، صـرخ في رجاله الخصـيَّان عن معني ذلك ، فترتبت الأحداث في دماغ أحدهم أنه قد يكون من نقل الأشولَّة المسمومة قد أخذ مكانها السليم ، أو من أطعم الغنم في داره لم يتحرَ الدقة فأخذ من الاشولة المسمومة و ترك السليم .. دامت الأرض بالغنام بإغتنام نتيجة شره و غدره ، لَبِسَ في داره ثلاث ليال لا يفارق سريره في حُمَّى كادت تودي به لهلاكه مع زيارات دائمة من الحُكماء لمحاولة شـفاؤه ، و بعد أن صـلب بعضً من طوله ، كان أول زواره المزارع "حاصد" جلس بجانبه ليواسيه في فقده ، و حلّفَهُ أن يقبل منه أن يقتسموا ما معه من رزقٍ شحيح ، ف هو الأن أمســـى لا يملك غير الغنمين ، و يريده أن يقبل أحدهم حتى يبدأ به تعويض ما فاته و رحل عنه ، نظر له غنام و الغِلُّ يعتمر في قلبه ، طرده من البيت شـر طردة ، رأي انه يسـتهزئ به يُمرِر له أخر حجر في قبره ، و أقسـم أن يعود لصـحته و لن يكتفي حينها ب وقف رزقه ، بل ســـوف يوقف أنفاســـه الخبيثة و يُنهي حصاده و شره .

● حَاصِد ●

لا تقلق طالما الخير يســبق خطاك .. كانت أخر ما تمتم به أبي من كلمات ، قبلما يُوَرِثُّني فقره و يجعلُني أحصـــد ما بقى من ســـيرته العطرة .

لم أحزن يومًا على قلة حيلتي و قِصَـــر يدي عن غزل الراحة و الإغتناء ، فالغنى - كما يقول ابي - غنى النفس ، و أشـــهد له في قيامَتِنا انه إســتثمر في نفســي كنوز الأرض بعدما علمني القناعة ..

ولدت ب ملامح يسهل رؤيتُها في كل من هم مثلي ، سمار و طول و جبهة عريضـــة ب عيون غاربة مُطفأة ؛ و خطٌ أســـود خفيف يعلو شَفَتي العُليا ، الرجل كما يوصف بالكُتُب ، من تَحَمَل مسئولية و تدبر في الرزق و تسامى في الصبر .. تحملتُ الشمس التي لطمت جسدي ، و إتخذت من الفأس يدًا ثالثة تحفر ايامي على وجه الأرض .. حين بلغت الحُلُم تزوجت من ابنة خالي "رئيفة" كانت طيبة المعشـــر و وتد تســـتند عليه أوقات الضـــيق التي تغور على لحظات الفرج .... خَسِـــئ من قال أن الطيب رزقه في مهب الريح ، ف لنا ربٌ كريم يفرج الكرب و يصـــبر النفس التي قدر لها حد قدرتها من الإبتلاء ، طوال عمري معروفٌ بالخير و ســـيرتي يروي عنها أصـــحاب المجالس ما يحبون ذِكره و تَذكُره ، ف لم اخفض يد مســـاعدة عن احد و في المشـــاكل أكون أول من يبادر ل حلها ، هكذا تربيت و عهدت أبي يفعل .

بعد عام من زواجي زارتنا الفرحة المُحَبَبَة "مَحَبَّة" ، أبعدت الحزن عن سكَّتي و أنارت مصابيح دنيتي ، رأيت فيها نفسي و ما كنت أأملُ لها من أشكال حياةٍ افضل لم أعتليها ، و لكن حين حسبتُها ؛ وجدت أن حياتي و حياة أجدادي هي المكتوب عليها مهما ماطَلتُ في التمني ، إلا إذا أراد الله لها غدًا أخر معفي مما كُتَبَ علينا .. حتى أتى عليَّ اليوم الذي لم أعلم مغزاه بعد ؛ أكان لتعاســـتي ام لفرحي ، وجدت أغنام الغنام ترمح في ارضـــي الصـــغيرة و تأكل و تحطم بأجســـامها عُشـــبي الذي تعبت الشـــهور في زرعه ، قادتني دمائي الحارة للإعتراض ، رغم ما رأيت في عيون من حولي من إرهابٍ و رهبة لنتيجة هذه الفعلة ، و لكن الساكت عن الحق شيطانٌ أخرس ، و هذا حقي و حق ابنتي ، و لن أتركه .

و ظهر الحق من السلطان الذي حكم بالعدل و انا أرتضيت و كنت أأمُل لغريمي في الشـكوَة نفس الإرتضـاء ؛ و لكني علمت أن الحياة تعطي شـخصً ل تأخذ من أخر ، ف أخذتُ من الغنام حقي بالعدل ، و انا واثق من أنه ســـيأخذ حقه بأبطَل الباطل ، و هذا ما حدث حين أعطاني من طعام دابته ، كنت أعلم انه فخ واضـح ظاهر للعيان ، و

لكن قل لن يصـــيبنا إلا ما كتب الله لنا ، و رد الله مَكره في أغنامه ، ف هو من يمكر للماكرين و بذكائهم يستهين ، و حين قررت زيارته لإذابة الجمود بيننا طردني و كأني جِئت لأقبض روحه ، و لكنني أعذره ، يكفي هذا عليَّ و عليه ؛ فليعينه الله على خســارته و يطيب جروح قلبه و يهديه .

***

صـلّى "حاصـد" الفجر جماعة في المسـجد الراضـخ علي حواف القرية ، من عاداته الأثيرة التي لا يُبطِلها تحســن أحوال ولا يُحدِثها ضـيقُ الأيام ، قبل بزوغ شـمس اليوم ؛ مشـي في طريقه لبيته معه أعزِ صُـــحبَتِه و أنفعهم "نافع" ، يتحدثان في أمور الدنيا و أحوالها المُتَقَلِبة ؛ حتى ظهر في ظُلمة الطريق ثلاث أنفار مُلثَّمين من الرجال الأشـــداء ، بدأوا فجأة بالهجوم عليهم و التنكيل بهم ، و لكن كان الله رؤوفٌ بحالهم ، حيث كانت كفتهم الغالبة و إستطاع حاصـد و نافع ببعض القوى و الكثير من الإيمان و الدهاء دفع كفوف أذى هؤلاء القوم عنهم ، حتي هربوا مُحطمين مخذولين .. وصـل حاصـد لبيته متوجعًا ف إستيقظت زوجته "رئيفة" صارخة من القلق و حين رأت حالته جلســت تندب و تولوِل مرارها الطافح على اليوم الذي أخذوا حقهم فيه ، و لكن حاصـــد هَدَأ من روعها و أخبرها أنه بخير حال هي بعض الكدمات البسيطة ليس إلا ؛ قد نصرهم الله و هم فئة قليلة و لكن مُتَحليان بالإيمان .. و على الجانب الأخر المُظلم ؛ رجع الرجال الخِصيَّان ل "الغنام" جارون ورائهم ذيول الهزيمة بجلابيب الحريم ، و حينها علم أن هناك شـــيء خاطئ ؛ ناهيك ان رجاله عفا عليهم الزمن ، و لن يستطع أن يعتمد عليهم مجددًا ؛ ف حين ينتشر الخبر سيكون أول المتهمين ف عليه ان يغتنم خطأه لصالحه لبعض الوقت حتي يقدر ف الوقت المناسب إستكمال أخذ حقه ، المُهدَر من الجميع .

ذهب "الغنام" لمنزل "حاصد" المُعدَم ليطمئن على حاله و إصلاح ما أفسده حين سبقه "حاصد" بالزيارة و أرجع تصرفه غير الكريم

بـأن الخبر أخرجـه عن طبيعتـه و جعلـه لا يَزِّن كلامـه أو يعقلـه ، سـامحه "حاصـد" رغم تأكده من أنه من دبرها له ، و لكن حمدًا لله جاءت سـليمة من عند الله .. بعد إتمام الواجب هرب "الغنام" و تأكد من رؤياه من أكثر من نفر حتي ينتشـر خبر زيارتـه ف يزحزح بعضًا من يقين الناس في إثبات فعلته عليه .. إزدهرت بشاشة حاصد مع إهتمام "رئيفة" به و وجود "محبَّة" ابنته أمامه تلعب و تلهو في أمان ، و مع وجود أول مُشـتَري لإحدى أغنامه مما يَسَـرَ عُسـرَهُم عليهم و فك من ضـيق الصـيف الحار المُتَصَـحِر ، و رجع لعمله المُعتاد "الزراعة" بأنواع أفضـل من المحاصـيل سـتكفل له حياة كريمة أنضـر مما سبق .. كانت اخباره تصـل للغنام الذي كان يأكل في نفسه و كلام زوجته "شجن" يزيد شره ولا يقصِر .

● رَئِيفَّة ●

أنتِ الغراب الذي ينعق بالخراب على كل ما تحل عليه قدماك .. كانـت تلك المقولـة الأثيرة التي تتردد على أذني حين تراني عمتي "حِنَّا" أم "حاصد" ، رغم أنها من ربتني بعد وفاة ابواي حين أتممت عامي التاسـع ، و لكنها تتحاكى و تُعَدِد بالمصـائب التي حدثت في أعوام صـباي ، من وباءٍ مُفاجئ قضـي علي الأم والأب ، علي فقرٍ اطبَق علي البلاد بعد اولى نقاط دم حيضي ، على وفاة والد "حاصد" بعد شهرين من خطبتنا ، و تدهور صحتها نفسها بعد زواجنا ، رغم ان العمر كان قد بلغ بها عتيًا ، و لكن بكل تأكيد انا السـبب .. حتى رحمها الله مني و توفتها المنيَّة ، و لو أني أعتقد أنها تكره زيارتي ل مدفنها ، فقد يتسـارع الدود في نخر رفاتها .. و رغم كل هذا ، تزوجني "حاصـد" و إرتضـى بي ، هل قد تُسـيطر الشـفقة على شـخص حتي ترميه الي هلاكه ؟ ، لا ، بالتأكيد قد احبني ، و تأكد يقيني بعد العِشرة الطويلة بيننا .

ضـــاق ب قلبي الخوف منذ ظهور أغنام الغنام في ارضـــنا ، و رد فعل حاصـــد على ما حدث أكد لي أن الأمور لن تمر مرور الكرام ، و لم أسعد برجوعه في يده غنمين بل كانوا كالخنجرين في قلبي ، لا أعلم لما أشعر بهزيمة ساحقة مختبئة بين طيَّات النصر المُتَوَهَم ، و قد حدث .. أن تتعود علي سوء حظك لمن المُريح المُطمئن ، ف أنت ترى الدنيا من منظور اسود إذا تَوَرا رماديًا تسعد و تقيم الأفراح ؛ و إذا لم يتغير ف لن تتفاجأ بشـــيء ، طبيعي ان نخاف و نلزم حدودنا مع ذوي القوة ولا نصدق انهم سوف يردوا لنا حقوقنا .. الطبيعي يا ســادة ان نهاب وجه الدنيا المُتفَتِح الزاهي الصـــادم ، لا أعرف لماذا أُوصَف بالسلبيَّة ، هل لأني أرى الدنيا من مُنحَنى صحيح . لا شك في اني شُؤم ، و لكني لا اقصد النَبْر و التحايل على الخراب ، أقصد فقط النزول من عالم الأحلام المُلغَم بالأوهام الكاذبة ؛ للحياة الحقيقية خاصتنا .

كنت انا و حاصد جالسين على الأرض نشرب الشاي المُر كالعلقم من أثار القلق ، لا نعرف ما هي الخطوة الأتية في مُخططات الغنام ، حتي نبح من الخارج صـــوت عويل عالي و من يطرق الباب و يصيح ان أرض نافع - صديقُ حاصد - تحترق ، هب حاصد من رقدته و دون أن يرتدي جلبابه هروَل للحاق بصـــاحبه قبل أن تأكله النيران ، و تركني في الدار الخوف ينهشـــني ، و يا ليته وحده ما نَهَشَني .

***

في ظل اللهوجَّة التي جرى بها "حاصـــد" ، هناك من دخل داره بتأني ، ببطء و ثقة ، دخله "سميح" الذي لم يعرف السماحة في يوم ، رجلٌ أبهق ، بياضـــه يعطي إحســاس خانق بالشــر و ســواده كله وضـــعه في قلبه الذي لم تزره الرحمة قط ، هبد القش الخفيف الذي يظنونه الفقراء بابًا ســـاترًا أمن ، دخل و في نظرته الرغبة ، إنقض عليها غير عابئٍ بصراخها و بكاء "محبة" الهزيل في الخلفية ، التي لم يخرجوا منها أبدًا .. بدأ يفض غشاء وهمي من الشرف الذي بدونه

يموتون ، ف هو ما يعيشــون عليه ، رغم تمنعها ، رغم دفاعها عن كل ما تملك بكل قوتها ، رغم ترجيها و توَسُــلها الرحمة ، لم تهتز شعرة الرأفة فيه ، ضربها ب عنف اسكن حركتها و عدمها ، غابت في غياهب مرعبة تأمرها بالرجوع للواقع ، تتحايل لإنقاذها لأخر نفس مُتبقي في حياتها ، الموت أهون ، و لكن هيهات أن ترضــخ الدنيا لأمر فقير .. و قبل أن يتم مراده كانت مجموعة متفرقة من أهل البلد تذيع الخبر و تنشــره ، أن ســميح يختلي ب رئيفة في دار حاصــد ، إغتاب المُغَيَبون من باقي أهل البلد في شــرف الإثنين و كأنهم غرباء عنهم و ينتظرون لحظة التشفي فيهم ، و طَمَسُ كل أثار خيرهم .

كان حاصد قد وصل لأرض "نافع" الذي لم يجد فيها قبسً من نور او حرارة ، نداءٌ كاذب فهم غرضــه حين إنبعثت لأذنيه أخر الانباء المُصدَقة .

ب ثقل الهموم إنهمدت الحركة و تقلصت الخطوات المديدة المسرعة ، و أصــبح يؤخر قدم و ينها الأخرى عن التقدم ، يريد أن يطير و يصــل لها ، و يريد أن تنشَــق الأرض و تبتعله ، يمشــي و العيون تخمش روحه بالنظرات ، من إنكســرت شــوكته و عطب فأســه ، وصل إلي دارٍ كان يحمل من الأمان مخزون ، و لكن اليوم حوائطه مُهدمة ، ســاكنين العراء ، عُرَاةٌ من العار ، دخل و كانت المســكينة تبدأ ب لملمة شتات نفسها و مسحت وجهها الدامي المخلوط بالدموع - التي لم تُجدي يومًا إلا في تهدئة الألم لحظات - ، نظر إلى يمينه و كأن بكاء "محبة" المستمر - الذي لم يخبو - لم يصل إلى مسامعه إلا الأن ، حملها و تحرك بها ناحية أمها التي كانت تســتجدي شــعور الأمان من أي مخلوق ، حين قربها منها شــدتها في لهفة و أغلقت عليها ضــلوعها و هي تبكي مرارًا ، كانت تنتظر رد فعله ، تنتظر أن يوبخها بأقســى الكلمات و الجُمَل ، يضــربها و يجعل منها ركام عظام ، يقتلها و يشفي غليله و يغسل عاره و يلحق ما تبقى من شرفه ، إنتظرت الكثير من عيناه المُتلألئة ب انهار الدمع ، حرك يداه لأعلي ؛ أغمضت عيناها منتظرة ما كانت تتوقعه و جهزت نفسها له

؛ وجدت نفسها في احضانه تسمع نفسه اللاهث ، قريبة من قلبه المُهتاج نبضه ، و هَدَأَت من نيرانها دموعه التي إنسابت ك سيول المطر منتظرة دعاء المكروب لله ، لإنهزام عبده و تأخُر فَرَجُّه .

● سَمِيح ●

انا أسمع ألاف الأصوات تتردد في عقلي ، خالَني أبي مجذوبًا مع تداعي لوني الأبهق ، و ألزمني ب مُلازمة الحكيم و تتبعه ؛ علَّه يشفيني ، و كان حظي أن الحكيم كان عم "سالم" ، كانت دماغه داهيَّة و أفكاره شيطانيَّة ، حين تمعنت في عمله و أصبحت قريبًا منه سَرَّ لي بحقيقة امره ، أنه لم يتعلم يومًا لا القراءة او الكتابة ، لا يعرف إلا التفريق بين الأعشاب و معظم تجميعاته العُشبية ما هي إلا خضرة مُختلطة ، لا منفع منها ولا ضرر ، قد تصدف و تريح ، و قد لا تجني حقها ، لكن المريض يحتاج الوهم و يحتاج من يطمئنه ، و لذلك وجد عمي "سالم" .. كان ايضًا يتعامل مع بعض الجهلاء علي أنه ساحر يُسَخِر الجن ، و كان هذا مصدر رزقه الأعَمّ ، و لكن في الخفاء .. ف شَبَبْتُ على يديه و نلت من دهائه و ذكائه ، حتى أصبحت يده اليُمنى ، و كاتم سره ، و نهلت من علمه ، و أصبح يفتخر بي في المجالس و يسند لي خفائف الأعمال ذات الرزق الشحيح ، فأردت رد الجميل ؛ أكرمتُ أستاذي بدفنه تحت أرضية بساط بيته ، بعدما قتلته بأحد السموم التي تعلمتها عن علمٍ حقيقي غير تلك الخرافات التي كان يهذي بها عمي "سالم" ، و حين يَسأل عليه العامَّة اقول لهم أنه إرتحل لإبنه الذي جلبه في السر من زوجته الحبشية الساكنة في جنوب البلاد الأقصى ، و انا هنا في خدمتكم بعد ما وكلني لأحل محله حتى يأتي ، هذا إن أتي .

ليس كل الشر الذي جنيته كان نابعًا من ذاتي و شخصي ، بالفعل هناك اصواتٌ كثيرة بداخل عقلي ، كلها تتحكم و كلها تتفنن في الشر

، تتحاور و تتشاجر و تشتكي باقي الاصوات ، حتى صوتي الحقيقي .. و بعد اعوام فاحت رائحة أعمالي و إهتاج عليَّ العوام ، و لحسن حظي مهما يمسكون ضدي سواء الهواء او حتي الأهوال ، أخرُج منها مثل الشعرة بالعجين ، لأني ملبوس من جني غادر يبغى الشر لبني البشر ، ف يخافون مني ، خصوصًا حين يسمعون صوتي قد تغير و ملامحي تبدلت و اعصابي نفرت ، كالأعراض التي تنتابُني من وقتٍ لأخر ، و اصبحت هذه حياتي البائسة أُقَلِب رزقي حينما يُطلَب مني الشر ، أخذين في الاعتبار تفانيَّ في كتماني للسر ، و وقوع الإتهام على الجني ، و من ذا الذي يُحاكم ما لا يمكن إمساكه او رؤيته .

كنت اجلس على المصطبة التي توزع المشروبات ، حين جاءني أحد رجال "الغنام" و همس لي بالطلب ، أعطاني التفاصيل مُثقَلة ب صُرَّة المال ، و بدون مشاعر او بغضاء ناحية "حاصد" ، لأني لم أتعامل معه مُسبقًا ، و بدون رغبة حقيقية في "رئيفة" و لكن لكل منا إير يريد تدفق ماءُه بين كل حينة و فينة ، ف أتممت العمل على أكمل وجه ، و جلست اليوم الذي يليه على مصطبتي اتجرع الأعشاب المُذهِبة للعقل التي أكتشفتُها مؤخرًا ، حين لمحت خيال شخص يشبه "حاصد" يتقدم ناحيتي بخطوات مُلتَهِبَّة أحرقت الحشيشة قبل إشعالها .

***

أمسك حاصد ب تلابيب "سميح" بيدٍ واحدة و رفعه عن مستوى الأرض ، و سدد له لكمة دام لها وجهه و كسر منخاره القذر لعلها تمنع تنفسه ، تجمع الخلق يحاولون التفرقة بينهم داعيين على حاصد المستقوي ب قوته على الضعيف ، و اخرين يرون أنه أقل حقوقه ليأثر من هذا الثعلب اللئيم ، و يرد عليهم الاخرون أن زوجته هي السبب و هي من تمادت معه بالعُهر و هو الغافل عن رعيته ، النساء هم سبب خراب الدنيا ، كل هذا الكلام كان يأكل ذهن حاصد و ردًا عليه كان يكيل المزيد من اللكمات و اللطمات على فك سميح الذي

كاد ان يموت و تكسر رقبته ، حتي جاء "نافع" ليخلص "سميح" من يدِ صديقه ، فرق الجمعَ بالصراخ فيهم أجمعين حتي إبتعدوا مجبرين ، و أخذوا سميح لبيت "حاصد" و كتفوا حركته حتي إستعاد - سميح - بعضًا من وعيه ؛ و فقد رشده .. بدأ الصراخ و العواء ، بأصواتٍ و لهجات مختلفة ، يُقلَبُ سيدة تستذل لخلاصها ، و رجل مُتَهوِر يستحلف لهم ، و عجوز عاقل يحاول التدبر و التنكير بفعلته للخلاص من مأزقه ، و طفلٌ يبكي و يبلل الأرض ب بوله ، و مجذوبٌ يضحك و يعبث بهم ، يثير حفيظة "حاصد" بذكرٍ دقيق ل عورات "رئيفة" التي تمتع بها ليلة أمس .. كان هذا المعروف عن سميح حين ينفعل ؛ يفقد عقله و هويته و لا يمكن تفريقهم او الثبات على ايٍ منهم .. حتي بدأ "حاصد" تهديده و إرهابه ب قنديلٍ مُشتعل بعدما سكب عليه بعض من السوائل مُسهلة الإشتعال ، و هنا ظهر صوت الرجل المجذوب العابث بدأ يستنفذ الباقي من رحمته و كأنه غير باقي على عمره ؛ و إستمر في إثارةِ جنونِ "حاصد" ، الذي بدأ يُقَرِب القنديل من الأرض ليُقِر ب سبب فعلته - الذي كان يتوقعه حاصد ولكنه لا يملك عليه دليل - و قبل أن يتهشم القنديل ؛ تبدلت الشخصية لتصرخ المرأة المأزومة على عمرها ، بأنها سوف تعترف ب كل شيء ، حكت في عُجالة إتفاقهم أجمعين مع رَجُل "الغنام" ، و لكنها طلبت منه الغفران و الامان ب عدم تفشي إعترافه للغنام حتي لا يقتله .. و قبل أن يُعدل حاصد من وضع القنديل في يديه ، كان رجال السلطان قد إقتحموا الدار من بابه ، و من ثم قبضوا على ثلاثتهم .

● نَافِع ●

كنتُ في صغري جنٌ مارد مطلوق السبيل ، شقيٌّ يحمل في جعبته الدمار ، قالت لي أمي قبل أن تموت أنها بذرة أبي الشيطانية قد

نطحت عقلانيتُها و ميزانها الحساس في التصرف ب حكمةٍ و تدبر ، كنت جلابًّ للمشاكل و دايَّة إنجاب القرف ، و لم أنفع إلا في شقاء أمي ، و أخي .

كان أبي لصٌّ عتيد له باعٌ و صيت لا يمكن إنكاره ، و لكن في أخر أيامه هداه الله للتوبة ، و كالعالم بميعاده توفى في غضون أسابيع .. تولت أمرنا أمي ، و أرهقناها حتى أكل المرض صدرها ربوًّا ، و تركتني في عُهدة أخي ، الذي كان أحن علىَّ من جفناي في سكينة الوَسَن .. قبل أن أيُتَّم كان يعاملُني بجفاءٍ ؛ نظرًا لأفعالي البلهاء اليومية ، و لكن بعدما أصبحنا الباقين لبعض ؛ كان دائما ما يتحمل أخطائي ، ينسبها لنفسه و يتحمل الجزاء ، و إن لم يستطع يحاول مُرَضاة أصحاب الحق حتى يتبخَر ريقه من التحايل ، كان ظهرًا و سندًا ، يُعَقِلُني وحدنا ب كلام فيه حكمة أمي ، و لكن لم ترضخ بذرة أبي ، حتي اتيت اشنع تصرفاتي حين لامست إحدى فتيات الجيرَّة ، و أمسكنا أبوها بالجُرمِ المشهود و طاخ و ماغ ؛ و كانوا سيسلمونني لرجال السُلطان ؛ لولا تدخله .. يومها صفعني ف ترنحت كل أفكاري الشيطانية ، إنعدلتْ و أمَنَتْ حين وجدته يبكي ، لأول مرة أرى دموعه بيّنة - تلك التي لم تسقط في اي من موت أبي أو امي تسقط عليَّ انا اليوم - ربما لأنه شعر قلة حيلته في تحمل مسؤوليتي التي رُمَت على عاتقه .. جلست أؤازره و طيبت بخاطره ؛ و وعدته انني سأرفع رأسه و لن يتكرر مني فعلًا لا يرضاه بعد هذا الحين .. ظللت أعوامًا على وعدي له ، كنا سندًا لبعضنا نحمي أنفسنا و نتحامى في بعضنا ، كانت أخوة أقرب للصداقة ، التي علمني أنها كنزٌ لا يفنى ولا تزرع فيها الخير إلا و أنت حاصده ، و في يومٍ مُمطِر غائم و على سريره المُتهالك أسلم روحه لبارئها و لم يوصيني إلا علىَّ نفسي ، أن أحرص عليها ؛ منها ، و عاهدني ألا أروّي يومًا بذرة أبي و إن وجدت تُربَتِها هي السائدة السائغة ، إحتضنني بعدما أدى رسالته ، و رحل عني في سلامٍ مؤلِم .

من حاول أن يَملَئُ فراغ أخي - الذي لا يُملَئ فراغه - كان "حاصد" ، و كان نِعْمَ الأخ و الصديق ، أخذني في كنفه و علمني

أصول الزراعة حتى سطعتْ أرضي و حصدتُ تعبي رزقًا وفيرًا ، ببركة رحمة موتاي و مساندة "حاصد" ، و إعتبرت أهله أهلي ، وقف بجانبي في خِطبَتي ف هو صكٌّ أمان لمن يأتي من طرفه ، حتي دامت دوامات الحياة به في يومٍ اغبر صبغ حياته بالقتامة ، و بعدها إصتدمنا بالثلاثة المُلثَّمين ، حتي سمعت ما حدث لرئيفة ، فاض على بذرةُ أبي فيضان ، و لكني لم أعرف كيف أساعده ، و متى تهدأ صدمته لنفكر سويًّا .. حتي تَنَبَأت على مسامعي مُشاجرته مع سميح ، حتي لحقت ثورة تهوره قبل أن يقتله و هو غير داري ب حاله ، هدأته و قررنا إستجواب ذلك المجذوب الملعون ، الذي أباح ب سره اخيرًا مع إنهيار باب الدار من رجال السلطان ، بالتأكيد وصل رجال الغنام لعَسَس السلطان خوفًا من أن يعترف عليه سميح و يُدينُّه .. و أُخِذنا على مرأى من الجميع ، و العيون و كأنها شَبِقَة لرؤيتنا في كربٍ ، حتي يتسنى لهم التسلّي ب سيرتنا لعدة أيامٍ أُخَر .

قبعنا أمام عرش السلطان في رهبة ، نظر لنا ؛ ينتظرنا لنتكلم او ندافع عن أنفسنا ، و تكلم "حاصد" ببلاغة يُحسد عليها ، قصَّ على السلطان ما حدث لزوجته ب تريث ، و ما سبقه من أفعال الغنام معه ، و طلب من السلطان مواجهته بالغنام ، و إتهامه ب كل أقواله .. لبَّى السلطان طلبه ، و إستدعى الغنام ليواجهنا .. و إنقلبت كل الموازين .

***

بعد اذان العصر ، إجتمع الجميع في بهو قصر السلطان ، الغنام في كفَّة ، و حاصد و معه نافع في كفَّة أخرى ، و سميح يتنازع مع نفوسه في المنتصف ، شاهدٌ مطلوب إعترافه و ذِكر من حرضه على ما إقترفه من ذنب ، ألقي "حاصد" جميع الإتهامات الموجهة للغنام تباعًا ، و حاول الغنام تبرِئ نفسه بأنه لا دليل عليه ، هو كان يريد الخير لحاصد و كسر جفاء الموقف الذي حدق بينهم ، اما عن أغنامه المُسمَمة ف بالتأكيد كانت مكيدة من أحد منافسيه اللدودين ، أما بالنسبة للإتفاق مع ثلاثة مُستأجَرين لقتال حاصد و قتله ، نفى

الفعل و طلب الإستدلال على ملامحهم و الإتيان بهم إذ أمكن ، و ان يواجههم إذا كان حرضـــهم ام لا ؛ و ل يَدلوا هم بالحقيقة ، و لكن لم يسـتطع حاصـد تذكر أي علامة مُمَيزة في تفاصـيلهم أو أجسـامهم تمكنهم من الوصـــول لهم ، فأكمل الغنام أنهم قد يكونوا مُجرد قُطاع طرق يتصـيدون الناس أوقات الصـلاة و الغفلة حين الظلمة ، و أكد انه كان أول الزائرين المُطمَئنين على أخيه "حاصـــد" بعد الواقعة ، الذي ظلمتـه أغنـامـه و أعـاد لـه حقـه ؛ و لكنـه لم يتوقع ان يظلمـه هو بهذه الظنون ، و لكنه مُسـامِحُه حبًّ في الله ... لم يبقى سـوا شـهادة سـميح ، الشـيء الوحيد المؤكد لديهم ، حين سـأله السـلطان إذا كان الغنام هو من حرضـــه على فعلته الشـنعاء ، قال بصـوت يحمل في نبراتـه الجحيم ذاتـه ، أنـه لا ، و إن المتحدث الأن هو "المزَّات بن غابِر " الجني ، الساكن في ضلوع سميح ، و هو من حرضه غصبًا للنَيل ب "رئيفة" التي أثارت شـــهوته الشـــاذة ، و إن لا علاقة ل "الغنام" بهذا الأمر ، و لن يرتضـي ان يُنسـب له أفضـال شـروره الشـخصـية .. صـدح الغنام بظهور الحق و شـهادة شـاهدٌ من أهلِه ، بُطِلَت الحُجَّة ببطلان السبب ، كَسَت القسوة وجه حاصد و كاد ان يقتلع جذور رقبة سـميح من جسـده ، و لكن الحَرَس منعوه و بدأوا ضربه بالعصيان تنكيلًا على تمرده في حضرة السلطان ، حتي ردع حركتهم السلطان بأمره .. طلب من "الغنام" الرجوع لداره بسلام ، و إيداع سـميح إلى حكيم و راقي شـرعي لمعرفة ما به من عبثٍ و خبث ، و ان لا يخرج للعامة قبل إسـتبيان العلَّة فيه ، و أن يحبس نافع شهرًا تأديبًا على مشاركته في إختطاف "سميح" عنوَة دون أمر أعلى ، و أن يسـجن "حاصـد" سـتة أشـهر على إختطاف سـميح و إتهامـه الزور دون دليل مُثبَت ل "الغنـام" ، نَدَرَت دمعـة من عين "حاصـــد" كان مَنبَتُها الظلم الســاكن في ذرات تنفســه ، و الحرس أخذينه لسـجنه و يغلقون في وجهه ابواب الرحمة ، و يفتحون أذرُع الحريـة لظـالِمُـه و يصـــنعوا لـه ضـــريحً من كفرٍ ، و يُنَغِمون لـه المديح ... و قبل أن يخرج الغنام وقف أمام "حاصد" مُتأثِرًا قائلًا :

- إن في قلبي غَصَّة حزن منك و عليك يا أخي "حاصد" ، إن بعض الظن إثم يا أخي ، ف تبيَّن و تحرَّى قبل إن تصيب بَرِئً بجاهلةٍ - على الملئ و أمام جلالة السلطان - فتندم .. سامحك الله أضعت ما بيننا من ؛ "محبة" .

رَدَد الكلمة الأخيرة ب بسمةِ غدر ، لم يُفهَم مغزاها إلا بعد أسبوعين .

● السُلطان ●

قال الله عز و جل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] ، صدق الله العظيم .

حين تملكت الحكم كنت صغيرًا ، يافع فَرِحَ ب زهو البشر من حوله به .. شموخ أبي كان مُلهبًا لطموحاتي لأكون يومًا نسخة مصغرة منه ، حكمته و تأنيه ، و إستمساكه ب دينه و إحتكامه للمنطق و إعماله لعقله .. من ثم تتلمذت علي يد الشيخ "أحمد بن النيروزي" ذو الأسفار و الأذكار ، و العلم المُعتلي المعجز ب علاء و إعجاز من كتبه ، القرآن الكريم ، ربيع القلوب .. نهلت منه و فقهت على يديه و عجزت من إعجاز ما علمني منه ، حتى إرتضاني الله حاكم و سلطان ، يحكم بين الناس بمشيئته .. قال لي أبي : وضعت القوانين ل كسرها ، للنظر إليها و فهم ما ترمز له ، و تختلف من بالٍ لأخر في شدتها و رأفتها . و لكنه علمني معني عجيب إسمه "روح القانون" ، أثار إنتباهي أنه لا يُحَمِل على العقل و كفى ، بل للقلب و الإحساس هنا دليل يدلو بحقه .. ف كثيرًا ما توجد أمور لو حُسِبَت بالعقل ل وقفنا أمامها عاجزين ، أو نأخذ منها رد فعل خاطئ لضيق أُفُقِنا ، و لكن حين نشعر و نرى الموقف من

بُعدِ أبعد و أشمل يختلف حُكمنا علي الأمور تمامًا .. و هذا ما أود أن أعلمه لإبني ليحكم من بعدي بالعدل ؛ حتي لا يختل الميزان يومًا .

في حالة "حاصد" تلك أنا كنت أشعر ب صِدْقِه ، أشعر ب حاجته للصراخ و طلب رد حقه و شرفه ، و خِلتُ اني أرى الجاني في ثوب الملائكة ، يتهدل منه الرحمة الظالمة و يسخر مني ، أعلم عن الإثنين معلومات بحد السواء ، أعلم عن ماضيهم و من حاضرهم ما يؤكد ظنون قلبي ، و يحيي روح القانون فيَّ ، و لكن ليس من العدل أن أحكم على من ليس عليه دليل إثبات ، و إذا كَذَبَتْ ظنوني و كنت ظالمه ؛ ف من سيغفر لي فعلٌ من أهوائي بلا دلائل ؟! ، كيف أكشِف من ستره الله لسبب لا علم لي به ؟!! ، و كيف ازيل العناء عن من أصدقه و هو بالنسبة للجميع مُذنِب و لو حركه الظلم ، تخيرت من الحكم ما إعتقدت أن الله ألهمني به ، أو اني كنت مُسيَّر على تلاوته .. لا أعلم .

بعد أسبوعين بالكمال من هذه الجلسة ، طلب رئيس العَسَس مُقابلتي لأمرٍ هام ، "محبَّة" ابنة "حاصد" المسجون - المكلوم - قد خُطفَت من أمها ، ولا احد يعرف لها طريق رغم أنهم كانوا يراقبون دُور الطرفين ، و إقتفوا أثرها في البلاد و لم يعثروا لها على طرف .

● رَئِيفَّة ●

تداعت الدنيا من تحت يدي ، و صدقت خالتي ، إنني الفقر في ذاته ، و سوء الحظ يلازمني ك ظلي ، فقدت ما يسترني من شرف ، و سُجن زوجي بسببي و بسبب ضعفي ، لأني لم أستطع حماية نفسي ، جلست أنعق حظي ، ألطم وجهي و أشق لباسي ، ما الذي يحدث لي و لما ؟! .. مرت علي هذا الحال ايام ثقال ، سمح لي السلطان بزيارة "حاصد" الذي لم يقبل رؤيتي ، لا يريد ان يظهر لي ضعفه و قلة

حيلته ، ياليته قبل ، ف أنا أحتاجه و لو كان أضـــعف ما خلق الله ، أحتاج إحتواءه ، و كلمة تصـــبرني علي حالي و ســوف أردها له أضعاف مضاعفة ، و لكني لا أستطيع تمالك نفسي وحدي .

في يوم لم تطلع ل سماءه شمس ، خدرني التعب و نمت ، إستيقظت على صوت دقّ الباب ، من سوف يزورني في تلك الساعة المتأخرة ، كانت "محبّة" نائمة علي الأرضية بأجزاء من جسدها مكشوفة ، دثرتها بالغطاء جيدًا و مازال الباب على دقاته ، فتحت و وجدت سيدة تخفي ملامحها ، تتكلم بسرعة و بلغة غير مفهومة الملامح ، و فجأة دفعتني داخل الدار بيد مطرقة ، و قبل أن أصرخ كتمت أنفاسي ب منديل خنقتني رائحته ، سـمعت صـوت النافذة و هي تتهشـم ، و تلك المرأة تحدث شـخصًـا ورائي بلهوجة و انا قدمي تعاف السـقوط تحاول التخلص من تحكمها فيَّ ، و وعيٍّ يتسرب منه الوعي ، رأيت ظلًا يتحرك من خلفي ناحية "محبة" و الصـغيرة تسـتيقظ من نومها ببكاء الخضّــة و الفزع .. و تكتلت الظلال أمام عيني و حل السـواد القاتم .

دماغى ينهشها الوجع ، و النور يقتحم عيناي و كأنه يحرقها ب بث الحقيقة فيها ، تأملت ما حولي و انا أدعي رحمة ربي من الكوابيس التي تنتابُني ، ف الأخير كان ســيقتلني ، و لكني علمت أنه لم يكن كابوس ، النافذة مهشـــمة ، الباب مفتوح ، لا وجود ل "محبة" ، هرولت خارج البيت أصـرخ و أنادي عليها ، كنت اطرق كل ابواب البيوت أســـألهم عنها ، و ادخلها لأبحث عن أثرها ، لا وجود لها ، فصٌ من ملحٍ و ذاب ، تجمع الناس يحاولون مواسـاتي و انا أنثر علي رأسي التراب .. راحت ما بقت لي ، راحت محبة و لن تعُد .

● الغنَّام ●

وصلت "شِمَاشَنجا" الحبشية - التي عهدت لها الأمر - و رَجُلها ، أكدت أن العملية تمت على خير ، و أن الأمانة مخبئة في مكانها كما إتفقنا .. نقدتها ما بقى لها من مال ، و همت بالرحيل .. يبدوا ان نساء اليوم أصبحوا أصلح من الرجال المائعين المتراخين الخِصيان ، و فكرة انها سيدة تُبعِدُها عن الشُبُهات و تَعدِم القلق من ناحيتها .. و خِبرَتها في عملها تسبق خطوتها ، ب سمعةٍ كالعملة الذهب .. اتممنا الصعب و باقي البسيط السهل .. و هذا سأعهده ل "شجن" لتفكر فيه هي لتهدأ به قلبها .

لِما تعيش بنت "حاصد" حياة راغدة هنية طويلة ، و يموت أبني السامي الزاهي ؟! .. هل أبنتك يا حاصد أفضل من ابني ، هل أنت نفسك يا "حاصد" خيرٌ مني لتهنأ بما لم أملكه .. هذا لن يحدث يا عزيزي .. لن يحدث .

تأكدت من وصول الخبر له في سجنه المشدد ، ليشعر بعجزه ، لتنكسر نفسه أضعافًا على كسورها ، ل تلتهم النار جلده ثم تسوي عظمه ثم تتسلى ببطء على روحه .. دعنا نستمتع بهذا الخبر لبضعة ايام ، حتي يتلقى خبره الأخير لدي ، و بهذا يعود "الغنام" لمكانه الطبيعي عند البشر ، دائما فوقهم يا "حاصد" .

● حَاصِد ●

تعرفين يا "محبَّة" ؟ ، إن هذا القدر غريب بحق ، يُعطينا بكفة و ينهَب منا بأخريات ، قد يزيد في ما لا نحتاجه و ينهى وجود ما نأمُله منه ، أم نحن من نتعلق بما ليس لنا .. الغريب انني لم اتعلق إلا بما لديَّ و حمدت الله عليه .. إين ذهبت يا محبة ؟ ، لما توجعين قلبي المفطور بما لا يتحمل ولا يتخيل حدوثه ! ، ليتني - على رأي امك - ما أخذت حقي ، فليذهب الرزق و كنتِ بقيتي أنتِ .. لا تقلقِ سأعثر

عليكِ و أنقب عنك و لو كنتِ على كوكب أخر ، لن أتركك يا فتاتي ، و لن أترك من أخذك مني ، أعدكِ وعد الحيّ و بقاءه حق ، أني سـأقتله لكي ، و أُشـفي و أُكفي الخلق من حقده ، و لو حُكِم عليَّ بالسـجن ما بقى لي من عمر ، ف انتِ هنا معي ، و إذا حكم عليَّ بالموت ف الاهم أن تعيشِ انتِ بخير .. إنتظرِ لا تطيرين إبقى معي لبعضٍ من الوقت ارجوكِ .. و لكنها أبت البقاء و طارت ، إمتنعتُ عن الطعام و الشـراب إلا القليل السـاند ؛ لكي أضـع الباقي لها لأستجديها أن تأتي كل يوم ، الحمامة التي جاءت ل تصبر قلبي من خوفي على "محبة" ؛ عوضٌ من ربي لأتحمل غليان دمي الذي كاد يتبخر ، فيها شـبهٌ جميل منها ، في برائتها ، التي لم تَحْمِها من غدر الشيطان .

سـأخرج يا غنام ، و سـألتهمك حيًّا ، سـأعود ب ابنتي مرفوعين الرأس ب مشـيئة الله ، و صـبري الأيوبي الذي تسـتهزئ به الأن سوف يُقلَب عليك بطش جالوت .

● شَجَن ●

في عتمة الليل ، تحركت مع حارسـي إلي كهف المَنجم ؛ الذي يستودع فيه الغنام بعضٌ من املاكه في سرية ، بعيدًا عن العيون .. كانت الصـغيرة مفترشـة الأرض ب أثار دموع دامٍ من إحمرار عيونها ، لم تمس الطعام .. خائفة في ركن ضيق منزو من الفئران و الحشـرات الطائرة .. طلبت من الحارس تَركي و إياها وحدنا .. و خبئت سكيني جيدًا بين ملابسي ، مهما كان لا يجب أن يشعر مخلوق ب أنه على أعتاب الذبح ، حتى الحيوان .

جلست بجانبها ، مسحتْ دموعها و حاولتْ الإقتراب مني ، تبحث فيَّ عن الأمان ، أو عن امها .. همستُ لها في اذنها ب صوت رقيق

ب أن لا تخاف ، و كأنها كانت منتظرة ذلك ؛ حتى إحتضـــنتني و بدأت تنهمر منها الدموع بلا كفاف او جفاف ، يا صـــغيرتي لا تُصَـــعِبي الأمور عليَّ ، ذكرتِني ب "مالك" الذي لم يُمَلَك الأيام ل يَمْلِك ما سـواها .. شـيءٌ فيها حرك غريزة الأم فيَّ .. و لكنه لم يكن ليردعني عن المســطور لي فعله .. نامت في أمانٍ لحظات ، و حين رَتَبَ تَنَفُســها وضــعتها على الأرض ، و أخرجت ســكيني من بين طيات ملابسـي ، و شـرعت أن أهِم بها و لكن يدي تمنعني ، قلبي لا يتحمل نظرة البراءة التي ذكرتني ب "مالك" ؛ و غلّي علـه هو ما يقوي قلبًا لا يملك ما يهزه من بعد فقدانه .. جلســت ألملم خيبتي في قلبي الرئيف ، ألعن طيبتي الحمقاء ، حتي وجدت حلًا يرضـيني ، و يحقق ما لم اســتطع فعله ؛ ولا يلوِث يداي ب دم القاصِــرة العذراء طلبًا للخُلدِ .

***

وقف الصياد صباحًا على طمي البحيرة الساحبة ، يتنكر للأسماك حتي يتصيد رزقه من بين ثنايا المياه ، نزل و بدأ ب عيناه يقتفي أثر السمك ، حتى وجد على حواف البحيرة جسم ، ضخم بعض الشـيء ، به سـوادٌ كالشـعر ، و ألوان زاهية كالملبس ، و يشـبه الإنسـان في تجسيده ، غطس مسرعًا ليقترب منه ، و كانت البينة .

أخرج بعض الرجال الجُســمان بعد نداء الصــياد الصــارخ على العامة ، كانت فتاة يقترب عمرها من الرابعة إلى الخامســة ، وجهها أكلته ملوحة البُحيرة و أضــحت بلا ملامح ، لا أحد يعلم من هي ولا من أين أتت .

حين إنتشــر الأمر في عوام البلاد ، ســقط قلب رئيفة في قدميها و كاد يخترق الأرض ، ذهبت و الخُطا تتشـبث بالبُعد و تتعلق ب قشـة تكذيب الظنون ، وصـلت لمكان إلتمام الناس ، أفسـحتهم عن طريقها بلا كلمة او تعبير ، و نظرت النظرة و أغمضــت عينها بجفونها و يديها، و صرخت بكل ما يعتمر قلبها من قسى ، هي نفس الملابس ،

هي عقدة الشـــعر ، نفس الطول و نفس الجســـم .. هي "محبة" رغم تكذيب قلبها الخبر و محاولة أنكاره ، هي "محبة" بلا شك .

حين تأكدت الشـــكوك ، إختلفت مشـــاعر الناس ، لا يمكن أن ترى فتاتًا في عمر الزهور ك هذه في تلك الحالة ؛ ولا يُنحَر قلبك من كمدٍ ، أمرٌ مُؤلِم .. تلقى "حاصـــد" الخبر في محبســـه و لم ينبس ، لم يدمع أو يتأثر ، كسـت الصـدمة ملامحه التي ثبتت عليها من بعدها ، و عاف الطعام و تمنع ، كما إمتنعت عن زيارته الحمامة "محبة" و كأنها ايضًـا غرقت و إختفت ملامحها ؛ و تركته يتسـلق جبال الهم و الغم بمفرده .. حتي فُتِح عليه الباب يومًا وجدوه قد فارق الحياة ، هل هو الحزن أخِذ الأرواح ؛ الذي لا يعيدها أبدًا ـ كما كانت ـ ؟ ، أم قد إنتحر ب خنق نفســـه بيد همومه التي لم تفترج ؟ ، هل بفعل فاعل أراد إضفاء أخر لمسات لوحته البشعة و خلص روحًا لم تكن لتحتمل كل هذا الظلم مع الخذلان و الفقد ؟ .. لا أحد يعلم .

توارى عقل رئيفة وراء سُحب الإغتمام ، أغلقتْ الدار على نفسـها ، تُكلم الجدران التي يوم بَنوها وعدتهم بالحماية و الأمان و لم تجدي إلا في فطر قلوبهم .. دُمية "محبة" الصـغيرة التي البسـتها ملابسـها الفضـفاضـة ، عكس ضـيق الدنيا على أنفاسـها ، تكلمها و تهتم بها و توعدها ب غدًا أفضـــل ، ف لن تقف الدنيا علي وعدٍ كاذب تُلقيه من نفســـها للســـراب ، ليجتمع مع باقي وعود الحياة الخادعة .. أما "حاصـد" ، ف وضـعت ملابسـه على فزاعة الغربان ، رسـمت له وجهًا مُقاربًا له و عاشـــت في كنفه و طاعته .. أشـــعلت النيران في الغنم المُتبقي الذي كان ـ هو و أخيه ـ سـبب الخراب الذي لم يتوقف مُتهيئًـا لهم في صـــورة الرزق .. فقدت عقلهـا في زخم دنيتهـا ، يسمعونها الجيران تصرخ ليلًا ، تعوي و تنادي الموتى ، حتى خافوا على أنفســهم و أطفالهم منها ، و قرروا وضــعها في غرفةٍ مهجورة بعيدة عن العِمران لتفعل ما يحلو لها من جنونٍ دون إزعاجهم ، و ظلت عائشة في الوهم ، الذي كثيرًا ما تنبُت منه الراحة .

● مَلَك ●

احيانًا نخسر أشياءً ل نكسب أخرى أهم .. و احيانًا تتيح الحياة للبعض فرصة تغيير شكل حياتهم و تبديل بعض تفاصيلها ، و هؤلاء هم المحظوظون يا "ملك" ، و أنتِ منهم .. كانت هذه كلمات عمتي "شَجَن" الاخيرة قبل أن تتوفى منذ عامين بمرضٍ خبيث ؛ و تتركني أتذوق مرار اليُتم لثاني مرة ، بعد أولى لم أشعر بها ب تلك القوة .

حين وعيتُ على الدنيا وجدت ستي "عواطف" تحاوطني ب جناحيها ، إهتمت بي و حافظت عليَّ ، و تعلمت منها الحياة و شربت سنين عمرها الطويلة في الأيامِ التي عهدتها فيها .. و حين إستوعبت نفسي و ما حولي سألتها يومًا من أكون و من أين اتيت ؟ ، هناك رؤى و ذكرى في عقلي تختلط على ما وجدت نفسي عليه ، أخبرتني اني يتيمة ، غرق أبواي على متن سفينة و تركاني ل جدتي الحقيقية و كانت قريبة ل عمتي "شجن" من بعيد ، ف حين توفت جدتي - لعامل السن - جلبتني عمتي "شجن" لأعيش معهم هنا ، و أخبرتني أنها من أسمتني "ملك" ب وحيٍّ من إسم ابنها "مالك" الذي مات صغيرًا - فاليرحمه الله و يرحم أبواي - .

كانت عمتي "شجن" جميلة ، ناعمة و طيبة القلب لم أرَ منها يومًا إلا الخير ، و حين طمثت ؛ طلبت ستي "عواطف" أن أبدأ في العمل معها ، رفضت عمتي "شجن" و نهرتها قائلة : "ملك" لها نفس مُعاملتي يا عواطف ، و لن تكون يومًا جارية من جواريكِ" .... و أصبحت ذراع ستي "عواطف" اليُمنى ، أمشي بالخيلاء ، أتمختر ، و أأمُر و أطاع .. حتى أتى اليوم الموعود .

كنت جالسة على البحيرة في وقت الفجر أشاهد الشروق من منبته في أخر الدنيا .. حتى شعرت بمن يتحرك ورائي و كان شابًا يافعًا ، مغطى الوجه ، إستأذن في الجلوس و سمحت له ، لا أخاف من أحدٍ

ولا أحد يمكنه أن يقرب لي ف أنا في حماية الست "عواطف" بنفسها ، ف لم يبادرني القلق - بدأ يتكلم في أمور شتى و سألني عن سبب وجودي وحدي هنا ، سر جمالي ، و سأل عن أصلي ، أسئلة كثيرة لا تفيد و لكني جاوبت ل كسر الملل ، ف رغم زخم البشر من حولي إلا أني كنت وحيدة ، يسرح بي خيالي و يرمح في رؤى غريبة لا أعلم من أين تأتيني ، جاوبته و انا في عالم أخر ، حتي تكررت زيارته بعد أن عرف مني - في لحظة سهو و سرح - أني كثيرة التردد على المكان في ذات الوقت ، دائمًا ما يسأل و أُجيب ، و لم يحكي لي مرة عن نفسه ، حتى لم أعرف إسمه او شكله ، ربما يكون محروقًا و يخاف ان يرعبني منظره ، أو هاربًا ك حال معظم هذه الأنحاء من البلاد .. حتي إنقطعت زيارته لأسبوعين ، لم أنقطع فيهم مرة عن الإتيان في المكان في ذات الميعاد ، هل سأمني و مَلَّنِي ؟ ، هل لهذه الدرجة انا سيئة المعشر و مضجرة ؟! .. هل سأرجع للوحدة مجددًا ؟ .. في عصر ذلك اليوم سمعت من دارنا أصوات الاحصنة تدك الأرض و حشود محشودة من الرجال و من يطرق بابنا و يسأل عني بالإسم "ملك" .. السلطان يريدني ؟!! ، حاولت ستي "عواطف" أن تفهم ما يجري او ما تهببت و فعلت ، و لكن لا فائدة ، حتي خرجتُ من مخبأي قبل أن يهموا بالتفتيش عني ؛ حتى لا تسجن ستي "عواطف" مما داخل الدار من مصائب سوداء .. رضخت أمام السلطان الذي تملك السلطة منذ خمس أعوام بعد وفاة والده العادل ذي السيرة العطرة الخالدة في اذهان الناس .. شعرت بنظراته تتفحصني تتأكد من وجودي و مِن أني أنا ، نزل من عرشه على سلمه العظيم و وقف أمامي لا أعرف على ماذا ينوي ، حتي سمعت الصوت ، ذكرني بهواء البحيرة ، ب لون الشروق و دِفئ شمسه ، و بهمس الطيور و هي تُسَبِح الله في تجلي نهاره ، إنه هو مُغطى الوجه السائل غير المُجيب ، إنه هو السلطان .

شرح لي ما موجزه أن والده علمه أن يتبع صوت شعبه ، هم من سوف يُسِروا له بأنفسهم إذا كانوا ينعمون ب عدله و في أمنه ، أم يلعنونه في السر و العلن ، كان يتنكر كالعامة و يمشي في الشوارع

بلا حرس ؛ ليسمع الناس و ما ينقصهم و ما يحتاجون ، حتي رأني و نسى من الناس من هم سواي ، على حد قوله أسره جمالي و بساطتي و برائتي ، سمع مني و عني من خلالي ؛ و لم اتنكر من نفسي و لم أُجَمِل أو أغفل عيوبي ، رأى فيَّ ما حلم به ب شأن زوجته و شريكته في حياته ، و طلب يدي و أعطاني كل وقتي للإستخارة و التفكير ، و قبل أن تنتهي مُهلة الثواني كنت قد وافقت بلا تردد .. و ب كل إرتياح .

تزوجنا و ظللنا ربنا ب نِعَمُه و اغرقنا من فضله ، كان نِعم الروح التي تجالسني و تؤنس وحدتي ، و حاولت ب كل قدرتي أن أكون نِعم الزوجة ل نِعم الرجل ، ف زوجي هو السلطان الهُمام علي رأي عمتي "شجن" التي باركت زواجي و نصيبي لأني ابنة حلال مصفي ، رغم الحزن الذي إعتمر قلبها بعد موت زوجها ب مرض السُل الذي عذبه حتى نخر نخاع عظامه و فَتْفَتَها .

لم يمر العام إلا و كان بيننا "حسام الدين" الأمير الصغير ، الذي جاء ليُضيء به الله وجهنا من الفرحة و يصعد بنا أعلى درجات السعادة .

كنا مسافرين ل حضور زفاف أسطوري لأحد ملوك البلاد القريبة ، و من فتحة الهودَج اشار لي زوجي على دارٍ متهالك مردوم بالتراب ، تخرج منه مرأة مبعثرة الشعر المغزو بالأبيض ، ب ملابس بالية مقطعة ، و تستند علي فزاعة غربان و كأنها تحتضنها ، و حكى لي قصتها بإيجاز ، سيدة مسكينة إسمها "رئيفة" فقدت عقلها و إتزانها ؛ بعدما تم إغتصابها و سُجِنَ زوجها ظلمًا و إختُطِفَت إبنتها التي وجدتها قد غرقت في البحيرة و مات زوجها في حبسه ، أصبحت تنادي كل ليلة للسماء بأسمائهم ، "محبَّة" و "حاصد" .. أشعر و كأني قد سمعت تلك الأسامي من قبل في تخبط الرؤى التي تصيبُني ، و قبل أن أُغير الموضوع ، أعتقد أني لمحت تلك السيدة تُشاوِر لي من بعيد مُبتسمة ، و كأنها تراني او تعرفني .

◇ بِئْر ◇

١

● الشيخ ●
٧٣ هـ

توضـأت ، و قطرات البلل أعطتني نشـوة أن روحي مغسـولة من كل الذنوب و الخطايا .. قرأت أية الكرسـي المُحصِّـنة ، و سـبّحتُ على يداي ثلاثة و ثلاثين مرة ب الحمد و الشكر على نِعَمٍ لا تُعد ولا تُحصـى ، و التكبير لمن علمني دينه من وسـعٍ ؛ حتى مَلَكتُ الدنيا و الأخرة .. تمشيت الخطوات القليلة التي تفصـلنَي عن الجمع المنتظر لي ، في حيِّ سـيدي - خليل الله - الذي قَرَبَه الله له ؛ من قُربِهِ مِنا و

أحياه في قلوبنا ، "بِشـرٌ بن عبد الحي" ، شـيخي و أسـتاذي الذي علمني في الحياة درايتي ؛ و وسـع مدارك عقلي الذي فرقني به الله عن سالِف مخلوقاته ؛ ناقِصَته .

كان المُتفَق عليه أن نجتمع بعد صـلاة العِشـاء للجلوس في رحبة الكون ، نتأمل خلقه ، نرهَب جبروته ، لا نسـأله عدله بل نطمع في رحمته و نتعلق ب غفرانه ، نزهد ، نتعفف و نعترف ، نتطهر و نبكي ب دموع تغسـلنا - بعد التوبة - بالماء البارد و الثلج .. نسـمع تماوُّج البحر المُتَماوِج ، نرى السـماء أقرب من اي وقت ، نتطلع ل نول الرضا و الإنغماس في الإيمان المُنَعِم لأصحابه .. أتَصَدَق بالعلمِ الذي لم أملكه ، إلا بإذن الله ، ولا يجوز كتمه ، ليكون من بعدي جاري ؛ ولا يفنى بفنائي .. أتشبع ب ريح الذِكر و صـوت البحر و رائحة اليود الأزرق تتغلغل لأنفاسي تُصفي روحي من اي شوائب ، تلك التي تُؤخِر نقاء نفسي المنشود ، ب مُعاندتها و غرورها .. نبث همنا و ننشر أفراحنا ، نشتكي و نبتهل ، نُنادي بالوصال و المدد ، ندعي بالسـتر و راحة البال .. نرفرف بأجنحة المخيَّر المجبور و المسيَّر الحر .

بدأت بالمناداة علي مسمع عموم الناس ليعلموا صِلَتي بالله و ما أنا في طريقي لفعله ، علهم يفقهون قولي ، ف قلت بصوتٍ مُنَغَمٍ واثق :

- يا قُدوس يا سميع .. يا مُطَلِب يا عظيم ، يا رؤوف يا رحيم ، يا ستار يا كريم ، يا مهيمن يا عليم .. يا عالم السر في الانفس و البطون ، أسـألك يا مُعين أن تعينني و ان تعزز يا عزيز مثواي ، و إن تصلب عودي و تشد من أزري ، يا من فتحت البلاد ب نصرك و أعليت كلمة رسولك ، يا مُتعالي ؛ أعلِي كلمة الحق على لساني ، و يا متدبر دبر لي امري ف انا الضعيف يا قوي ، ولا حيلة ولا حول لي إلا بك ، يا متكبر ، يا جبار ، يا هادي إهدني للصراط المستقيم ، يا ناصر أنصرني على الوهم المعشعش في ضلوع البشر ، يا باري أنا

بين البر و البحر ، إحمني من شـر إنسـك و جنك ، و ما تعلم ولا أعلم ، يا علام الغيب في غيبات النفوس .

اسـتنجد بي - أهلي - أهل الإسـكندرية ، بعد ما حل عنهم الروم و فتح الإسلام العقول و شرح القلوب قبل خمسين عام ؛ على يد حبيبنا "عمرو بن العاص" ، بأمرٍ فارقٍ من الفاروق "عمر بن الخطاب" .. و من رحابة و سـماحة الدين السـماوي - الخالد - إنتشـر و كأنه موعود ؛ موصـوف لنا و كأننا كنا على علمٍ أزلي بوجوده ، و نكمل نشـره على يد الوالي الحالي "عبدالعزيز بن مروان بن الحكم" .. إختلف محيانا و تنورت دنيانا و زالت الغمامة عن أعيننا ، و تبشرنا بالحق من الحق .. تعلمت الكتاب في أول مسجد يُطهر أرض مصر ، و من بعده عهدت نفسي تلميذًا لأستاذي الذي فتح مصر مع الأخيار ، و جلس يُنير بصيرة الخلق - الجاثمين في جحود - ب كلام الله ؛ لا ب حد السيف ، شيخي "بشر بن عبد الحي" ، كانت البشاشة تقطر من وجنتيه ، و صوته عذب يطرق ابواب القلب - ليس فقط الأذان - ب أذان الله ؛ بلا إستئذان .

حضـرَني احد الشـباب ، في المسـجد بعد تأدية صـلاة العصـر - و إنهاء درس أخذت نفحته مسـبقًا من أباء الأطفال - و طلب مني الخروج لسماع طلب الحضـور المحتشد بالخارج ، لم أكذب خبر ، كانوا أهلي من تربيت وسـطهم و زارني كرمهم في أبهى و أحلك الأوقات ، و صـلوا ورائي في أجمل اللحظاتِ و اصـعبها ، تكلم كبيرهم و كان "المهدي - من الله - بن سرم" الذي دخل الإسلام منذ عشرين عام على يد سيدي " بشر " و تكلم العربية المُفَخَمَة ، قائلًا :

- عهدناك يا "مسعود" لا تخاف عدا خالقك .

= و لن يخاف عبد الله من سِواه ، ماذا هنالك يا إخوَتي الكرام ؟ .

- نريدك في أمرٍ هام ، أقلق نوم الكبار و الصـغار مع إفتراقهم في الدراية و الإيمان ، و لكن تلك البُقعة من الأرض تزرع

الخوف و الهيبة في قلوبنا ، و نعتقد أنك من يقدر دبر سطوتهم على عقولنا بما تيسر من القُرآن ، ف ما رأيك يا شيخنا الجليل.

أعرف ما يحكون عنه و يزعزعهم الخوف منه .. سمعته و عشت فيه لأعوام .. كان اليونانيون عبدة الوهم و الأوثان ؛ يدفنون جثث موتاهم في رمالٍ قريبة من البحر، و تخيروا من بين البقع ؛ تلك ، التي تغطيها الأمواج من تحتها ؛ لتُقَرِب لأذهانهم المُغيَّبة فكرة الموت الرحيم ؛ الذي يأملون فيه ، رغم كُفرهم المُبين .. و تبعهم الرومانيون ب نفس المُعتقد الفاسد ، ف أضحت تلك البقعة الجميلة من البحر ؛ مدفنًا تعبث فيه أشباحٌ كافرةٌ ، خاطيه ، تُرعِب المؤمنين الموحدين .. يسمع فيها مع إنتصاف الليالي الليلاء أصوات تشبه الصراخ و العواء ، تَهِب مع رياح البحر القوية في الليالي الشتوية الممطرة ، ف يغلب الظن على اليقين ، و عشنا ايامًا صعيبة حين اختفي فيها بعض الصغار محبوا التغامر ، و ما رأه أصحاب سن الرشد و ينقلوه من بعضهم لبعضهم .. لم أُصدق في البدء تلك التلاوات و التؤيلات ، ف الخيال هو سلاح الشيطان ، حتى صدفت - و لو صدقت - في ليلة كنت فيها أستلهِم العلم من يد أستاذي - قبل وفاته المَنِيَّة - خرجتُ بعدها لأتشمم هواء البحر ، و فجاةً وجدتُ شخصًا ب عيونٍ بيضاء يناديني بإسمي ب صوتٍ به لَكنَة الإفرنج ؛ الذي تردد كأن الدنيا كلها تنطقه معه ، يشاور لي و يطلب مني القرب ، عجزتُ عن الحركة دهرًا و تسربل مني عقلي الذي عهدته يقظًا و تحركتُ إتجاهه ، حتى أمسك ب ساعدي سيدي "بشر" ، فاقد البصر المُعتلي من الله بالبصيرة ، لطم وجهي لأفيق ، و كل ما كنتُ أقاوم ما سحر لي و سيطر عليَّ ؛ كان يتدحدر المُنادي حتى إندثر في سر الأرض السُفلى التي منها أتى ، من تلك البقعة المائية الملعونة .

سرقني من تيه الذكرى أصوات الجمع الذي يتسأل عن ردي و رغبتي ، و هل لي أن أرفض ؟ ، و هل لي المقدرة في دحر الشر إلا ب مشيئة الله ؟ ، أنهم يثقون فيَّ و هذا يُعلي من مرتبتي كثيرًا ؛ و هذا ما كنت أصبو إليه منذ بدأت ، ان اكون الشيخ الأكبر لهذه

المنطقة ، ف لا أحد غيري يستحقها ، إذًا ف الأن قد حَصحَص الحق ؛ حركتُ رأســـي حركة طفيفة ، ب ثقة ، تُفيد الإجاب و التلبية ، فاليقضي الله امرًا كان مفعولًا .. إتفقت الآراء أن في الكثرة عُصبة ، ف سيتجمع أهل الحيّ أجمعين ل يُقَوّا من عزيمة بعضهم ، و ينهوا الشر المستحكم ب التلاوة ، انا من سيقود الأغلب و أشاور على الأيات التي سوف تفيد - ب أمر ربي - في تطهير الأرض .. و هذا يسير عليَّ بأمر الله .

قبل أن أهم بالخروج ، ودعت زوجتي و أبنائي ؛ و إســـتودعتهم وديعة لله ، الذي لا تضيع ودائعه ، مسحت دمعة الخوف المنفلتة من عيون مرأةٍ راعت ربها فيَّ ، و احتضـــنت أطفالًا باركوا رزقي و إحتلوا في قلبي المكانة العظمى لما هو دنيوي ، ما لا يمكنك أخذه معك ل دار الحق .. أشعر أني عائد لأن معي ربي يحرسني ، و هو من كتب عليَّ و ليَّ فضـــل تلك الخطوة ، لأثَبِت قلوب مؤمنة مُهيمنة ، يغالبها الظن .

خائف ؟ ، بل انا مرعوب .. و لكن حين وصـــلت و رأيت الحشـــد المُنتظر ل مجيئي ، إستكنت ، أُمَّةٌ كبيرة فضـلها الله على الأجمعين بالإسـلام ، هداهم له و أهداهم طريق الهدى ، جلسـت أمام الحفرة و جلسوا أمامي مصطفين و كأننا في خطبة الجمعة ، دون مِنبر فاصِل و دون شـمس الظهر ، في غير يوم الجمعة ، الليلة جاثمة ب ظلمتها ، الريحُ صَرصرٍ عاتية ، و البحرُ هائج و ضيُّ القمر المُكتمِل يبعث ب اللألاء على مائهِ ، مع نثرات قطرات المطر المُشـــتتة من الغيوم المُحتشـدة فوق البقعة ، اللهم صـيبًا نافعًا . إسـتعذت بالله ، بسـملت بأســـمائه الرحيمة ، و شـــرعت البدء بأحب آيات الله له و لي ، اية "الكرسي" ، و من ثم سورة الإخلاص و تلوت بعدها المعوذتين ، و طلبت من الباقين قراءة ما تيسر لهم عن حفظٍ سليم ، و بدأت استذكر الآيات و الأدعية التي علمني اياها أستاذي للخلاص من أرواح الشر و التطهير من خبث الخبائث ، و الإسـتعاذة من همزات الشـياطين و حضـــورهم .. قاربت الإنتهاء و لم يحدث شـــيء ، ف حمدت الله ، حتي تجمعت فجأة بعض القطط السوداء ب مواءٍ مسحوب الصوت

، تردد صـــوتهم مع الرياح ؛ مُهيب ، ينخر العقل ف يجعل الكلمات تهرب من تَركُزهـا الصـــحيح و تخرجني من تركيزي ، و فجـأة إهتزت من تحتنا الأرض ، الرمال تتحرك و تهتز و الحفرة الملعونة تخرج منها تحشـــرجات صـــوت غير مفهومة ، و انا احاول ان أســتمســك بالإيمان و أتماســك ، و من حولي يتشــتتون ، من أوقف تلاوته و بدأ ينظر لِما حوله في خوف ، و المغمضون أعينهم كأن ما يجري لا يصـل لهم في صـومعة أفكارهم المؤمنة و خلوَتِهم مع الله ، عليَّ أن أكمـل مثلهم و ان لا أتزلزل .. قبـل أن اغمض عيني لأستجدي التركيز طفى على الحفرة دكانة حمراء غامقة ك لون الدم المتجلد ، و لمحتُ عينًا بيضـاء براقة ، قد رأيتها منذ سنوات ، نادت إسمي من داخلي و كأنها ب صوتي انا ، و تدعوني للإستسلام ، لا ، لا لن ادَع الأوهام تهز عرش الرحمن بداخلي ، لســـاني ثقيل تثقله التلاوة ، و لكن العقدة تنفك ب تذكر زوجتي و أبنـائي ، هم ألهـة دنيتي ، الذين أوصـــاني عليهم ربي الأعلى المُتجَلّي في ســمواته ، و يدعم موقفي بالثبات حتى الأن .. اغمضـت عيني ب صـعوبة بالغة ، و أصوات الرجال تنشرخ حناجرهم من الصراخ ، و أخرون يلهبهم إيمانهم بالتلاوة الصحيحة بإستقرارٍ و تأني .

هل مع كل تلك الدراســـة و الحفظ لم أكن جاهزًا ؟ ، هل صـــدقتُ بالفعل اني مُســتَعد و ما لملمته كان مجرد قشــور خارجية ؟! ، هل لهذه الدرجة انا ضـــعيف ولا أُرى ب عين الرحمة ؟!! .. قد أكون أخطئت ، نعم كثيرًا ما كنت أتباها ب قربي منك ، كثيرًا ما نظرت ل غيري ب عين الكفر و التحقير ل بعدهم عنك و عن الصـلاة لك ، إكتسـبت من بعض علمي مالًا حتى أعيش ، رقيتُ بيوتًا و محتاجين ل صـلة وثيقة بيني و بينك يا الله ، حفظت القرآن لأعتلي به عن من هم ســواي ، لم اتدبر معانيه و لكنه تغلغل فيَّ و حفظته و حفظني .. لما اليوم يهرب من ذاكرتي و كأنه لم يقع علي مرأى عيني يومًا .. هل بعت ديني ب ثمنًا قليلًا ، هل لا يذكَر لي منفعة واحدة صحيحة ، ب كل تأكيد انا لا أســتحق ذلك يا رب ، انا لم أقترف إثمًا .. لا وقت لما أفعله ، يجب عليَّ العودة قبل ان أضيع .

قبل أن أهيم في محاولة التوحد مجددًا مع الله ، سمعت صوت نفسي تحدثني قائلة :

- لا مفر من شـرك سـوا هلاكك ، ف إتبعني يا مسـعود ؛ ف مكانك محجوز وسطنا .. لن تهرب .

= أخرج من عقلي و أتركني و شأني .

هدأ من حولي كل ما كان يحدث ، فتحت عيني و نظرت للجميع ، كل شيء سليم ، و الكل موجود ، الخائفون هبطت أنفاسهم اخيرًا ، و المقرئون الصـــامدون إبتلعوا ريقهم بعد تعب ، نظر الجميع لي و كأنهم يمجدونني من بعد الخلاص ، حمدت الله أمامهم على النصر و من داخلي الرعب يَرعَى و يَســمَن ، إنفرجت الغيوم و عاد صــفاء السماء و ظهر القمر جليًّا و كأنه يُحييني ايضًا على مجهودي المُبهر .. شــعرت بســكينة هدأت من روعي المُرتاع ، هذبتْ إنفعالي و أذهبتْ عني قلقي ، تنامى فيَّ الزهو و الجميع يقترب مني يقبل يداي و يتمســحون فيَّ كما الولي ذو الكرامات ، نهضــت لكي نصــيح أجمعين صــيحة النصــر بأن الله اكبر ، و لكني وجدت يدٌ تمتد إلى قدمي من الحفرة ، تســحبني الي ظلام الجُب ، صــرخ الجميع و حاولوا تخليصــي ، و انا اســتنجد بهم أن يغيثوني و ارفص اليد الجحيمية التي لا تريد تركي ، أُســحَب بكل قوة إلي أين لا أعلم .. صــرخ في عقلي صــوت جديد لم اســمعه فيَّ من قبل ؛ أمرني أن اتشاهد لو كانت النهاية ، و لكن لساني أبى أن يتوقف عن الصراخ و النطق بشيءٍ مفهوم ؛ كأن الحروف تناثرت أبجديتها ، نصف جسدي داخـل الحفرة مُبتَـل في نهر من حميم نـاري ك جهنم الحمراء ، أنصــهِر و أتطهَر من جســمي و من نفســي ، أصــرخ من الألم و الخوف ، حتي سُحبت ب شدَّةٍ أخيرة صميمة لأخر مرة .. و كفى ، ف ما حدث لا يروى على لسان بشر .

***

إستيقظت على مضجعي و كأن روحي كانت تنسحب ، و رأيت ذو العين البيضـــاء يتدحدر من جدار البيت كالطيف و إختفى في أحد اركانه ، مما جعلني أشـهق كل الهواء في الحجرة من فقدان نفسـي ، إرتعبت زوجتي الحبيبة ب جانبي و هدأتني بأنه كابوس و ذهب إلى حاله ، نفثت عن يسـاري ثلاثًا ثم إسـتعذت بالله و شـربت شـربة ماء جعلت بالي يســتقر ، ابحث حولي عن أي شـــيء ينفي أن هذا - ما رأيت - كان واقعًا ، إغتسلت لكي أُصلي الفجر الذي إستيقظت على أذانه و قد يكون هو ما أبقاني على وجه الحياة ، جريت لكي أفتح المســجد حتى ألحق الصــلاة ، كان الناس محتشــدون أمامه في إنتظاري لمحبتهم لصـوتي و قراءتي المُتيسـرة ، إسـتكنت ب كاملي في سـجودي و دُعائي و دموعي تنهمر و تفيض ، بعد التسـليم علي الملكين سَلِمت و سَلَمت على المُصليين ، و جلست أحمد الله و أتدبر في معاني كلماته في كتابه ب حق ، أنظر في معانيه التي وضـــحت لي بعد تجربتي ، افهم قوله و أعقله أخيرًا ، و كأن كان على عيني غشـــاوة من غمامة منعت عن نفســـي - الأمارة بالســـوء - التفهُم و الإمتثال لتعاليم الرحمن ، أحمدك يا رحيم و اشـكر فضـلك .. رفعت رأســـي عن الكتاب و الدموع تطهرني أخيرًا بصـــدق ، حتى رأيت ذلك الشـــاب يجلس أمامي منتظرًا ، لم أرغب في الكلام معه و لكن من إســاءة الأدب أن أهمله دون عذر، أغلقت الكتاب بعد التصــديق على كلماته و عظمته ، اقبل عليَّ و طلب مني أن أخرج للحضـــور المُحتشـــد في الخارج ، مجددًا !! ، هذا ليس فأل خير ، خرجت مع تشـقشـق أشـعة الشـمس ، كانوا نفس البشـر ، يقفون نفس الوقفة بذات الإصطفاف ، خاطبني نفس الرجل الكبير ذو اللغة المُفخَمة ، ب ذات الجملة :

- عهدناك يا "مسعود" لا تخاف عدا خالقك .

= و لن يخاف عبد الله من سِواه ، و لكني ...

صـمتُ بُرهة ، تلعثم مني الكلام و تزاحمت في عيني العَبَرات من العِبرة الإلهية ، و وجدت لساني ينسل عن ما أعهده في نفسي المتعجرفة و تبتعد ؛ ل يحتل مكانها ضعفي ، لأكمل :

- و لكني .. لست كفيلًا بما تريدون ، هناك من هم أدرى و اعلم مني ، انا مازلت أطمح في التعلم ، مازلت أحاول التقرب من الله ، و أتمنا ان يقبلني يومًا ب تلك النفس الضعيفة المخدوعة في نفسها ، انتم جميعًا افضل مني عند الله ، رأيت هذا ب عين الحق في رؤية بعد اذان الفجر ، اعلمتني اني أضعف من فيكم و ليس من تتحامون فيه ، و لكني رغم هذا لن أتخلى عنكم ؛ بل سأكون في أول صفوفكم و لكني لن أكون يومًا أعلي منكم .

صعد لي الرجل الكبير الذي تعلم علي يد سيدي و فيه من رائحته المباركة قائلًا :

- مادمت ترى هذا في نفسك يا "مسعود" ف انت أصلح و أحق من يحاول و نتحامى في إيمانه و نتبارك به ، أرجو أن تقبل أن تؤمنا و تساعدنا .. و نحن لن نتركك .

نبتت في حدقة عيني الدموع التي ما لبست ان إنهمرت حتي إحتضني الرجل و كأن شيخي هو من يرأف ل حالي ، يصبرني و يخبرني اني تعلمت و أفقت من غفلتي ، و أني قدير على فعل ذلك لأجل أهلي و أولادنا القادمين ، و بإذن الله قبل كل شيء .

***

بعد اعوام كثيرة ، طويلة مُرضِيَّة ، و بعد ما قدرني الله علي دحر الشر في تلك الحفرة الملعونة ، إختلف حالي ، أصبحت أبحث و أتعلم و أسمع من الصغير قبل الكبير ، و أمشي وراء المعلومة حدود و بلاد ، حتي اتأكد من اني على طريقي السليم ، كبر الاولاد في رحلتي السريعة و تزوجوا ، و توفت زوجتي و تركتني وحدي ،

أُلقي الدروس للأطفال الصغار عند الحفرة ، ب قرب معجزات الله ، أمام البحر ، تحت السماء ، على الأرض و التراب الذي منه نكون ؛ و له نعود .. أجلس معظم وقتي هنا ، أتأمل و أبكي و اتضـــرع لله ، اقرأ كتابه و أعتلي ب علوِه ، اصلي في المسجد بعد ما إعتمدت من بعدي تلميذي " جابر بن حيدر " ، أكلي و مشـــربي و جلســـتي هنا وحدي ، ف لِما قد يَوَد احدٌ أن يسمع شيخًا عليلًا بعد كل كلمة يربو ؟! ، أسـعد أوقاتي فصـل الشـتاء رغم برده المُعِل ، ف فيه يغمرني الماء و يطهرني من كل سوء ، و يوضؤني طول الباقي من تنفسي ، مع نسمة الهواء الهادئة الهَلَّة من السماء الصافية ، المخلوطة برائحة اليود و طهارة الســحاب الابيض المُظَلِل ، ثقلت جفوني و هدأت رؤيتي ، بُعِثَ فيَّ صوتًا أصبحت أءلفُّه ، قال لي تشاهد ب سكون و طمأنينة ، ف أغمضت عيني في أمان ، و نطقتها في يُسر .. أشهد أن لا إله إلا الله ، و أشهد أن محمدًا رسول الله .

♤ ♤ ♤

٢

● العبد ●

٥٤٤ هـ

* قد يحتوي هذا الفصل على بعض الإيحاءات جنسية ، التي قد لا تناسب البعض *

يبهجني قرع الطبول و الموســـيقى التي تنهال مع غناء أهلي حين الفرح ، و إن كـان الفرح الليلـة يقترن بـالوداع في تلك الحـالـة ، ف اليوم هو أخر أيامي معهم في البلاد ، قبل أن أسافر للأندلس .

سـماني أبي "مسـعود" ، إسـمٌ له وقع لم يفلح في تغيير قدري ، ف السعادة لا تقترب ممن يناشدها عنوَة ، و لكن لم يكن بيداي إختيار .. جئت لأكمل أول نصـف العشـرة من الوِلدة ؛ الذين إكتملوا بعدي ب خمس أعوام ، كانت أمي كبيرة البطن مُثمِرة ، مُستثمرة في الإنجاب الذي عكس المتوقع ؛ حل علينا بالفقر و الضـيق .. ف سـافر أبي ذو الأسفار التي تشيب لها الوِلدان ، و كان يحكي لنا في كل رجوع عن مغـامرات كثيرة مع أســـودٍ في الغـابـات و قروش و حيتـان في المحيطات ، كان ك سندباد المشـهور في عالم البحار ، و كان خيالنا خصـب يشـبُك الأحلام ، حتى إصـتدمنا بالحقيقة مع الكِبر ، كان أبي مجرد بحار يرفع الساري ؛ ينقل البضـائع و يعود بالثمن او ببضـاعةٍ أخرى ك تبـادل تجـاري مع البلاد القريبـة منـا ، و انـه لم يرى يومًـا تصـــارع الديوك حتى .. ثم أنبأتنا الرياح ب خطر الحِمل الثقيل على المركب الصغير ، أصبح على كلٍ منا التضحية ب نفسه لكي يحظى الذي بعده ب بعضٍ مما أخذ من حظ ، حتى كبرت انا ، و ما أســرع زمني في الجريان بي ؛ إلى بلوَتي .

لم ينبت لي شارب يثبت ذكورتي ، و لي جبهة عريضة ، و صوتي رقيق كالإنـاث ، و وجهي لا يعطي أبدًا ســـني و رشـــدي ، و لكن جســـمي كان فَرِعًا ؛ طولًا و عرضًـــا ، ف كان مكتوبًا لي أن أكون حمالًا يحمل أثقال الناس بالأجر ، ف تركني أحدهم - بالخطأ - أحمل الفقر والخذلان في مشوارٍ لم ينتهي بعد .. عملت ب جِد و شُدَ عودي ، و بعدت عن العِلم حتى أطول نعمة الحياة ، ف وجدتني أحمل همًّا لم يسـتلمه مني صـاحبه ، و هرب ، و أصـبح عُهدةٌ أثيرة في رقبتي حتى يطلب مني احدٌ إسترداده .

كُنا - المُسلمين - في بلدي قلة بعد المسيحيين ف جعلنا لأنفسنا مجتمع مُترابط حتى نزيد من تمسُكنا ، كان الفقر ينهش معظمنا و يسهر مُتسَلطِنًا على انين ألم أحشائنا ، ف كنا كالعظام المتحركة التي يسترها الجلد لنظهر أدميين ، و الشمس كَسَت و أكسبت جلود جدودنا البشرة السوداء ، و أسمونا الزائرين لنا ب "الأحباش" او "البقْط" ؛ نسبة للبلد و اللون و عرق الزنج ؛ للتمييز عن أصحاب البياض و الأجسام الصغيرة ، هؤلاء الذين أطمح أن أعيش معهم في حضارتهم المختلفة ، ف هنا نولد لنموت دون أن نتذوق ما يُحلّي ريق محيانا ، نلتهم سواد الحياة حتى طفح على بشرتنا ، ألا يكفي هذا ؛ ام هل من مزيد ؟! .

كنت أجلس مع صديقي "فُرات" في بيته لكي أضمن وجبة غداء قد تصبر جوفي المُتَصَحِر لبعض الأيام القادمة ، حاله ليس افضل من حالي و لكن أمه تَزَيَنَت بالعقل ف لم تتمادى مع والده إلا مرتين ، ف أصبحوا بالنسبة لنا من الاعيان الفاحشين ، أسَرَ لي كمحاولة للعثورعلى ثغرة الفرج ، أن عمه "عامد" تعرف على صاحب سفينة كبيرة صاحبها من كبار تجار الأندلس ، و لكن القراصنة نهبوه قبل وصوله و قتلوا رجاله ، و الأن حالته صعبه ، و يحتاج بعض البحارة ل رحلته البعيدة ليرجع إلي بلاده في أمان ، و تكون رحلته عن طريق مجرى البحر الأحمر حتى نقطة تفرع مُختبئة في مصر تصل بينه و بين الأبيض المتوسط ، و يكون ثمن مساعدتي له ؛ سفري إلى هناك دون دفع ما لا يمكنني تكوينه في عمرٍ مديد ، و أنه يشترط شبوب السن و الطاعة التامة طوال الرحلة ، لم أكذب خبرًا ، أخذته و هروَلنا إلى بيت عمه و من ثم إلى شهبندر التجار الذي نظر لي و تفحصني جيدًا ، و رمقني بإستحسانٍ ، و طلب مني أن أكون مُستعدًا بعد غد صباحًا باكرًا ، للتحرك إلي مهد و مجد حضارة الإسلام ؛ الأندلس .

الليلة هي الأخيرة لي هُنا ، و رغم أن عيني مُحتقِنة بالدموع ؛ لكني لا أشعر ب تلك العاطفة التي من المفترض أن تغزو البيت و ملامح ساكِنيه ، سأفتقدهم بحق ، ف انا لم أخرج يومًا عن إطاره ولا تغيبت

لليلة عن النوم فيه ، غدًا أفارقه ب كل ذكرياته ، أفارق أمي "بدعة" ب دعوتها و طيبتها ، افارق إخوتي الصـــغار ، ف الكبار فارقوني حين كنت صــغيرًا ، أوَدِع أبي الذي كذب عليَّ ســنين لكي يكبر في نظري ، ولا يعرف أن إكتشـــاف الكذب يمحي اي كِبَر قد طاله في عيني ، و لكني أعذره ف أن تكون قليل الحيلة و عديم الشـــأن لا يجعل حقيقتك امرًا مطلوب الذِكر ، حضـــرتُ مُتعلقاتي المُهَلهَلة في صُـــرَّةٍ باليّة من جلد الماعز المهترئ ، جمعت ذكرياتي في ركنٍ ما داخل عقلي ؛ حتى لا تُنسى و تَمسى يومًا سرابًا ، و قبل هلول نور الفجر كنت في المرســـى أنظر للســـفينة الكبيرة في ولَّهٍ و رهبة ، أنتظرها أن تُبحِر و تخور .

***

في خلال جلستي المُنتظرة ؛ رأيت نورَس يلتقم ب فمه سمكة من على ســـطح الماء ، كان يتحيَّن لحظة إصـــديادها في غفلةٍ منها ، مسكينة لم تسمع خياشيمها عن غدر الحياة قبلها .. وصل الشهبندر "غازي" و كان يبدو على حركته عدم الإتزان و السُكْر، رفعت يدي لأسلم عليه ف مر من أمامي كأنه لم يرانِ و أشار بإصبعه السبابة أن أتبعه ، صعدنا للسفينة و وجدتُ بشرًا بيض ، يعملون في صمت على الســفينة ، من ينظف و من يجلس على الســاري و النائم يبحلق في السماء ، و من يضبط البوصلة في مللٍ و سقَم ، ألم يخبرني عم "عامد" أن القراصنة قتلت بحارته و ملاحينه ؟! ، ف سألت السؤال و اجابني الشهبندر :

- لم يُقتَلو كلهم ، و لكن كما ترى هذا العدد ليس بكافي لتحريك سفينة كبيرة ك تلك ، نحتاج إلي يد العون ، و مقابل هذا ستنول سفرك ، أم غيرت رأيك ؟ .

- لا بالطبع ، اعذرني على فضولي .. متي سنتحرك يا سيدي ؟ .

- حين يجتمع الحقراء من امثالك ، المُتأخرين عن الميعاد المحدد لهم.

صَمَت ، لن ارد الإهانة ، ف طالما أنا هنا ف إذًا أنا مازلت حقيرًا بالفعل كما قال .. إنتظرنا ، و في خلال ما يقرب السويعة كانوا قد إكتملوا ، سبعة و بي انا ثمانية ، منهم المسيحيين و المسلمين ، و الغريب اني لم أعرف ايً منهم ، أهان كرامتهم الشهبندر و نالوا التوبيخ الرزيل من طاقمه القديم ، و بدأ يُرسي الأوامر ، و امر ان يتبع كلٌ منا أحدًا من البيض لكي يعطينا التعليمات التي علينا فعلها ، من ذهب لشد الثقل الراسي بالسفينة ليدعها تتحرك ، و من يشرع في فك الشراع ليترك العنان للريح الغائرة لتدفع السفينة ، و من يتعلم الملاحة و يفهم رموزها لكي يُعطي ايَّ مُستجدات للقبطان في طريقنا ، و من يعطون الحركة الاولى للسفينة ب تجديفة يدوية أولية ، و كنت انا على حظي - بما اني كنت اول الواصلين - المسؤول عن التنظيف علي سطح السفينة و بداخلها ، أعطاني الرجل الأبيض ممسحةً و دلوً مُمتلئ بالماء و الرغوة ؛ ثم أمرني قائلًا :

- أريد أن أرى وجهي على الأرضية بعد تنظيفها ، سمعت يا قعر الحلَّة ! .

سمعت و فهمت ، ثم تركني و ذهب ، أخذت الممسحة الثقيلة عن المعتاد و رميت الماء حتى يزحزح طبقة العفن اللاصقة في الارض و بدأت المسح ، أتممت مهمتي البسيطة عليَّ في خلال ساعة متواصلة ، و بدأت أركز نظري على حركة السفينة و مجراها ، كم هو بديع تصميمُها الذي يشق البحر القاهِر ، ب عقل البشر المتنورين و تسخير الله - الذي نحن إليه لمُنقَلِبون - .. حتى شعرت ببعض الدوار ف نزلت إلى اسفل لأكمل التنظيف و لم أعلم أن الأمور ستسوء ، أتممت مهمتي العفنة المُعبقة بالقذارة و تراخت يداي - بالخطأ - على عائقٍ خشبي فُتِحَ من دفعتي الخفيفة حين إستندتُ عليه ، كان مثل قبو يحمل البضائع التي سيعودون بها ، لبيعها في الأندلس ، كل ما تشتهر به الحبشة من خضروات و فواكه ، ف لمعت و

تزينت في عيني تفاحة من الجوع المُهلك ، و أقررت في نفســـي أن ثمرة تفاح واحدة لن تضر ، لمستها بيدٍ مُهتزة واهنة و لكن يبدو اني أخللت بالترتيب الهرمي التي كانت موزونة عليه ، حتى ســـقطت العباءة المُســتَتِر تحتها جبل من الذهب المُتراكِم ، هل هذا الذهب من بلدي، هل فيها هذا الكم الهائل اصلًا ؟ ، و هل يسرقونه منا و ينقلونه ليغتني به غيرنا و لنزداد نحن فقرًا ؛ و كأنهم أتوا لمجرد فاكهة ؟! .. فجأة إقتحم عليَّ ذلك الرجل الأبيض المســـؤول عني ؛ و داهمني بشـــيءٍ ثقيل على جُمجمتي ، جعل الدنيا تدور بي مع دوار البحر ؛ حتي كدت اطير من مكاني بلا أجنحة ، و فقدت الوعي ، و لكني طِرت في الســـماء و كدتُ ألمس الجنَّة ، أم لعلي نزلت بالخطأ إلى الأرض ! .

***

أفقت ، و وجدتُ فمي مُكَمَم و يداي بصـــحبة قدماي مربوطين ب حبلٍ غليظ مؤلم ، بدأت أموء و أصــدر أي أصــوات و لكن لا يوجد من يجيب ، العطش ســـحب ريقي من بلعومي ، و معدتي أكلت اعضائي لسد خوائها ، كم على هذا الحال لَبِست ؟ ، ظللت أحصي الساعات و الدقائق و الثواني الدقيقة منها ، هل شعر احدٌ بإختفائي ، هل هنالك من يهتم بأمري اصلًا ؟ ، أم أنهم يعلمون حالتي و تركوني حتى أموت و اتحلل ف يأخذوا من جسدي الدود ل رعيه ، انا اهذي ، و الدوار يجعلني أريد لفظ ما بداخل معدتي ؛ و ماذا بها لكي ألفظه ؟ ، شعورٌ متعب ، و الأصعب اني لم أعد أشعر بأطرافي و كأنهم إنفصلوا عني ، لا أعرف لماذا لا أشعر ب مثانتي ممتلئة !! ؛ يبدو أنها سبب تلك الرائحة الخانقة ، لا يمكنني تحمل هذا ب وعي مكتمل ، يجب أن أنام حتي اموت دون أن اشـــعر ، و لكن كيف اجلب النوم و كل هذا الوجع يلاحقني ، حركت دماغي لأرطمه في أرضـــية السفينة و لكن جسمي لا يقوم ل ينهمد ، لا جدوى سأموت صامتًا ، عطِشًا ، جائعًا ، و بلا أطراف ، بدوار يُذهِب عقلي .

إســـتيقظت على إثنين يحركونني ، واحدٌ ابيض من الطاقم القديم و أخر أســـود مثلي من الطاقم الجديد ، هل ســـيعفوا عني اخيرًا ، أم سيرمونني للقروش تتسلى على عظامي ؟ ، رموا جسمي الذي أنَّ من قوة الإرتطام على سطح السفينة ، نظرت لأعلى و نور الشمس يخترق عيني الذي لم تمســـه - على حد توقعي - لأيام كُثُر ، غاب جزءٌ من الشـــمس مع ظهور وجه الشـــهبندر ينظر لي في إزدراء ، بصق عليَّ و لولا تكتيفي لطلبت منه أن يبصق في حلقي ليرتوي من نيران جفافه المؤججة ، أمر جالبيني بأن ينزلوني من على متن السفينة ، كيف لم أشعر اننا رسينا و توقفت حركة السفينة ؟! ، نزلت السلم محمولًا كالطائف بلا كَفَن ، و ألقوني على اليابســـة ، و بعدها نزل حامليني بأخرين مُكبَلين على نفس شاكلتي و رموا جثثهم الحية عليَّ ، من زاوية ضعيفة الرؤية رأيت - والله أعلم - شخصًا ينظر لنا و يتأكد من أنفاسِنا و يُنقِد الشهبندر صُرَر من مالٍ ب قدرِ عددنا ، و من ثم صعد الشهبندر لسفينته تاركًا إيانا ينهشُنا التفكير ، حتي جاء المُنقِد للشـــهبندر و المنقذ لنا - من فضـــولنا فقط - ل يقول ب فم له أسنان صفراء منخورة و سِن ذهبي يتصدر الواجهة :

- أهلًا بكم في مِصر يا أشقياء .

***

وضـــعونا على عربة يَجُرها حِمارٌ هزيلٌ نافقٌ ، رمونا فيها مثل البضاعة الفاسدة بلا مراعاة لأدميتنا ، يمشون بنا بين الناس ؛ الذين لم يعيرونا أي إهتمام ، عرفت اننا وصلنا وجهتنا - بعد معاناةٍ طالت - حين توقف الحمار و رأيت الكثير من بني بشـــرتي حولنا ، معروضين للبيع و النخاسين ينادون عليهم كالفاكهة و الناس تقف و تحاول التذاكي و التناصُح لتقليل السعر ، هل هذه هي نهايتي ، عبدٌ في سوق نخاسة مصر ؟ .. أزالوا الكمامة عن أفواهِنا و لم يكن في أحدنا حيل للصراخ و السب و الإعتراض على ما نحن فيه ، سقونا جرعة ماء زادتنا عطشًا و كسرات خبز ناشف يجرح الحلق و يفتت الأسنان ، و أجلسونا ب ذات التكبيل رغم التخفيف من ربطته حتى

يصل الدم لأطرافنا و يجري فيهم مجددًا قبل أن نستعوض الله فيهم ، بقينا ساعتين معروضين أكل فيها الذباب جسمي العفِن و جروحي المُتقرِحة ، الناس تنظر لنا و تُفتِش عن طلبها و لكن يبدو أن حالنا غير مُغري للسائلين ، و لله الحمد .. حاولت أن أتحدث مع من إشترانا ، نظرًا لأني أكبرهم سننًا و اكثرهم حكمة - كما توصلنا سويًا - ، ولا فائدة مهما علّى صوتي في الصراخ لا يصل أعتاب السمع لشدة الإزدحام و التفاني في النداء من بائعون البشر و البشرية ، ظللنا على حالنا - الذي ظنناه الأسوء - حتى مضى النهار إلا أقله ، و قبل أن نتحرك إلى العربة التي جلبتنا هنا نقصنا واحد لم تقم له قائمة و مات ، حزنت عليه و على حالي ، ف لا استبعد أن أكون التالي ؛ مع ذلك التقشف في أسس الحياة و تلك المعاملة الشنيعة ، رمينا وراء ظهرنا أخينا و تحركنا بالعربة حتى وصلنا ل ما يشبه غار مُقفل ببوابات عملاقة على أعتاب منطقةٍ نائية ، ادخلونا رجال ذلك الشاري اللعين ، و إهتموا بنا بعض الشيء ، فقد خافوا فنائنا قبل أن نأتي ب همنا ، ف زادوا الكمية السابقة ثلاث أضعاف و لم تكفي حدود الهدوء بالشبع .. نمنا ولا نعلم كيف ؛ بعد ما حكينا لبعضنا بعض الحكايات عنا ، باللغة الأمهرية ، حتي لا يفهمنا أحدًا غيرنا ، و حاولنا الوصول ل حلول قد تخلصنا ؛ مثل أن يقرض أحدنا حبل الأخر ف يفك وثاقه و لكنهم - أولاد الأبالسة - إستعملوا خامة متينة تقهر المحاولة ، ف إستسلمنا ليلتها ، عل أن يُلهمنا الله غدًا ب حلٍ أرأف و أدل .

صباحًا أخذنا ذات التحرُك السابق بشكلٍ مُعاكِس إلى سوق النخاسَة ، معروضين و الناس تتأكد من صالحيتنا باليد ، خوفًا من أن يكون بنا عطب او دود ، جاء أكثر من شخص يسأل عن سعري نظرًا لأني كنت فتيّ - مقارنة بأقراني - و جسمي مشدود و سني يعطي إيحاءًا بالعقل و الرزانة ، و لهذا رفع الشاري - البائع - لنا سعري حتي زادت قيمتي في عيوني ك عبد بشري يباع و يشترى بالمال ، سلعة لها عرضٌ و طلب ، انا لم أملك حقها حتى .. في منتصف اليوم ذو الشمس الساطعة المُلفِحَة ، إستطعت التقرب من أحد الفتيَّة

المســاعدين لأبغض من عرفت في حياتي ، بدأت التواصــل معه ب لغتي العربية الجيدة بعض شــيء ، و حســب ما تيســر لي تذكره ، حيث أني قد تعلمت على يد أحد الشــيوخ العرب في صــباي البائد ، حاولت التوصـــل من خلاله عن معلومات تفيدني ، أخبرني اننا في مصـر ، تحديدًا في الإسـكندرية ، تحت ولاية الفاطميون ، و الخليفة هو "الظافر بأمر الله إسماعيل بن الحافظ" و عمره الأن ثمانية عشر عام و قد تقلد الحكم منذ ســتة أشــهر ، و هو واهنٌ في الحكم محب للهو ، و أن نظام العبودية هنا صــارم عند الشـيعة و مُطبق سـخطه على أهل السُنة ، ثم نظر لي ماليًّا و سألني :

- ما الذي أجبرك علي محاولة ترك بلدك و التغرُب يا مسـعود ؟ .

= الفقر الجاثم على أنفاســي و الجوع الناهش لأعضــائي ، و محاولة لأخذ فرصة لأعيش حياة كريمة .

- إذا ف العبودية رأفة ب حالك ، ف على الأقل ســتجد من يطعمك و يسكنك ، و يصبح لك مأوى يسمح لك بالعيش .. و اصمت الأن ف إن السيد "جاسر بن قاصد" قد حضر السوق .

قطع حديثنا المشـوِق المشـوَه ، دخول رجلٌ مُتأنِق يظهر من ملبسـه الثراء و الطرف ، ب شاربٍ مُهذَب وسط لحيةٍ كثَّة ، وعين غاضبة واثقة ، و جســمٌ عتيّ قد كســر الأربعينات قســمة العدل ، يبحث في العبيد ، و جميع النخاسين يستمهلونه للنظر و التمعُن في بضائعهم ، يمر ب نظره ســريعًا بلا كلام ، حتي توقف أمام شــادرنا ، أو للدقة أمامي أنا ، هجم عليه الشـــاري - البائع لنا - ليعرض عليه خيرة مُنتجاته ، و لكنه ثبت نظره عليَّ ، و لم أسمع من همسهم حسيسًا ، و لكن يبدو أنهم قد توصـــلوا ل بيعة مُرضـــية للطرفين ، رمى "جاسر" صُرَّة نقوده أرضًا و قاموا الرجال سريعًا بفك قيدي بإشارة من يده الثقيلة ، و أعطوه وثيقة عبوديتي ، و وقفت بصـــعوبة على حيلي الذي لم يعد فيه الحيل ، نظرًا لربطي لما يقرب الثمان ايام بلا

حركة ، حتي إستعدت بعض صلابتي و شمخت ، قال لي سيدي الجديد بلغة صارمة جافة :

- فالتتبعني يا ... ، هل لك إسم ؟ .

= مسعود يا سيدي ، إسمي مسعود .

- مسعود ها ! ، لا شك عندي في هذا .

تمشينا مسافة قليلة حتي دخلنا إلى حيّ راقي هادئ ، به بيوتٍ لها ترتيب مُريح للعين ، وقفنا أمام أفخمهم وعبرنا البوابة التي كان راضخًا أمامها حِصان عربي أصيل - خالي الدهن عالي المتن - أشهَب اللون و مُسرَج بفخامة ، و حارس البوابة الذي كاد ينزل ليقبل يد سيده ، الذي أصبح سيدي كذلك ، و نظر لي نظرة مُريبة لم أفهم مغزاها ، مزيج من الحزن و الإرتياب و الرعب ، علمت فيما بعد أنه يدعى "سامر" و هو على مشارف الربيع السادس إذا كان له ربيعًا ، و كان أبوه خادم والد سيدي و لذلك ف إنتقلت ملكية الابن ك نوع من التوريث الحتميّ ، في طريقنا لباب الدار مررنا على الفتى "قابيل" البُستاني الذي يعتني ب حديقة الدار ، و هذا ما فهمته ان لكل دار حديقة و لكل واحدة بستاني يلازمها ، و كان في عمر الزهور يصغرني ب ثلاث سنوات ، و كان كثير القراءة و غزير المعرفة رغم حداثته ، ف فادني بالكثير من معلوماته فيما بعد رغم ما يضمره في نفسه من شر ، صعدنا أدراج الدار و دخلنا بهوه الواسع المُبهر ، منزل الأحلام إن أحسنت الوصف ، كل شيء منظم ، كل شبر جميل مُبهرج ، نده سيدي خادمة بإسم "زهيرة" قد تكون في عمر امي او أعمَر ، ليأمُرها أن تسرع في أعداد الغداء ، و حين لمحتني ظلت واقفة لثواني ترمقني في صدمة و أسى ، حتى نهرها سيدي ل تسرع في التحرك ايضًا ، جلس على أريكةٍ وثيرةٍ لها وسائد مِخمَليَّةٍ قَيِمَة من القطيفة حسنة التطريز ، و نظر لي من أعلى رأسي لأخمص قدمي العارية ، و عرفني ب نظام البيت قائلًا :

- أهلًا بك في بيتك يا ... ذكرني بإسمك ؟ .

= مسعود يا سيدي .

- نعم ، نعم تذكرت .. أهلًا بك في مكانك الذي سوف تخدم فيه الباقي من عمرك ، هنا نحن عائلة صـــغيرة مُلتحِمة ، نحرس بعضنا و نعتني بكل التفاصيل ، و مادمت تفعل ما يُملى عليك بالحرف و على وجهٍ صـــحيح ف إكراميتك تزيد و عيشـــتك تزدهر ، و لكن يا مسعود ، لا أريد أن أوصيك ، كل ما يحدث في الدار ، لا يخرج منه و لو على رموش بَقَّة .. السرية التامة هي درَّة تاج هذا الدار ، و هي الأنجح في إدارته ، ف إلتزم الصـمت مهما رأيت ، لا نفتقد للحسـد ولا تسـلطننا النميمة ، واضح كلامي يا مسعود .

= واضح ، و تحت طوعك و امرك يا سيدي .

بعدما عهد لي بالوصـايا العشـر ، و إشـمئز من رائحتي المُنفِرة ، أمر "زهيرة" أن تطعمني جيدًا و ان تعطيني لباسًا نظيفًا بعد تنظيفي في الحديقة بمياه الدلو ، و قبل أن نهم بالتحرك ، نزلت من أعلى جوهرة مصنوعة من اللؤلؤ الأبيض اللادن ، ضيُّها نوراني ، أبهى صـــوَر الملاك الإنســـي و مُحاكاة لأنهار اللبن في جنان الخُلد ، و جلستْ بجانب سيدي "جاسر" و لا اعلم هل تهيئ لي أم انه بحق ، أنها نظرت لي ب عين غريبة ، نظرت لي ب شـــبق ، ب رغبة ، يااللخيالات حين تستحكم من سيطرة الجوع على العقل الخاوي .

***

لا لم ارضـــى بالعبودية ، و لكني كنت اتحيَّن اللحظة المناســـبة للهرب ، حاولت التحدث مع "قابيل" البســـتاني و هو يرمي على جسدي الماء ، و لكنه لم ينبس ك صخرة صماء ، تحايلت على ست "زهيرة" لتفتح معي اي موضوع ، و لا فائدة ، وضعتْ أمامي طعام شهي من اللحم الضأن و الأرز ، و الملوكية - التي قامت عليها نزاع كبير بين الملوك و عامة الشـــعب - .. صـــابتني التخمة اخيرًا ، و إرتويت من عصـــير العنب غير المخمور ؛ و ذهبت في نعاسٍ أفقت

منه على الثالثة قبل الفجر بجانب "قابيل" على الحصيرة الملاصقة ل خاصته ، تمشيت في الحجرة ، أمسكت بعض الاوراق التي تمتلئ بها ركن "قابيل" و لم أفهم منها شئ ، خرجت أستنشق بعض هواء الحديقة ، و وجدت العم "سامر" مازال يحرس البوابة ، جلست بجانبه و قررت اني سأتحدث و لو لم يرد ، أكاد أختنق من الكتمان ، حكيت بإستفاضة كل ما حدث معي و هو يسمع مشدوهًا ، حتي إنتهيت ، و لا أعرف لما أسررت له ما بداخلي و لكني أخبرته أني أنوي الهرب من هنا و من مصر كلها ، حتي فاجئني و تحدث قائلًا :

- لا يمكنك هذا .

= عم "سامر" أنت تتكلم مثلنا ، أخيرًا سمعت لأحدكم صوتًا !.

- لا أخفيك سرًا يا بُنيّ قد أمرنا السيد "جاسر" أن لا نتحدث مع العبد الجديد بأي كلام في العموم .

= لكتمان أسراركم القديمة بالتأكيد ، ف قد شدد عليَّ في هذا الأمر ، و لكني لا أهتم بما مضي ، أريد أن اشعر بالإطمئنان هنا ولا أعرف كيف ، ب كل هذا الكم من السكوت و التكتم .

- هذا أمرٌ يا بني ، و أرجوك ، لا تجعلني أندم أني كسرته لأجلك .

= لا تقلق ، لن تندم أعدك ، ف قد فُطمت على الأمانة و الحق .. و لكني ايضًا لا اخفيك سرًا ، أريد الهرب من هنا .

- لا يمكنك يا بني ، هذا لا يمكن ، انت لك صك عبودية ، إذا أبلغ السيد "غازي" عن هربك ف أنت هالك لا محاله مصيرك إما سجن ؛ إما الموت ، ف أنت الآن عبده و مِلكه ، و ما ادراك من هو "جاسر بن قاصد" و سطوته ، خصوصًا في مصر ؛ و ما يخُص العبيد فيها .

= هذا يعني أن لا مفر من إستسلامي لواقعي المشئوم ؟ .

- واقعك ما هو إلا تراتيب القدر ، و فليقضـــي الله أمرًا كان مفعولًا مُسبقًا .

و قبل أن أسأله عن زوجة السيد "جاسر" و إسمها ، كان الفجر قد بزغ و أمرني ب صـــرامة أن أدخل الي حجرتي قبل أن يســتيقظ سيدي ، و إنصعت ل نصيحته ، مددَتُ على الحصيرة مجددًا افكر فيما سأفعل ل ساعات ، هل أحاول الهرب ام أأمن و أستسلم لما انا فيه ، يبدو الهروب من هنا مســتحيل ، إلا و قد كان جميع العبيد هربوا لحياة الحرية ، قررت الإنتظار حتي يبعث الله لي ب رسالة ، و قبل أن أغمض عيني المتعبة من عدم مقدرتها على رؤية مستقبلي ؛ لإنعدام الرؤية ، إقتحم سيدي "جاسر" الحجرة و إنتفضت أنا و" قابيل" ، و أمرني أن أغسل وجهي و اتبعه لداخل الدار ب سرعة .

اوقفني ســيدي - و وليّ نعمتي - أمامه ، هو و زوجته فَلقة القمر المُنيرة - شــاربةُ ألبان الماعز - "عُلا" كما نداها ، يبدو أنه ســهر كثيرًا لينولها في ليلةٍ قمرية ، حاولت ان امنع نظري من التطلع إليها حتى لا أُقتَل في أول أيامي .. أفهمني ب عِبارات موجزة أني عبد السيدة "علا" أنفذ كل أوامرها و ما ترنو له ، اي طلبات تحتاجها و اي فكرة تخطر على بالها ، هززت رأســي في إمتنان ؛ ف ايَّ يكن أن أكون تحت طوع إمرأة أرحم من اكون عبدًا ل رَجُل ، و لكني اغفلت مصيبة ، عبد المرأة يجب أن يُخصَى ، بلعت ريقي بصعوبة و انا ازيل هذا الهاجس من عقلي ، عَلّي آخبرهم اني ولدت ب شعرة حصــان مربوطة حول خِصــيَتي ، فلا قلق مني علي أي حال .. بعد أن أنهى حواره زعَق على "قابيل" الذي لبَّى الأمر في ثواني ، و طلب سيدي منه أن يُريني طريق السوق و دهاليز المنطقة المجاورة لنا ؛ لتسهيل إتمام المشاوير و الطلبات عليَّ .

كنت احتاج تلك التسريَّة بالتمشيَّة .. رأيت فيها مُجتمعًا مُختلفًا عن ما عندنا في الحبشة ، هم خليط من البياض و السمار ، كما يسمون

أنفســـهم اللون القمحي الخمري ، لديهم مســـاجد عبارة عن تُحَفٍ معمارية عامرة بالمُصـليين ، و مزاح متناثر و أصـوات ضـحكات عالية ، نسائهم حلوة ، يبدو اني اميل للفتيات البيضـاء اكثر ، و لكني لم ألحظ نظرة ترحيب واحدة ممن بحلقت فيهم ، أخبرني "قابيل" بعدما مررنا بشـارع الشـحاذين المنتظرين لنفحةٍ بعد الصـلاة ، أن السـوق يبعُد عن المسـجد بضـع خطوات ، و عرفني على أفضـل البائعين الذين يتعامل معهم سـيدي "جاسـر" ، و أماكن الغزل و النسـج ، و محال السمك المضـمونة ؛ نظرًا لتفضـيل سيدتي له ، و حين أتت السـيرة لم أسـتطع أن أمنع نفسـي عن السـؤال عنها ، إسـتلهمت منه الكلام دون أن يقصـد ، و أخبرني أنها كانت ابنة أحد أكابر البلاد ، و لكن خسـر أباها ماله كله في سـفينة بضـائع إبتلعها البحر ، ف جاءه الداء في قلبه ف اسـكته ، إنتهز سـيدي "جاسـر" الفرصـة و طلبها للزواج ليغزي بها العين عنه ، رغم أنها تصـغره ب حوالي نصـف عمره ، و لكنها قبلت لتعيش في الرغد و العز ، و تم الزواج منذ خمس سـنوات ، و لم يحالفهم الحظ حتى الأن في الإنجاب ، و صـمت بعد ما تبين أنه افاض في الحكي ، ف رجعنا أدراجنا بعد ما أعطى تمام الأمر لسيده و سيدي .

في أول أسبوع كانت المهام بسيطة ، كنت اعتقد أني سأتعب اكثر من ذلك ، لِمَا تحمله كلمة عبد من ثقل اللفظ و الوطأ ، مشـتريات ، بعض التنظيف و المشاوير .. كنت اتحاشى النظر ل سيدتي "عُلا" حين سـماع الطلب و بعد تنفيذه ، نظرًا لجمالها الأسِـر و لإحترامٍ واجب ، و لكني شعرت بشيء ما ناحيتها ، شيٌء من القبول لا أفهم سـره ، زارني الإحتلام ليالي متلاحقات ، و لم يطلب مني احد أن اخصـي نفسـي ، و هذا غريب ، حين سـألت عمي "سـامر" قال لي انهم لا يطلبون هذا ؛ لأنهم يعتبروني فردًا من البيت حتي يثبت العكس ، و ماذا قد يجعلني أخيب ظنهم فيَّ ، هل انا أحمق !! .. كنت في السـوق ، بعدما إطمئننت على من بقيَّ عند النخاس من أهل رحلتي بعد ما مات أخر و إبتاع أحدهم إثنين سـويًّا ، وجدت في تسـوقي ثمرات تفاح نضـرة و كأنها من فاكهة الجنَّة ، و قررت أن

أشتري بعضها لسيدتي فقد تُسهِب لي في الإكرامية ، و حين إقتربت إرتطمت خطئًا بأحد الأســـياد الاحرار ، و أوقعت ما كان يحمله في يديه من مُشـتريات ، أهان كرامتي و لزمت الصـمت حتي خلصـني من لســانه الزَفِر بائع التفاح ، و رضــاني بواحدة حتي أبتَلِع معها ما شتمني به الرجل ، و اخذت منه رطلًا مُنتَقى لسيدتي ، و أخذ يحدثني ليكظم بعضًا من غيظي ، ف سألني عن إسمي ، و في أيِ بيتٍ أخدم ، ف أجبته ، حتي تغير لون وجهه و ســألني إذا كنت عبد جديد عند "جاسر بن قاصد" ، ف أكدت المعلومة ، و حاول تغيير دفَّة الحديث ، و لكني أصررت على المعرفة ما غير حاله فجأةً ، ف أجابني :

- لا شيء ، و لكني اسمع - و العلم عند الله و بعيد عنك الشر - أنهم ؛ لا يعيش لهم عبيد .

***

رجعت للدار و انا لا أفهم معنى ما قاله الرجل ، و عرفت أني لن أستطيع الإستفسار مادُمنا في نور الصباح ، ف لن يتكلم معي احد ، صـعدت إلي سـيدتي بالطلبات و عاينتها و اعجبها التفاح و قضـمت واحدة بطريقة شهية أكثر من التفاحة نفسها ؛ و طلبت مني أن أكملها من حيث قضـــمتها ، فعلت كما أمرت و الخوف يتخلَلُني و نظرتها تتوغل في أدق حواســـي ، حتى طرقت "زهيرة" باب الحجرة و إقتحمتها بالخطأ ، ف إســـتأذنت من فوري هَرِبًا من ذلك المأزِق .. نزلت الى جُحري أســتغفرُ الله و أمســح وجهي من عرق يتصــبب كالحِمم ، إنتظرت أن يأتي الليل بفارغ الصبر ، و قبل غَبَشُه ب قليل نهضت في خفَّة حتى أتسَحَب لعم "سامر" و لكني حين فتحت الباب و أنار القمر بعض العتمة في الحجرة وجدت "قابيل" مُســتيقظًا يراقبني بنصـف عينٍ مفتوحة ، ف أخبرته أني ذاهبٌ لإفراغ مثانتي ، و بالفعل لم اتأخر حتي لا يَشُــك في امري ، ف أنا لا ارتاح له ، يكفي إسمه لإضفاء حالة من القلق و الغدر .

علمت في اليوم التالي أن سيدي "جاسر" لن يبيت في البيت لسهرةٍ إحتفالية لدى احد كبار التجار ، و إن السيدة "عُلا" مُتَعَلِلَة بمرضها و لن تحضر معه .. طوال اليوم لم يطلب احدٌ مني شيئًا ، و "قابيل" عينه عليَّ كالصقر الذي هفته نفسه على فأرٍ اسود يجري على قالِب من سَمْن ، و في العَشيَّة تحرك سيدي "جاسر" و إنتظرت حتى إنشغل ذلك الصقر عني للحظة ، و ذهبت لعم "سامر" علَّه يفيدني أو يكذب تكهناتي ، و لكن قبل أن اصل أوقفتني "زهيرة" قائلة :

- السيدة "عُلا" تريدك بالأعلى ، اترك أيَّ شيئًا في يديك و اصعد لها حالًا .

***

صعدت و أمعائي تتخبط و تتلوَّى ، وقفت أمام باب غرفتها و طرقت الباب في ادب ، حتى تَغنَّت بكلمة "أدخل" ، دخلت و ياليتني ما ولدت لأدخل .. على ضوء القنديل الساحر الذي يُبَدِد الظلمة و ينثر الدفء في الجسم ، وجدتها تُنَشِف بلل شعرها بعد إستحمامٍ كان ب ماء الورد و رحيق أبهى الزهور ، أمامها المرآة الصغيرة المصنوعة من النحاس المصقول ، و هي تتابعني بعينها بدلال ، رائحتها نفاذة تخترق القلب و أعضاء أخرى تهلهلت في خضوع ، وقفت و ألصقت ظهري في الباب حتي احتمى به ، و قامت برشاقة و نعومة زغزغت اهوائي المبعثرة من القلق ، إقتربت مني حتى شممت رائحة نَفَسِها الخلاب ، الذي جدد هواء صدري ، جعل عقلي يتخلله الخدر المُريح للنفس ، لامست يداي الخشنة ب يديها المرمريتين ، و قاربت يداي من فمها لأتحسس شفتيها الزهريتين ، و اركز بصر عيني على صدرها الحليبي ، كُمثري التدوير؛ البارز من قميصها الأبيض الفضفاض ، المُشِف لما تحته و المُشفي للحرمان و المُأجِج لذكورتي اليافعة ، كانت تُحِفُّها التُحَف في كلِ شبرٍ فيها .. حركتني بالسحر الخفي في نظراتها حتى السرير ، و انا بلا إرادة ، أرفع راية الإستسلام ب لونها الأسِر ، أجلستني بجانبها و لم يفصل بيننا غير رُكبَة ثَنَتها لتجلس عليها ، و هي تبدأ ب فض

ما ألبسه على عاتقي ، شعرت بالسخونة تسري فيَّ و يدها البضَّة الباردة تلمس جسدي المُشتعل و تدفق منه نارًا مُضرَمة عذبتني ، بدأت بتمهل مميت تُقَبِل رقبتي الفحميَّة اليابِسة المُعطرة برحيق الخروب ، تداخل و تنافُر ألواننا كان مُلفتًا مميزًا ، حتي وضعت يدها على سر الداء المُنتصِب بالأسفل ، و كانت أول مرة تَمسه مرأة ، حظه أن الأولى تكون بهذا الجمال ، تضغط بيدها عليه ، تُعَنِفُه ، تقيد مجراه الباعث ب ماء النار ، تركتها تنهل من سوادي و تلحسه و كأنه مُطَعَم بالبرقوق و البلح الرَطب ، و لكن ... تاه فكري فجأة ف صوتين تداخلوا في عقلي ف ابعدوني عن واقعي بمسافة الأف الاميال ، صوت عم سامر يقول : "لن يخصوك .. ف هم يعتبرونك فردًا من البيت .. إلا لو اثبت العكس" ، و صوت بائع التفاح يتردد من بعيد: "و لكني أسمع أنهم ، لا يعيش لهم عبيد" ، وخيالٌ ل أمي و إخوتي الصغار يبكون على أطلالي أمام مدفن لست مدفونًا فيه أصلًا ، أفقت ، صحوت من غفلتي التي كادت أن تُنهيني ، كخنزير فَرِح بتفاحة ف وضعوها في فمه بعد شويِه على مأدبة الطعام ، إنتفضت ، و أزحت وجهها ب أدبٍ و رفق ، و وقفت بعد أن عَدَلتُ من هندامي و أعتذرت لها ، ف إني لا أستطيع أن أفعل ذلك ، ف هي أمانة ؛ و حُرمة زوجها ايضًا ، و لكنها لم تيأس ان تردني عن سلامة نيتي و عادت تراودني عن نفسي ، و حاولت أن امنعها بالذوق ، و بعض القوة حتي وصلت إلي الباب ، الذي لم ألحظ كل هذا أنه توارَب بالفتح بعد أن أغلقته بنفسي ، أكملت فتحه ف وجدت السيد "جاسر" واقف وراءه يُراقبنا ، سقط قلبي من علِّ و سلم على سكان جوف الأرض من الخوف و الصدمة ، دخل الغرفة و في عينه شرار و أغلق الباب ، ثم قال دون أن تتغير ملامحه العابثة المُتجهمة و هو يشاور ناحية السرير بهدوء و ثبات :

- أكمِلوا ما كنتم تفعلون .

***

لا أفهم ، هل يريد قتلنا على ذلك الوضـــع المُخجِل المُخِل ؟! ، فليقتلني مرتـديًا ثيـابي على الأقـل ، لم يمهلني المزيـد من الوقـت للتفكير ، صـــرخ في أن أكمل ما كنت بدأته ، شـــدتني الغانية إلي السرير بعنف ، ازاحت عني ستر نصفي الأسفل ، و بدأت تعمل و انا ب كل كياني في عالم أخر ، انا فعلا لا أفهم ما يدور ، و ما ذلك التفاني و الإخلاص في العمل الذي تقوم به تلك المرأة أمام زوجها ، مع عبدها ، بعد ما تأكد من إســتكمالنا في تتابع ســليم ، جلس على مقعد وثير و أراح ظهره و تمعن بهوادة ، و شـــعرت من بين ثناياه أنه مستمتع بما يدور !! .. أصـبحت كالعجينة اللينة ، المنتصـبة في أجزاء معينـة في يد ســيدتي "عُلا" زوجـة ذلك الرجل المُتابع في صــمت ، تُغيِّر من الوضــعيات ب تفنن قاســي على أولى تجاربي ، تتمرمغ في عضوي كما المُمسِكة ب صولجان الحكم - المصنوع من الحجر الأســود - الذي يهبها القوة و الســعادة ، حتى بدأنا في الجدِّ - دكّ الحصــون - ، قلبتني على ظهري و جلســت عليه مُتمكنه منه و محاوطاه بسدٍ منيع ، تتأوه ب غنج ، صـوتها طال عنان السماء ، و كلما كانت تظهر الإستمتاع كان وجه زوجها يتلوَن بالأحمر بالتدريج ، حتى زادت من سـرعة تمطيها ف إلتهبت شـهوتها اكثر ف شـقت صـراختها الأذان ، مع غيابي في بحور النشوَة و تيه الدفـء الساري في جســمي الشَـبِق ، فجأة إبتعد جمالها عن مرأى عيني دون ســابق إنذار ، و وجدت سيدي يشدني من ذراعي ب غلٍّ و قادني ب قسوة شــنيعة إلي الغرفة المُلاصــقة لما كنا فيها ، عاريًّا اكثر مما ولدتني أمي ، فتح الباب و ألقاني دفعًا على الأرض ثم أغلق الباب ب عنف ، و بدأت في تبين ما حولي في الغرفة المُظلمة ببطء ، أسـواطٌ كثيرة مُختلفة الاحجام ، سكاكين صـغيرة متنوعة الاشكال ، مُجسم للصَلْب ، دلو به زيت يقطر ، ماذا يعني كل هذا ؟! .. و قبل ان اســأل ، كان ســيد "جاســر" أمســك بالســوط و ألهب به بطني على غفلةٍ مني ، صـــرخت من المُفاجأة و الألم اللامُتناهي ، و قبل أن أســتوعب ما حدث نزل عليَّ بأخرى على فخذ قدمي اليُســرى ، ف إنجرح حلقي من صـوت التألم المُختنق الذي لا يُهدئ منه صـراخ ، ماذا تفعل أيُها المجذوب الأحمق ، مـاذا تفعل ؟؟؟ ، بدأت أتلوى محـاولًا الإبتعـاد

حتى أعثر على أي شيء أحمي به نفسي ، ف نزلت الضربة الثالثة على ظهري الذي نفر منه الدم ، و ملأت الدنيا صـــراخًا و عويلًا ، حتي غيبت عن الوعي و هو يحرك يده بالضربة الرابعة .

***

بعد ثلاثة ايّام من الحُمّى و السـخونة الشـديدة ، مع الكثير من الخطرفة - كما حكى لي عم ســامر - بدأت أفيق ؛ مع علَّتي و الم جسـمي المُميت من حسـرتي ، على حصـيرتي ، إعتني بي عم " سامر" ، ضمدني و لفَّني بالخِرَق و دهن جسمي بالاعشاب المُسَكِنة للألآم المُلتهبة ، و غذتني "زهيرة" ، كما لم يحدث لي من قبل ، لأستعيد صحتي بشكلٍ أسرع ، و قرأ لي "قابيل" أوراقه العلمية ليسـلي لياليَّ المُملة المؤلمة ، و فهمت ان ما كان يمنعهم عني هو عدم تلقيَّ لعملي الحقيقي بعد ؛ و الأن أصـبحت واحدًا منهم بحق ؛ كما من سبقوني لدار الحق ، و في اليوم الخامس بدأت أصلب طولي بإنحناءٍ خفيف ، و حركتي تستحيل لوجعٍ جهنمي ، و لكن لم يصبر سـيدي على تدَلُلي أكثر من هذا ، أمرنيً ب جلب طلبات سـيدتي المؤجلة في التوِ و اللحظة ، و اوصاني ب كتمان السر ل مصلحتي و عافيتي و طول عمري .. فكرت في حينها ان أهرب ، و قبل خروجي كأن عم "ســامر" قد قرأ أفكاري المتهورة ف نظر لي ب خوف أن لا أفعل ذلك ، و الحقيقة لم تكن بي القدرة على ذلك في تلك الحالة المُضـنية .. ذهبت للسـوق و خطوتي أبطأ من حركة كعوب نملة مُسِـنَّة ، و وجدت قدماي تأخذني لأخوتي و لكني لم أجد منهم احدًا مُتبقي ، و من ثم مررت على بائع التفاح الذي بلغني ب مُسـتقبلي و إذبهللت من معلوماته و كذبتها ، و حين رأني أعرُج ب وجهٍ متألم احضر لي مُسرعًا كُرسي من الخشب – ك رُكام قَش - و كأنه كان متوقعًا لي ذلك ، أجلسني ، و كان يريد أن يسمعني و لكني لم أكن لأتكلم ، ف أنا لسـت ب ناقِص ، كذبت عليه اني بخير ، فقط أذيتُ نفسـي بالخطأ في سـهوٍ عقيمٍ مني ، لم يُصـدق ، هربت منه و من أسـئلته مُتعلِلًا بالتأخر ، و بعد ما جلبت الطلبات ؛ وقفت أمام البحر الذي منه أتيت هنا ، وعدني بالكثير و خلى بي و أحرق جميع

سُـفُني ، ماذا فعلت لكل هذا ؟ ، على من جنيت لأجني كل هذا الكره ؟! .. رأيت في طريقي المُلبَد تلك الحُفرة العميقة ، التي توصِـل بين شـاطئ الرمال و أعماق البحر من الناحية الأخرى ، و رأيت نفسـي بها و فيها ، حفرة ضـئيلة من رملٍ منثور حاولت أن تكون بحرًا ، ف أصبحت عدَمًا مُنعدِمًا .

أسـلمت المُشـتريات ل "زهيرة" من الخارج حتى لا أتعامل مع هؤلاء القوم الجبابرة في حدود المسـموح ، أعطتني غدائي الذي أصـبح زائد عن الحد ، لا ينقص إلا أن يكونوا يعلفونني لأكلي قريبًا ، ف لحم الرجال السـود به مفعول السـحر لكل من يطلب الشـباب الدائم و الفحولة المأمولة ، عافَتني نفسـي عن الطعام بعد تفكيري الأسود هذا ، إختليت ب نفسي على الحصيرة و كلام "قابيل" و هو يقرأ تخاريف الأقدمين ، و ينسـج تفاصـيلها في مُخيلتي ، عن أشـخاص كافرة في قديم الأزل بحثوا عن ربهم ف عبدوا النار و الوثن حتى إنتهوا ب البقر و الخنازير ، عليه العوض ، خرجت للبوابة ، لأتكلم مع من يصـبرني على وجودي في هذا البيت الكافر اهله ، جلست و صب لي الشاي الثقيل ، و أشعل بعض البخور عله يطهر الخبائث من خبثهم ، كان يعلم أني أحبِسُ كلامًا يسـلخ روحي و عقلي ، ف تركني افضـفض بكل ما إعتمرت ، عن زوجة فتيَّة تحب الاحباش و إعتلاء صـولجانتهم ، و زوج عقيم لا يعرف من فنون الجنس سوا المراقبة ، و حين يشتد تمتعها يهيج على صوتها ، و يَغير ممن يطؤها ، ف تصحو فيه نزعة تعذيبية سادية مُجهزة ب كل أساليبها ، يعشق سماع الصراخ و التألم ؛ لهذا إذًا لا يملك إماءً و جواري الفاسِق .. هل هذا طبيعي يا عم "سامر" ؟! ، هل ما حدث معي أمرًا مُستَسَاغًا ؟!! .. قال أني عبد ، ما عليَّ ان أُؤمَر و اطيع ، أما بالنسـبة للتعذيب ف هذا المعتاد في حال العبيد يجب ان لا أسـتغربه كثيرًا ، و كثيرًا ايضًـا ما يكون هذا سـبب موت العبيد ، خصـوصًـا الذين سـبقوني .. حسـنًا ؛ إذا ف انا مَلقى ل حتفي بلا فرصة للتفاهم .. بعد خفوت حديثنا ذو لا فائدة سوا الفضفضة العقيمة - كالسيد جاسر - ، سمعنا اذان الفجر ، كنت قد قاطعت الصلاة منذ

ركبت تلك السفينة الملعونة و تاهت مني القِبْلَة ، أخذ عمي "سامر" ب يدي و صلينا جماعة و انا جالس على الكرسي كالعجزة في عز شبابي ، إنتهينا من الفريضة و هناك ضوءٌ من نور نفذ و شقشق في قلبي ، كان على ما أعتقد الإيمان .

بداخلي سخط ، و غضب ، و إحساسٌ بالظلم لا يسعني و يفيض مني ، من ضئالتي التي شعرت بها ، بعد يومين طلبتني السيدة "عُلا" مجددا في قلب الليل ، نظرت لأهلي الثلاثة في البيت و عينهم تُغَرِب من الحزن ، على ما سأنزل عليه من حال ، صعدت و طرقت الباب ؛ و لم يكن هناك حاجة ل تخفي سيد "جاسر" كالمرة الفائتة ، ف جلس أمامي في بجاحة منقطعة النظير ، و هو يداعب بيديه إصبع إبهام نبت بين منتصف فخذيه و لا أمل في إمتداده شِبرًا أزيد ، و السيدة "علا" متحلية بالأحمر ك جوهرة من العقيق ، و ما أن دخلت لم تتركني لحظة ، كنت أتمنا أن يتأخر الوطأ او لا نتطرق له مهما زاد عنفواننا ، و لكن لا فائدة إرتادت عامود الساوَري و تغنت بالصراخ و التأوه ، و الألوان تضرب وجه زوجها المُهتاج مجددًا حتى إنزاحت "علا" من المنظر ، و شدني سيدي و ذهبنا لمكاننا المعلوم ، هذه المرة لم تكن بها مفاجأة ف كان عليه أن يحرص مني ، ف ربطني في مجسم الصلب و تفنن في توزيع اسواطه و تعذبت في كتم اصواتي حتى يسأم مني و يرحمني ، و كالعادة تاهت الرؤى و وجدت نفسي على الحصيرة المؤلمة للمجلود ، و عم "سامر" يتأمل جروحي الغائرة ب تألم ، و الطعام كميته تكثر ، و انا أعافه ، و طلبت في فترة سهدي أن يقرأ لي "قابيل" بعض السور من القرآن حتى اتعافى من ما أنا فيه ، كانت الأيات و كأنها تحدثني ، تصبرني ، توعدني بالخلاص ، و تعافيت في فترة أقصر من الفائتة لسوء حظي ، و رجعت للمشاوير و السوق ، خرجت و هرولت بقدر قدرتي حتي ألحق صلاة الظهر في المسجد الكبير في حي سيدي بشر ؛ الذي يرضخ بجوار البيت ؛ و رأيت الشيخ "طه" بعدما إنتهى من الصلاة جالسًا يُسبح و يستغفر ، كان سَمِحًا مبروكًا ، متواضع و أميَل لسن الشباب - كما وصف لى عم "سامر" - ، ف أحببت أن

أعرف منه موضـــعي في جهنم بما أفعل في دنياي و تلك النجاســـة ذات الرائحة المُعتقة بين فخذاي .. ف تحدث معي ب هدوء و رأفة هدأتني ، قائلًا :

- مهما كانت الصعوبات يا أخي "مسعود" ، لا تقطع الصلاة ، ولا تغضب الله .

= انا أريد ذلك ، و لكني مجرد عبد ذليل ، و هذا هو المصـير الذي أختاره ليَّ الله .

- بل قل أنه إختبار و إبتلاء ، ليرى الله درجة إيمانك و تقواك ، و إستعانتك به و التمرد على ما يغضبه .

- و كيف لي أن أرفض الأمر ؟ ، و في هذا إضـــطرار ليس برغبتي .

- هذه حُجة الضـــعيف يا اخي لكي يحلل لنفســـه بعض من خطاياه ، إعتصـــم بالله عن ما هو خارج الفطرة الســـليمة ، لا تقرب الزنا ، ولا تتهنا بالفحشاء و المنكر ، و لو كان مزين في عينيك ، ف ما بالك و انت كارهه ، لا تقرب ذلك الفُجر يا "مسـعود" مهما حدث و تخوَفت ، إتقي الله يجعل لك مخرجًا ، ولا تخف يا "مسعود" ، إن الله معنا مادمنا نفكر بالخير و نراه في كل تصـــرفاتنا .. عليك بالتوبة ، و ثِق أنه لن يتركك و سينصرك على القوم الظالمين .

***

واظبت على الصـــلاة في البيت ، حاضِـــرًا جالسًـــا ، و لحقت ما إستطعت صلاته في المسجد ، روحي إلتئمت جروحها ، و جسمي يفنى ، إمتنعت عن الطعام ، و قالت لي الســـيدة "زهيرة " : "أنت تتعمد قتل نفسك و هذا ل حرام عليك ." .. و هل ما أفعَل و يُفعَل بي هنا ؛ حلال عليَّ يا ســت "زهيرة" ؟! ، كل ما في الأمر أني لا أريد أن أنهل كالخنزير في قذورات النفس و لو كان وســـطها تفاحة

تُسكِرني ، قبل سكرات الموت ... هدأ هياج سيدتي - الجميلة ذات الثُقب الغائر - أخيرًا في هذه الأيام ، ف عشمت نفسي أن تكون قرفت مني ، أجلس ليلًا مع عم سامر الذي كان لي خير صديق ، و تطيب بخاطري ست "زهيرة" ف تكون لي بديلًا عن حنان الأم المبتعدة ، و أجلس لأقرأ على يد "قابيل" ، و أتعرف على اشخاصٍ جدد في السوق أصبحوا يعرفونني بحالتي المستعصية ، و يزيد الشيخ "طه" من إيماني ، ف يقترب نور الله من قلبي أكثر ، جسمي نقص عن نقصانه النصف ، تصفى ، و بدأت اقوا على التحرك ببعض من صحتي القديمة ايام الحبشة ، التي لا تعوض ، ليتني بقيت عازب مُريد الفقر في وطني ؛ ولا أني أتغرب ف أتزوج الغنى ذو الوجه المحروق البشع ، أخذتني الدنيا بيعةً و شروَة و لم تسأل عن رأيي ، وضعتني في الصعب المُهلِك و تركتني لأتصرف انا ب اهوائي الضعيفة ، و كما قال الشيخ "طه" لي .. انت من بيدك الإختيار .. و قد إختار العبد الاسود "مسعود" طريقه يا أهل البيت ؛ بعدما نداه الله و هداه لسبيله .

هَزل جسمي من قِلة الغِذاء ؛ ف قد فقدتُ شهيتي ، أصبح يضيق صدري من تنفس رائحة المكان ، أُصلي بكل جوارحي علّه يسامحني و يغفر لي ما بدر مني .. حتي أتى اليوم البيّن ، و بدأ ب "زهيرة" و هي تصر على إطعامي و كأنها تغصبني ، و لكني رفضت إصرارها ، حتى أفهمتني أنه أمرٌ من السيد "جاسر" لإنه سوف يطلبني الليلة ، بلعت ريقي بأعجوبة ، و تركت الطعام كما هو ، ذهبت لحجرتي لأقرأ القرآن ، أدعي الله أن يثبتني ، أن يدعمني و يقويني على إختياري ، و سريعًا جرى الوقت حتي عَسعَس الليل بظلمته البهيمة ؛ الكئيبة المُضلِلة ، كان "قابيل" يجلس ب جانبي يحاول أن يهدئني و يزيل عني بعض الهم الذي ذاب فيَّ و تشَرَبَته روحي ، حتى سمعت وقع الخطوات البطيء المُقتَرِب ، و دخلت علينا "زهيرة" مرسال الاستدعاء و عينها مكسورة ؛ مغرورقه بالدمع .. مشيت ، و قبل أن أدخل للمنزل نظرت للسماء ، و كانت مملوءة ب غيوم تُنذِر ب سيول .. نظرت للقمر الذي تلتهِمَه الغمامة

؛ و نظرت لله علّه يراني و يسمعني .. و توَكّلت عليه ، و دخلت ب قدمي اليُمنى ، كما سيدخلون بي يومًا قبري ؛ عن ما قريب .

طرقت الباب ب رِفق ، أمرني بالدخول ؛ فأطعت الأمر ، وجدته سابح في العرق و السيدة "علا" تداعب نفسها في إنتظاري ، غضضت البصر عن ما حفظت من طعم تفاح الجنَّة ، و شاوَرَت لي بالإقتراب ؛ بإغواءٍ مُعذِب .. تمنعت ؛ ف لم أسمع أمرًا .. حتى أمرني سيدي أن أقترب منها بتوتر ؛ لسخونة الإبرة الدقيقة في يديه الكبيرة التي تعذبه ، إقتربت غصبًا ف قد أمرني ، حاولتْ شدِّي ، ف تيبستُ و تشبثت في الأرض ، صرخ فيَّ هذه المرة :

- ماذا بك يا قذارة البطن أنت ، ألم تسمع أمري ؟!! .

= اعذرني يا سيدي و لكني لن أستطيع ، فقد قررت التوبة عن ما يغضب الله .

- ماذا تعني يا ابن العاهرة ؟ .

= أعني أني عبدك ؛ هذا صحيح ، و أُطيعك في ايِّ شيء تأمر به ، و لكني أرجوك أن تبعدني عن هذه الأفعال ، فقد أسلمت وجهي لله ، و لن أرضا أن أصلي له و هذا الذنب يثقل عاتقي .

- اه ، بالطبع لك كل الحق ، ادعو لك أن تكون توبة نصوحة يا عزيزي .

و نزل على وجهي ب لطمة من يده الجبَّارة المُتجَبِّرة ؛ رنحتني حتى كدت أقع ، و لكني صمدت و تماسكت لا أعلم كيف ، حتى أكمل حديثة قائلًا :

- إسمع يا ابن المرة ، أمامك فرصة أخيرة ، إتبع الأمر يا عبد قبل أن أذيقك من العذاب ما لم تتوقع أن البشر وصلوا له .. هِمَ بها ؛ هيا .

كتمتُ دموعًا تريد أن تدفق من الخوف و الألم ، حتي كدت أستسلِم و أهِم بها ، و لكن لساني كان أقوى مني و مؤمنًا عني ، ف وجدت نفسي أقول :

= اسف يا سيدي ، و لكني لن اغضب ربي مجددًا .. أعذرني.

- حسنا ، أنت من إخترت نهايتك سريعًا ؛ أسرع من كل الذين سبقوك.

أمسَك ساعدي بخشونة و عُسر ؛ ف كَتَف من حركتي ؛ و انا واهنٌ مستسلم ؛ خاضعٌ لمصيري ، ثم وَلاني قبلةً لا أرضاها ، أدخلني الغرفة و لم يغلق علينا الباب ، حتي تسمع زوجته شيئًا من قدراته علي إصعار العبد و إظهار فتوَته البائدة في أيّ شيءٍ كان .. أمرني أن أتوجه الى مُجَسَم الصَلْب حتى يربط يداي ، و لكني أبيت ، رغم أنه أمر ؛ و لكني لن أضمن ما سوف يفعل إن سلمته ظهري .. زاد جنونه ، أمسك سكينه و بدأ في تقطيع ملابسي على جسمي الذي جرحه بلا اي تأثر ، ثم و وضع السوط الرفيع المُلهِب و اسقاه الزيت ، و بدأ يضرب ، كانت ضرباته تؤهلني لإرتقاء السماوات طِباقًا ، الألمُ لا يحتمل ، ولا يستقر في منطقة ، الدماء تنفجر مني ينابيع تروي الأرض الحجرية التي لا تبتلعه ، و الغريب اني واقف ثابت ، لا أتأوه ، لا ترمش لي عين ، لا اظهر ما بداخلي ، حتي لمحت في عينيه إستغرابًا يقرب للرعب ، سبحان من صبرني ، و قواني ، و قبل أن يضرب الضربة القادمة أمسكت يديه ب يدٍ دامية لطخت ملابسه الثمينة الغالية ، و نظرت في عينيه ب قوة لم أعهدها فيَّ ، بدأ يتصاغر من قوة ضغطي عليه ، حتى قذفته غدرًا ب قوة على الأرض ، و هنا أدركت أني لن يمكنني المكوث هنا لحظة بعد الأن ، أطلقت قدمي للريح ، نزلتُ عتابات السلم في لمح البصر ، حطمت الباب الذي به يحتميان ، بقدرة قادر ، جريت إلى البوابة في عز المطر الهامر الكثيف و الرعد يضوي وسط الرياح الهوجاء ، حاول عم "سامر" منعي و لكني ابعدته بأرءف شكل امكنني تسهيله في حالتي حتى لا أؤذيه ، و هو يصرخ فيَّ أن لا أفعل ذلك ف سوف

أموت .. و بعد أن هربت ببضع خطوات عن البوابة سمعت صراخ السيد "جاسر" في قابيل و عم "سامر" أن يتبعوني و أمر أن يرجعوني حيَّ أو ميتًا ، و هو سيبلغ رجال متولِّ الإسكندرية ، جريت ، لم اهاب ، و دمي يغسل الأرض المملوءة ب روث الحيوانات و البشر ، يطهرها من افعالهم و خطاياهم المُشينة ، لبعض الوقت ، لم أستغرب عويل "قابيل" من خلفي و هو يحاول إمساكي ، و لن ألوم عليه ، ففي الأخير هو يخاف على ما في يديه من نِعَم ؛ مازال ملهيًّا في دنياه الفانية ، و لكني كنت أسرع منه رغم نزيفي الحاد الذي يزيد من هرولتي مما يسرع من نقاصنه ، وصلت للشاطئ ، الذي منه أتيت هنا ، و بدأت منه رحلتي و خلاصي ، و كالتائه الذي عثر على حضن أمه ، عثرت على الحفرة التي تحاول أن تكون بحرًا ، قررت أن اختبأ فيها حتى بزوغ النهار ؛ و في نوره سوف أعرف ما عليَّ فعله للهرب من مصر بإذن الله .

قبعت في الحفرة ، و المطر يكاد يملأها ؛ بعدما صعد و غطى فائض ماء البحر نصفها ، و ملحه الذي يأكل في جروحي ، و الماء يصفي ما بقى من دماءٍ في جسمي ، و أسمع أصوات خطوات عديدة ، فيما يبدو يبحثون عني فقد تخايلت أني سمعت صوت "قابيل" من قريب .. طاحت في بالي أمي ، المسكينة التي لم اودعها و لم ألقي عليها السلام ، سأموت و لن تعرف ، ف لن تدعو لي حين السؤال ، و إخوَتي ؛ كان بودي أن اشدد عليهم ألا يتركوا يومًا بلادهم ، أن يعشعش فيهم الفقر أفضل من أن يستبيحهم البشر في الغربة و العبودية ، و أبي ، الأن فقط انا اسامحه ، ما كان يراه بالخارج حين سفره بالفعل كانوا وحوشًا جاسرة ، الفارق فقط عن حكيُّه أنهم وحوش بني الإنس ، كانوا بشر ، الأقسى و الأشرس من الضواري .. أرجو أن أكون نجحت في إختبارك يا رب ، و أرجو أن تسامحني ، و ترحم ضعفي ، و تسكن ألامي ، و أملي بك متنامي في مغفرتك التي وسعت كل شئ ، أسلمت وجهي إليك ، و أمِنْت من كل سوء ، و أمَنْتُ بقدرتك و أستطاعتك ، أمْنْتُ على اهلي في حضرتك و برحمتك و أنك لن تُضيِّع حقي في السماء او في الأرض ، و أسلمت

روحي لخالقها و بارئها .. أشــهد أن لا إله إلا الله و ان محمد عبده و رسوله ، و أشهد أني عبدك وحدك ؛ لا سواك .

♤ ♤ ♤

٣

● الطفل ●

١٢٨٥ هـ

نامت أمي و لم تستيقظ ، نديتُ عليها و لم تسمعني ، كنت أنتظرها حتى أن توبخني لإنزعاجها و لكنها إسـتكانت و إطمئنت حتي أدفئها

أبي عندما عاد ، و غطى وجهها ، الذي لم أره بعدها مرة أخرى .. أخذني بعدما مشينا ب صندوقٍ له رائحة المِسْك ، إبتل فرشه الأبيض ب دموع ابي ، الذي لم اره يبكي قط ، و دائمًا ما كان ينهرني إن رأني أحاول ان افعل ذلك ، مسكت يده و قبلتها ، أريد أن أطيب خاطره ، أن أحضنته لكي يهدأ ، نظر لي ب حنو و مسد على رأسي و بعدها تماسك بعض الشيء و هو يردد التشاهُد .. وجدت الكثير من أقاربنا و جيراننا من النساء مُتشحين بالسواد ، و اصواتهم تعلو بالصراخ و الدعاء ، خالتي "صابرة" و عمتي "زبيدة" ، و رجالهم و أولادهم الكبار؛ الذين لا يلعبون معي .. نزلوا بالصندوق إلي قبو مظلم تحت الأرض بعدما خلعوا نعالهم و تشاهدوا ؛ و أقروا بأنهم لله و له راجعون ، خرج ابي و التراب يغمره و المُقرِئ يقرأ سِوَر طويلة مُعجِزة لم أحفظها بعد من القُرآن ، و زميله يروي الصبار و الحَبَق و الريحان بالماء حتى ملأت رائحتهم المكان ، كنت ابحث عن امي في الموجودين ؛ لا وجود لها - رغم أني أشعر بها ب قربي - ، هذا افضل ، ف أنا لا اريدها أن تحزن كهؤلاء النِسوَة البكائين .. قرأنا الفاتحة و دعونا بالثبات عند السؤال ، و وَزَعَتْ بعض النساء أقراص الرحمة لإطعام الفقراء و المساكين الساكنين في تلك المنطقة النائيّة المُقبِضة .. رجعنا إلي البيت و بحثت عن امي في جميع أرجاءه ، ليس لها من أثر ، و جريت للسرير ف قد تكون مازالت نائمة ، مُتعَبة ، و كان الهواء يملأ فراغها .. سألت ابي عنها ، ف نظر لي ب عين مُغرِبة تهرب من رؤيتي و تتهرب من الإجابة ، و صوته يجهش ب وَهَن ، يتقطع من الحزن ، مثلي حين أتكلم و انا أبكي ، ف إعتراني القلق ، حتى رد بأنها سافرت .. أين ؟؟ .. إلي السماء .. متى سمعت تلك الجملة من قبل ؟! .. حين توَارَت جدتي و أخبرتني امي انها سافرت لذات السماء .. و هل لي أن أسافر لهم عن ما قريب ؟ ، ف رد ابي اننا كلنا مسافرون في حين مكتوب .. قضيت تلك الليلة مُرتاب .. الناس ينظرون لي في الطريق ب شفقة و يطبطبون عليَّ ب رأفة لم أعهدها فيهم .. صمتُ ؛ فأن يُحِبُك الجيران ل شيءٍ جميل ، و لكن ليس فَجْأةً هكذا بلا مُقدمات .. أكلنا السمك الذي أعدته لنا أم

"ميخائيل" ، و هي جارةٌ كريمةٌ ؛ من احباب امي العزيزة ، كثيرة الاحباب ، و بعدها جلستُ أحفظ ما طلب منا الشيخ "عبدالقادر" - مدرس اللغة العربية و الدين - حفظه من سورة النور ، التي سُمِيَت أمي على إسمها كما حكت لي منذ يومين ، حين كانت تُساعدني فيها لتُيَسِرُها عليَّ ؛ قبل أن تتعب و تقرر السفر ، بلا سابق إنذار ... إستيقظت ليلًا من النوم على أبي يدخل غرفتي و هو يتسحب ببطئ لينام ب جانبي ، كما كنت أفعل حين أرتعب من الظلام و أندس بينهم - ابي و امي - في السرير لأستجلب الأمان لنفسي ، و نِمنا سويًّا ؛ و لكن بدونه ، ربما لأننا كنا نستمده سويًّا من أمي فقط ! .

***

في اليوم التالي أفطرنا الفول بخلطة البصل و الطماطم ؛ و لكن أبِي أبَى أن يأكل ؛ لم يبتلع سوا لُقمتين بالعدد أمامي لكي يجعلني أستمر في الأكل ، و أخبرني اننا سوف نتنزه في مكانٍ مؤنِسٍ بعد صلاة العصر ، و قبل أن افرح طرق بابنا الهم ، خالتي و عمتي في أنٍ واحد ملؤا المكان بالنواح المُغِم ، كان هناك مثل الإتفاق بينهم ، أن يتحمل بلائي إحدهن أسبوعين في الشهر لألعب مع أولادهم البغضاء و أنسى ما ألَم بي .. ماذا يريدون أن ينسوني ؟ .. طلب مني أبي أن أدخل غرفتي و استذكِر دروسي ، و لكني تنصت و سمعت أبي و هو يقول :

- مسعود لن يبتعد عني ، لا هو يستطيع أن يحيَّ ب دوني الأن ، ولا أنا قادرٌ على تركه ، و لكن الحل يختمر ب فكري ؛ أنتظر فقط الوقت المناسب له .

قبل الخروج ؛ اكلنا الدجاج بالمرق مع الأرز ؛ هادتنا بهم "أم صادق" زميلي في المدرسة ، و "صادق" هو أصدق أصدقائي و لكنه كان متعب ف لم يستطع زيارتي معها ، عفا الله عنه ، بعدها أخذني ابي إلى البحر ، الشاطئ الذي يُحَرِج و يُحَتِم عليَّ عدم نزوله ك باقي الاولاد ، حتى حكت لي أمي - الغائبة - أن والدي كان سباحٌ

ماهر ، يرتاد البحر كالماشـــي على الرمل الطريّ ، و لكن في يوم كان فيه السَـحب غائر ؛ تنافس هو و صـديقه غطسًـا ، و رجع أبي بدونه ؛ بعد ما أغلق عليه البحر بواباته ، ف شـعر أنه سـبب موته ، بلا قصـــد ، و الأداة كانت البحر .. ف فهمت ؛ على ما أعتقد .. و توقفت عن الطلب بعدما اصـبحت اهابه مثل أبي ، و لكن الشـاطئ جميل و أمن ، تنظر منه إلى آخر العالم ، ف في نهاية هذا البحر قد يقع الناس من فوق سطح الأرض ، اجلسني أبي على الرمال و حكى لي يوم أن قابل والدتي اول مرة على ذات الشاطئ ، كان هذا التقابل منذ إحدى عشر عام ، اي كان عمري سالب واحد ، كانت تجلس في هذه النقطة و كان يتابعها من بعيد ، يُسَـبِل لها عينيه و هي في دربِ أخر من الكون ، حتي تشجع و كلمها و كان رد الفعل عنيف ، وبخته و كادت تقتطع منه جزءًا من شراستها ، ف برزت في عينيه أكثر ، ف لو كانت رضـــخت من المرة الأولي لما كانت هي أمي الأن .. و عند طريق الزن الذي هو أمر من الســـحر ؛ نال الكلمة الأولى ، ثم نمى الإعجاب الأولي حتى نبتت الثقة و عُهِدَت الوعود الصادقة ، و أصـــبح هُنا مجلس مقابلتهم ما قبل معرفة الناس ب علاقتهم ، و كان هذا البئر المالح يشـهد على أسـرارهم و كلامهم الحلو ، حتى تزوجا و جئت انا الدنيا ، و ملائتها فرحةً و حُبًا ـ كما عَبَر ـ ، و بعدها بكى في تأثُر من التذكر .. تحركنا ، من ثم تعشـــينا الأرز بالحليب مع مَبشُـــور جوز الهند و الزبيب ؛ من دكان عمي "بكري" المُزدَهِر بزبائنه أمام الشاطئ الحزين .

كانت علاقتي بأبي تكاد أن تكون مثالية في هذين الشـــهرين ، و تحسـن حفظي و إسـتذكاري ، و لكني أفتقد أمي ، و اسـأل عنها كل يوم علَّها تفتقدني و ترجع يومًا لتطمئن عليَّ ، كيف إســـتطاعت إهمالي كل هذا ؟ انا حزين منها ، و لكني سـأسـامحها حين تعود ؛ و تُعِد لي ســـد الحنك ب ماء الورد لنأكله ســـويًّا كما كنا نفعل كل ليلة خميس ، تعالي و لن ألوم .. لكن لا تتركيني هكذا وحدي .

***

جالسني ابي بعد صلاة المغرب ب حضور خالتي و عمتي ، و فاتَحوني في امرٍ لم استوعبه ، يريد أبي الزواج .. ماذا ؟!! ، و ماذا عن امي ؟! .. قالت عمتي في قوة و تسلط : "امك تعرف و موافقة" .. و لماذا تتزوج يا أبي ؟ .. ردت خالتي ب هدوء مُتَضَرِر : "والدك مازال شابًّ في مقتبل حياته يحتاج إلى زوجة و إهتمام و من يحضر له الطعام و يعتني ب هندامه و يريحه يا مسعود" .. و هل لا ينفع حدوث كل هذا بدون زواج ؟! .. أكملت عمتي ب نفاذ صبر : "لا و ليس من حقك أن تناقش ابيك في أقل حقوقه" .. قاطع ابي حديثها المستفز قائلًا : "أنا سأتزوج من اجلك انت يا مسعود ، حتى لا تشعر أن هناك شيئًا ينقصك ، حتى تجد أمًا جديدة" .. أمٌ جديدة ؟!! ، ماذا بك يا أبي تتكلم كما زملائي الذين يتشككون في عودة أمي لنا ، ألا يكفيني همي معهم لتزيده انت ب كلامك هذا .. و من سوف تتزوج يا أبي ؟ .. ردت عمتي : "(عشم) ابنة عم (بكري)" .. يبدو ان أبي لم يكتفي ب حلوياته المطهوَّة فقط .. لا أعلم عنها الكثير و لكن عم "بكري" رجلٌ طيب يعاملني ب لطفٍ و يضايفني دائمًا ، ف سألت عن ميعاد الحدث السعيد ، ف أجابتني خالتي و الدمع يكاد ينهمر منها : "ليلة الخميس القادم" .. بهذه السرعة ؟! .. ردت عمتي : نعم و ب كفياك مناهدة ؛ يجب أن تفرح لأبيك و تشكره على ما يخطط له من اجلك" .. لم اعرف أني كنت ثقيلٌ عليه لهذه الدرجة ، حسنًا سأفرح .. و قبل أن أذهب لغرفتي سألت ابي : "متي ستعود أمي ؟!" .. ف ردت عمتي : "لا تنتظرها ؛ ف لا يعود احدٌ من الموت يا مسعود" .. ضربت كلامتها قلبي ب سكاكين غرزت فيه و لم يقتلعها احد ، جريت الى غرفتي و أغلقت بابها عليَّ ، و طفقت أبكي و انا اسمعهم يوبخونها على كلامها حتي لا تؤذي مشاعري ، كالراضخين ل قولها ، لماذا لا يكذبونها ؟!! ، لماذا يستكترون الناس عليَّ عودتك لي ؟!! .. و لماذا انتِ بهذا الهدوء و التراخي عن تخليصي من وساوِس من حولي ، تعالي أرجوكِ ، ف قد تعبت ؛ و مللت النداء بلا رد .

***

ليلة الخميس ، و أنوار البهجة تضــرب وحوش ظلام الليل الجاثمة في إنتظاري ، و أصـوات الغناء تعلو على كل نهنهة بكاء ندعت من ذات المُرتادين منذ شـــهرين .. كان أبي ب حلَّته الجديدة و بهاءه و تدريج شعره و تهذيب شاربه الأنيق ، و العمة "عشم" ب فستانها و رائحتها الزهرية و جمالها الخلاب ، و كنت أتمنا ان أشـــاركهم الفرحة ، كنت أتبع خطوات أبي حتى يأخُذني معه في كل خطوة ، ف أنا أشـــعر و كأني غريب مع أني أعرف معظم الموجودين ، و لكن لم يهتم بي أحدهم و نســوني ، و في غفلة مني تاهت يداي من أبي و أصـبح الوصـول له أمر مسـتحيل مع تلك الأجسـام الضـخمة الراقصة ؛ الحائلة بيننا ، جلست على سلم البيت ، أنتظر إنقضاء تلك السـعادة التي لفظتني دون سـبب ، دون أن أبتسم فيها مجاملة حتى ، و في وحدتي إقتربت مني قطة بيضــاء بها نقاط مِشـمِشـية ؛ تقريبًا شـعرت ب غمي ، و جلسـت ب قربي ، بدأت أكلمها عني و عن ما أشـعر من ضـيق ، و قررت أن أسميها على إسمك يا أمي ، ف من قلة ما أمسى الناس يرددونه من حولي ؛ خِفت يومًا أن أنساه ، و بهذا تظلين دائمًا حولي ك تلك القطة .. حتى زاد الهم عليَّ و مال رأســي و ثقلت جفوني ، نِمت ، و حين إنتهي الزفاف عثر عليَّ أبي مكاني ، نهرني على فعلتي النكراء لأنه بحث عني لســاعات و كاد قلبه أن يقف من الخوف عليَّ ، و قبل أن يضــربني هدأته عمتي "عشــم" و قالت اني صـــغير و لن أكررها ، ثم طلبتْ ان يتركني الليلة ولا يُنغِص عليهم اللحظة ، صـعد بي إلى سـريري ، و إنشـغل عقلي عن النوم بفكرة أن تحتل إمرأة أخري غيرك سـريرك ، أرقت ، و بكيت بصـــوتٍ مختنق ضـــعيف ، حتى لا أتعِس ســعادة أبي ، و طلعت الشـمس و لم أحظَ بلحظة سـكينة ، و اسـتيقظا من النوم عليهم رسـم الفرح و حُمرَة خدود الورد ، و انا إحمر وجهي بكاءًا لم يسـمعه أحد .. حتى أنتِ .

***

في أول أسابيع العسل الأسود بعد الزفاف التي أتخذها أبي عطلة - مُسَببة - من عمله ، كنت واجمًا رغم محاولاتي أن أتكيَّف مع الوضع ، كانت عمتي "عشـم" تسـعى أن تهتم بي امام ابي و تبذل قصـار جهدها الحقيقة ، و لكني لم أتقبل ؛ و أقر أني كنت أتصـرف بطريقة بائخة معها ، لا أعلم لماذا ؟ ، هل لأنها تحاول سـرقة دور لا يليق بها في نظري ، أم لأنها إستحوذت على أبي ف لم يعد قريبًا مني كما كنا قبل زواجه .. كنت أتهرب من البيت في كل فرصة سانحة العب مع أصدقائي في الشارع و أعود مُنهمدًا لأنام ، كان البيت خانقًا لي ؛ و يضيق اكثر ب وجود عمتي أنثي العقرب تلك ، عرضت خالتي أن أبيت لديها ف تلك الأسابيع الأولى لأترك أبي يأخذ راحته ، التي لم أفهم سبب أخذها ، و التي سيمنعها وجودي ، و لكني أبيتُ ف قد يقرر إستبدالي ايضًا إن تغيبتُ ايامًا عنه .

بعد ثلاث أسابيع من العسل المأكول ب نهم ، أصبح الطعام شحيحًا بعد أن بدَّد أبي كل ما معه على التلاهي مع العروسـة الجديدة رغم انه كان دائمًا مخشوشِن و مقتصد ، ف وجب عليه النزول إلي عمله مُجددًا لترجع الحياة رغدة علينا ، و لم أكن أعلم أنها بداية لعنتي .. كانت فترة عطلتي الصـيفية ، ف لم يكن نزولي إجباريًا ، ف كنت أجلس معظم أوقاتي في البيت قبل أن ينادوني أصدقائي لنمرح سويًا بالأسفل ، كان البيت مملًا بحق ، اتتبع النمل ، أسرابه و أسراره لأرى كيف يكونون أُسـرًا مترابطة لا تخرج عن حيز السـرب ، أرمي لهم بعض الفَتات لأراهم يتقاسموا حملها ب تعاون و يندثرون في جحرهم المبثوق من شباك بيتنا ، و كان النمل هو أول أسباب معرفتي اليقينة ب عمتي "عشـم" .. إستيقظتْ من نومِها يومها بلا اي هندام ف سبب إهتمامها بنفسها كان في العمل ، رأيتها تراقبني من بُعد حتى إقتربت مني خطوات ، سألتني ماذا أفعل ؟ .. ف رددت بلا روح و ب مُشاكسة أنه لا يخصها .. و كأنه كان غلًا مكتومًا لأسابيع مسكت أذني و لوَّتها كالممسكة ب قرصٍ من عجين ، لم أتوقع رد الفعل ، ف صرخت كالذي يقفز من فوق الأهرامات ، ف

كتمت صـرختي بيدها ب غشـم ، و رمتني أرضًـا و صـرخت فيَّ قائلة:

- إســمع ايها الحيوان المُدلل ، انا لســت أمك التي ماتت و رُحِمَت منك كي أسمح ب تلك المعاملة الحقيرة ، و لست ابيك كي أُدلِل و أطبطب ل كونك يتيم مسكين .. انا "عشم" يا حبيبي .. قبل أن تتكلم فكر فيما سوف تقوله في حضرتي .. أتسمعني يا بن العاهرة .

كتمت دموعي من الألم و لكن لم اصــمت على إهانة أمي ف قولت ب شحتفة الموجوع الباكي :

= لا تســبي أمي مجددًا ، و كل ما فعلتيه ســوف أبلغه لأبي عندما يعود ل يشبعك ضربًا .

قالت و هي تقترب مني حتى تخوفت من الأتي :

- لا فائدة يا عزيزي لن يصـدقك ، ف الملاك لا يُقلَب شـيطانًا في انٍ واحد .. و هو يعلم دائك ، و ان عقلك به خلل مســتحكم من ما جرى لك ، ف تجنى عليَّ كما ترغب و لن تلقى نتيجة مُرضيَّة .

= انتِ لا تعرفين أبي .. سوف يُصدقني .. أنه يحبني أكثر منك

أمسكت ذراعي و كادت تقسمها ب يدها العَفيَّة و هي توسوس في أذني ل تُلقى الحجارة الراجمة على قلبي قائلة :

- كان هذا قبل أن يراني يا فلذة كبده الموهوم ، قبل أن أظهر في حياته ، لأحليها من بعد مراره الذي طغى على حياته ب حبســه معك .. لِما تزوجني يا أبله إلا لو أراد الخلاص من قرفك بأي شكل ؟ ، و قد تحب سماعه حين يقول أنه لم يحب و لن يحب قبلي او بعدي ، أو أكثر مني يا حبوب .

رمتني اخيرًا و خلصت يداي التي أعتصرتها و شربت خُلاصة عظامها ، رضخت و إستسلمت ، لم أنطق لأني لن أجد ما أقوله ، من لحظة ظهورها و انا لم أشعر أن أبي يُلقي بالًا لي ، كأننا أصبحنا أغرابًا بعد ما تعشـــمت في وجوده حولي ، رجعتُ وحيدًا مأزومًا ، أغلقت ب شباكها عليه و لم تسمح لي بالزيارة ، كلامه معي أصبح تقضية واجب ، سؤال بارد عن أحوالي و دراجاتي و ما ينقصني ، يختم بـه يومي قبل أن يَهملني و يجلس معها ، و يعاد اليوم ب حذافيره ، ظننت أنه الطبيعي لأول أيامها معنا ، و لكن كلامها أكد لي أني لم يعد لي ف قلبه قيراط .. و عندما صـــمت ، علمت أنها إنتصـــرت منذ اول مواجهة ، أمرتني ب تعالي أن انظف البيت كله الأن .. ف قلت ب أدبٍ جَم يخرج من مهزوم ؛ لم يســـمح له أباه ب رد كرامته :

- و لكني إتفقت مع صـــادق صـــديقي أني ســوف أنزل له بعد خمس دقائق .

قالت ب نظرة ناهية - من بعد ما جلســـت و لضـــمت قدمها على فخذها - :

- لقد سمعت ما قُلت ؟ .. صحيح ؟! .

سَـمِعت .. و بدأت التنظيف الذي لم أعلم كيف يُفعَل إلا بعدما ادلت لي بما عليَّ القيام به و كيف ، نده عليَّ بعد دقائق صديقي "صادق" ف نظرت لها أحاول أن يصعب عليها حالي ، و لكنها نظرت لي ب قوة منقطعة النظير ، ف وقفتُ عند الشباك و نظرت ل "صادق" و شاورت له دون أن أتكلم أني لن أستطيع النزول .. و سألني بصوت عالي : " لماذا ، هل أنت بخير ؟" .. قبل أن أجيب سحبتني من يدي ب عنف و أغلقت الشباك ، و أمرتني ب المواصلة .. ظللت أنظِف و دموعي تمســح معي ملامح برائتي الطفولية و الغبار المُتراكِم في الأرضـية ، و تأتي من الأسـفل صـيحات الأطفال الفَرِحة باللعب و

اللهو و انا يركبني الهم و يغزو وَسَخ التراب سواد شعري شيبًا .. أين انتي إذا ؟ .. هل يرضيكي حالي ؟!! .

مرت الساعات بطيئة و أنهكني التعب ، و لم تُعطِني لقمة واحدة طول اليوم تسندني ، و منذ أوله لأخره لم تترك لي مجال للتنفس ب حرية او أن أفعل شيئًا برغبتي .. حتى عاد أبي ، و إنقلبت تلك الثعبانة اللاسعة ل عصفور يغرد أبياتًا من الحب و نثرًا عن الرحمة ، و علمت حينها أن حالي يجب أن يختلف كذلك .. دخلت إلى غرفتي و مثلتُ أني نائم ، حتي يتسأل ابي عن نومي المبكر ف يأتي إليَّ مستفهمًا ف أحكي له ما حدث ، و لكن خاب ظني فيه .. أجلسَتَه للأكل و سأل عني اخيرًا و لِما لم أشاركه الغداء ؟ ، ف أخبَرَتْه ب خبثٍ و هو يلوك الخبز أنها طلبتْ مني إنتظاره و لكني رفضتُ و طلبتُ أن أأكل وحدي .. و لكنها إنتظرته حتى يأكُلان سويًّا و تفتح نفسه .. ظللت مُدَعيًّا النوم بعدما أعدتْ له الشاي و جلسا يتحدثان بجانب الشباك يتنسمون هواءه و يخنقونني ب حبس دمي ، سمعتها تدلل و تغازل ، تحاول أن تصل لكلمة سوف تقهر كل أملي ، حين سألته عن مدى حبه لها ، ف رد أن حبه ليس له مدى ، لم تُرضِها الإجابة ف زادت من تمايلها و إستمالته ، ف سألته إذا كان أحب أحدًا مثلها ، ف قال لا ، بلا تفكير ، وصلت و لم تهدأ بعد ، ف قررت إعلان الحرب بمزيد من أساليبها الرخيصة ؛ ف سألته إذا كانت أحب أحد لقلبه ؟ ، ف رد ب نعم ، نعم ؛ كالمرة الفائتة بلا ذرة تفكير ، كالمسحور ، و بعد تلك اللحظات التي أبادت معظم مشاعري ناحية أبي سأل عني مجددًا ف قالت له أني نائم ، ف قد كان يلعب طوال اليوم مع أصدقائه و أنها أعطتني نقود لكي أشتري ما اريد ف تعوضني بذلك عن نقصي ؛ بزيادة المال عن باقي اقراني ، اصحاب الأمهات ، و كأنه اطمئن عليَّ ، إكتفى بالإخباريات الكاذبة ، و تركني ادفن نفسي ب غطاءٍ ثقيل يكتم أنفاسي ، و قررت أن أسمي ذلك الدثار "عشم" لما له من لونٍ أصفر و قسوة ملمس ، و اضمرت انه سوف يَبرَّح سريري من الليلة القادمة .. ف انتِ لم تتركِ رائحتك فيه حتى أبقي عليه ، هل لديكي انتي شيئًا من رائحتي يصبركِ على

فراقي ؟ .. مازلت أوفا منك .. و رغم طول البعد مازلت أثق بكِ .. و أنتظر رجوعك لتنقذيني .

***

مرَّت على تلك الوتيرة أيّامٌ كثيرة مريرة ، إستسلمت ، أصبحت مجرد خادم لا علم له بالحياة لا يأكل إلا سرقة ، لا يطلب شيئًا ، لا يرفض امرًا ، و إن كانت تتمسك بي بعض المراوغة و حاولت التذاكي كانت تُشبِع قوتي المعدومة الموهومة ؛ ب الخوف ، تحكي لي عن أمُنا الغولة التي إبتلعت أمي و تريد مني إبنًا لها ، و أبو رجل مسلوخة الذي ينظرني تحت أعتاب سريري و يصدر صوت التزييق الذي يتبعني عليه ، و الأشباح الشريرة الذين عاشوا في تلك المنطقة قديمًا ؛ و مازالوا يتقدمون بالزيارات لأهلها الحاليين ؛ الخائفين المُرتَعِبين - أمثالي - من سيرتهم العظيمة .. و لو تظلمت أو تذمرت و بدر مني رد لا يعجبها ولو بإيماءه ، كان تجلب شمعة مُشتعلة و تقربها من جسمي و تجعل الشمع السائح يسبح على سطح جلدي الذي إهترأ و ذاب ، حتى تشوَّه .. و كانت تداري افعالها الشنيعة بالضمادات و كأني كنت أُجرَح و أُصيب نفسي باللعب في الشارع حتى زاد الأمر عن الحد ، و أمرني أبي مُنفعلًا بعدم النزول نهائيًا لأصدقائي حتى أرجع للمدرسة ، التي انتظرها بفارغ الصبر .. ف وجدت نفسي محبوسًا بكافة الأشكال ، قاربت أن انسى شكل الأشجار و الأرض و الناس .. كانت تُرعِبُني ؛ تذكرني كل حينة و مناسبة بأني فقدت أمي ، تقول انها ماتت و انها محظوظة لخلاصها مني ، و تزيد في التكرار و السخرية ؛ حتي صرخت فيها أن تخرس ، لقد تعبت ، تألمَت أذناي من سماع الكذب و إجتراع الخوف ، و ذابت روحي في همومٍ لا يتحملها من هُم في سني .. مشتْ خطوات بسيطة إلى المطبخ و رجعت ب سكين ، كبير كالذي تقطع به اللحم و تُشَفيه ، أمسكت يدي الهزيلة و اطبقت عليها و بأشد ما عندها من قوة ، و ثبتتها على الطاولة ، و أمسكت السكين و بدأت تمر به ب شكلٍ بطئ و خفيف على يدي ، تريد أن تقطع اصابعي ، و كل مرة تزيد من قوة إحتكاكها عليها حتي دَمَت يدي من الخارج ، و البول

يسيل من مثانتي و صراخي يملأ ارجاء الكون ، حتى رفعت السكين عاليًا لتنهال بها على يدي و تخلص جزءًا مني من عذابي الذي أراه على يديها ، و قبل أن أودع اصابعي الصغار دخلت في ظُلمةٍ تَمَزَق فيها عقلي ؛ و أغشى عليَّا .. إستيقظت مع وصول أبي للبيت ، و بدأت الصراخ ب شكل مفزوع مُنتَفِض ، أنظر إلى يدي و اصابعي التي إختفت و اقول لأبي ان عمتي "عشم" قطعت ما ب يدي .. و لكني تفاجئت بوجود بعضها ، أعدتُ عَدَهُم مجددًا ف وجدتهم خمسًا كما كانوا ، أمسك بي ابي و حاول تهدأتي ف أفضت له اني لا أحبها و أنها تعذبني ، و رجوته أن يجعلها تبتعد عني و تترك البيت ، هدأني و كَبَر في أذني ، و حملني لسريري ، و خرج ليشب معها العراك ، و لكنه فجاة تكلم معها ب هداوة بعدما سيطرت عليه و حاكت بخيوطها قلبه و أعمت عينيه ، أخبرته أنها تتمنا لي الرضا لأرضا ، و أني من أعاملها بطريقة سيئة و هي التي تبتلع الذل و تصمت لأجله و لأجل ما أمُر به ، و لكن ان أحاول ان أُكَرِهَهُ فيها ف هذا كثير ، و قالت له انه يعلم أن بي خلل غير طبيعيٍّ ، و أن فقداني أمي أثر على عقلي و افقدني إياه ، ف كيف يصدقني انا و يكذبها هي ، أصبحت هي الملاك ، و انا إنقلبتُ الشيطان الظالم اللئيم .. بعد كلامٍ كَثَر و لم يَدْلُ ب منفعة ترجى ، اضحيتُ انا من عليَّ اللوم ، و قرروا أنهم سوف يتكرموا عليَّ و سيسمحون لي بالنزول لأصدقائي في تلك الأيام القليلة الفاصلة عن الدراسة ، لأفقد بعضًا من طاقتي ؛ و حتى يهدأ جزءٌ من بالي و أتوقف عن تَخيُلاتي الشاطحة .. اتركيني وحدي الأن ارجوكِ ؛ لا أريد أن أتحدث مع احد .. حتى أنتِ .

في اليوم التالي تسحبتُ من سريري قبل أن يستيقظ أبي و تلك المتوحشة ، و نزلت إلى الشارع و إنتظرت أمام بيت صادق ، الذي لم اره لشهرٍ كامل و كان دائمًا ما ينادي عليَّ و إما كنت أنظر له من الشباك لأمتنع عن النزول دون إعطاء أسباب ، إما كانت تفتح له "عشم" عندما يحاول زيارتي لتبلغه أني مريض طريح الفراش .. إنتظرت ساعة بأكملها حتى خرج والده لعمله و طرقت الباب

بســـرعة ، رأني و هاله منظري ، طلب مني الدخول و لكني لم أرِد أن تســـمع والدته كلامي ، ف نزلنا ســـويًّا إلى الشـــارع بعدما بدل ملابسه و عند مكاننا المفضل تحت شجرة الجميز الوارفة ، القابعة في الشارع الخلفي لبيته ، حكيت له ما ابعدني تلك الأيام ، و شحنه ما حكيت و قال لي أن أقول لأبي ما يحدث في أســـرع وقت .. ف جعلته يُلِم بأن أبي لم يعد يهتم لأمري ، سحرته تلك الساحرة الشريرة و سيطرت عليه .. سألني ماذا قد يجعل "عشم" تفعل هذا معي ؟ .. لم أجد إجابة مُقنعة .. هل كرهتني لأســـلوبي الرديء معها ف اول أيامنا ، هل وصـــلتُ للفظاظة التي تجعل هذا رد فعلها معي ؟؟ .. أم أنها تريد أن تأخذ أبي مني ، حتى يُخلى لها الجو معه ، و انا ما يعطل صفو وحدتهم و سعادتهم لأن بال أبي - كان في الماضـــي - معي ، كلها إستنباطات تحتمل الصواب و الخطأ ، قرر أنه سوف يَستَدِل من بعض اقاربه على معلوماتٍ عنها و يوافيني بها خلال ايام ، و طلب مني أن احمي نفسي بأي شكل و ان لا أستسلم لهذا الواقع التي ترسمه لي بأظافرها على جسمي ، و إن حاولت الاعتداء عليَّ أن امنعها و لو بالعنف ، ف أخبرته أنه لم يعد هذا محتمل الحدوث ، ف تَسَأل بنظرة مُستَفهِمة عن السبب .. نسيت ان اخبرك انتِ ايضًا ، فالتباركي لي ؛ عمتي "عشم" تحمل لي في رَحِمِها اخًا من جهنم .

***

رجعت إلى البيت و وجدتها تتربع على عرش الحكم الماثل في صالة بيتنا ، نظرت لي تلك النظرة التي ترعبني ، عيون سوداء بها تأجج النار و بياض طفيف يكاد يلتهمه الســـواد ؛ من ما هو مُختَزَن بداخلها العفن .. أعجبها التحدي و أعرَبَت عن ذكائي المتهور ، ثم اعلمتني أن هذا الأمر لن يتكرر ، و أنها ســـوف تغلق عليَّ غرفتي ليلًا حتى لا أخرج منها إلا في عُهدَتِها الكاملة ، لم استطع الإستمرار في تحمل نظراتها ، رمت لي المَقشَّة كاتبة عليَّ المَشَقَة ، و بدأت ب الكنيس و هي تتغذا من خيرات أبي و انا لم اتذوق من ذاته او حبه منذ شـــهور .. و رمت لي الفُتات لألعقه كأذل الكلاب .. و تخيلت

بطنها يتعملق حتى بدأ يبتلع كل دنيتي و يفنيني .. هل لهذا التخيل مغزى يا تُرى ؟ .. أيضًا لن تردٍ عليَّ ؟!! .

يوم إجازة أبي كان الجمعة ، و فيه أمكنني التملص من تلك الغولة بعد الصلاة الجامعة .. ذهبت لأتطقس من صادق على ما جمعه من معلومات .. و قال لي تحت ظل الجميز الصغير أنه سأل عنها ابنة خالته "فردوس" و هي صديقة قديمة لها من المنطقة ، و قالت ما لم يخطر لي في بال .. كانت عمتي "عشم" تعيش حياةً مأساوية ، كانت و هي صغيرة تعاني من سمنة مفرطة مما كان يجعل الأطفال يهزئون منها و من جسمها المكعبر المنفوخ ، و زاد الطين بلًّا غباءها الذي إنتشر عنها ، و يقال انها من تسببت في موت أمِها حين اصابتها نوبة سكر عالية ف سَقَتها ماءٌ ب سكر حتى إمتلئت و لم تتحمل .. و لكن هذا الكلام مُتكتَم عليه إلا من نساء المنطقة بعدما جعلوها مُضغةً للقيل و القال ، و بعدها تزوج عم "بكري" من صديقة أمها لتعتني بها ، و لكن يُقال - و العهدة على القائل - انها كان تعتدي عليها ب عنف و تعذبها حتى كبرت الفتاة و أستطاعت تطويع غبائها و إنتقمت من زوجة أبيها بطريقة لم يكتشفها احد للأن ، ف فجأة وجدها زوجها نائمة نومة طويلة ؛ هامدة و بلا تنفس ، و كانت قبلها بكامل صحتها و جبروتها ب ملئ السمع و البصر .. و لكنها إنتهَت و إنتصرت عليها "عشم" في الأخير .. ترتب في أفكاري مِمَا تلاه أن "عشم" كانت مجرد ضحية مسكينة أخذها الشر ل مدراكه و سُبله ، و أصبحت انا الضحية التالية لها في القائمة ، كما يكتبون في مجلة المغامرة الاخيرة التي كان يشتريها لي أبي .. ماذا تقولين ؟ ، يجب أن احذر ؟! ، اشكرك على النصيحة الثمينة ، أريدك دائمًا أن تكوني في وضع المُتفَرِج هكذا ؛ و تتركيني أواجه ما أُبتليت به من مصائب وحدي .

***

رجعت إلى المدرسة التي إعتقدت يومًا أنها مُخَلِصَتي ، صحيح أنها اراحتني فترة الصباح من مصاصة الدماء الأدمية تلك ، و لكني

كنت احضـر معها في فترة نشـاطها ما قبل الليلية ، قبل أن يعود أبي تجعلني أمســح و أغســل و أدعَك ، تبري بي الســكاكين و تقرص الأجزاء الحساسة الدقيقة في جسمي لتقيد نار الوجع بي .. و عندما يأتي أبي يهرول للإطمئنان عليها و ينزل حتى بطنها ليســمع أوهام كلام الجنين ؛ الذي اسمعه يَسُبني مع أمه طول اليوم .. و انا أصبحت نسيًّا منسيًّا إلا من بعض الأسئلة و المصاريف ، الأكل أصبح فقط يجعلني أعيش ، ابات ليلاتي عصافير بطني تتحوَلُ لتنانين متوحشة تنفث النار في أحشـــائي ، قلت درجة إســتيعابي في الدروس ، و أصـــبحت أتأمل من و ما حولي في وجومٍ حتى أصـــبحت مُرعِبًا للبعض و مثير للســـخرية لأخرين و مزار لفتونة البعض عليَّ ؛ لضــعفي و قلة حيلتي .. صــادق هو فقط من يدعمني ، و يقويني في عذاباتي المتتالية .. حتى أتى يومًا زاد الزملاء من أذيتي حتى خر الدم هَرِبًا من جسمي المعدم ، ضمدوني بعدما ازالوا ضمادات عمتي "عشم" المُخفِيَّة لتعذيبها ، إعتقدها الطبيب أثار إعتداء مَدرَسي قديم مسكوت عنه ، و طلبوا حضور والدي ليستلمني في أسرع وقت .. شــعرت ب قلة حيلة أبي عندما إستلمني ، نظرة من لا يعرف كيف يســـاعد من يحتاجه ، حاول أن يتصـــارع مع أهالي المعتديين ف طلبت منه أن يتجنب هذا ، حتى لا يرجع بعد أســـابيع يجدني جثة منتهية ، أوصــلتنا كارتة بحمار إلى البيت و صــعدنا في صــمت ، دخلت غرفتي و تبعني و هو يتجاهل صوت "عشم" التي تستدعيه ب تمادي ، حاولت أن أمثل خضوعي للنوم ، و لكنه إحتضـنني ، و طهر بدموعه جروحي الملوثة ، كنت قد نسيت ذلك الإحساس ، أن هناك من يهتم لأمري ، بكيت ، فقد ضاق صدري بما يحصل لي ولا أفهم سببه ، لماذا لا يحبني أحد ؟! ، لماذا يكرهُني الجميع و كأني أثِم ؟ ، لماذا بعدت عني و جعلتِني عُرضـــة لتلك المؤذية تفعل ما يحلو لها فيَّ ؟ ، لماذا أنا من سافرت أمه للسماء و تركته هنا على الأرض ؟! ، و لماذا رقم ألف ؛ لماذا انا فقط من اخســر كل ما أحب .. لا تسمعي حديثي ف قد يؤذيكِ ؛ و لن استطيع ان أطيب بعدها خاطرك

.

بعد تلك الحادثة و رجوع بعض المياه الراكدة للجريان ؛ مع تحليتها ب المياه النظيفة النابعة من صـــلة الدم و الأبوة ، هدأت و إرتقت علاقتي انا و ابي ، مما زاد من غضب تلك الموبوئة بالكره ، حالتي النفسية إمتثلت للإلتئام ، و كل ما كنت أعالجه كانت تأتي تلك المُخربة لإعادة فتحه و بعثرة ضـــماداته .. لم أشـــعر من أبي أني أصبحت قادرًا على مصارحته ، مازلت ألاحظ تفضيله لها و للذي في بطنها ، كنا في الشهر الرابع من حملها ، ف ما بالِك حين يأتي و يَهِل علينا ذلك المُنتظَر .. زارتنا خالتي الضـــعيفة و المغلوبة على أمرها ، و طلبت من أبي أن يتركني أبيت عندها هذا الأسـبوع و لن يؤثر ذلك على دراستي ف البيت قريب بنفس المسافة من المدرسة ، قَبَل على مضض و أنا ألمح إمارات سعادة حاولت التداري في عينيه ، ســـعيد أنه ســـوف يرتاح من همي - و تأكدت اننا لازلنا بعاد عن بعضنا - و انا مرتاح لرحمتي من تلك الشنيعة .. الذي دار في عقلي بعدها ما الذي جد لتطلبني خالتي ، لم تفعلها إلا حين زواج أبي و لم تسبقها محاولة .. كانت أصغر من أمي ب عامين و لكنهم فرقوا في الجمال لصالح أمي بالتأكيد ، رغم أنها لم تكن قريبة لي يومًا و لكني اطمئن في وجودها ؛ لأنها تحمل من الملامح ما افتقد رؤيته و صوتها به ذات النبرة التي إشتاقت لها أذني .. متزوجة هي من رجُلٍ بغيض يكبرها ب كثير ، و أنجبت منه "رياض" و هو أكبر مني نظرًا أنها تزوجت قبل أمي ب أربع أعوام لأن العريس كان مســتعجلًا - كما كانت تهمس أمي- ، و رياض هذا أشـبه لأبيه منه لعائلتنا ، ف هو بارد ، يتميز ب تناحة و هدوء أعصـــاب متعب ، و يغمره الملل من كل جوانبه ، ف لم يكن ممتعًا المبيت معه ، و لكن المفاجأة كانت فيما سألتني و أخبرتني به خالتي .

***

بعد عشـــاءٍ خفيف من الجبن الأبيض و الزبادي ، و على أريكتي السريرية التي سأنام عليها تلك الأيام القليلة ، المملون أشخاصها ؛ المريحون في نسياني ، جلست قبالتي خالتي و سألتني إن كنت بخير ؟ ، هل هناك ما يضايقني ؟ ، ما احوالي مع عمتي عشم ؟ ، اصمت

ولا أعرف ما نفع الكلام ، و لكن ما الذي نبهها لي فجأةً ؟ ، قالت أن أمي قد زارتها في الحلم ثم فكرت لثواني و أعادت الجملة بمعني أنها بعثت لها رسالة ، إنتفضتُ من جلستي أسأل عن الورقة ، قالت أن رسائل السماء لا تأتي في ورق بل هي كالطيف يحضر و يمر سريعًا و لكنه يترك الأثر ذاته ، و حين إنتبهت لسماع الرسالة ؛ إسترسلت قائلة : "إنها تطمئن عليك و على حالك ، و أمنتني أن احافظ عليك من شرٍ قريب منك يكاد يخنقك ، و تطلب مني أن اتماسك و احتضن أيامي القادمة و أتمسك بمن احبهم لأخر يوم ، و إذا ضاقت يومًا بي الحياة و السُبُل ؛ أن أذهب للبئر الذي كتم كثيرًا أسرارها هي و أبي" .. طال إنتظار ردك يا أمي حتى أني فقدت الأمل في رجوعك مجددًا .. سألتها إن كانت دوَنت ميعاد عودتها ، ف سَهُمَ وجهها و قالت بصوتٍ خافت : "في القريب العاجل إن شاء الله" .. و أعادت طرح اسئلتها و لم أجد بُدًّا من الحديث لعلي ارتاح .. حكيت لها ما كان كله ، كيف بدأنا و كيف نحضر أيامنا الأن ، كادت عيناها أن تنبَع بالدمع ، و تركتني ليلتها في صقيع سابَت له مياه أنفي و إرتعش كياني ، بوعدٍ أن اعتمد عليها ، و أنها سوف تتصرف . لِما لم تبعثي لي أنا بالرسالة ؟ ، لماذا لا تجودين عليَّ بما استحقه من محبّةٍ ؛ رغم حبي لكي ؟ .. و لكن يكفيني أني اطمئننتُ عليكِ .. قبل أن تتساقط أوراقك الذابلة من شجرة ذكرياتي الهالكة ؛ و تجرها الرياح إلى صحاري العدم و النسيان .

بعد يومين من الهُدنَة و الهُدوء ، رجعت من المدرسة بعدما نقلوني لفصلٍ مختلف بعيدًا عن من يضمرون لي في أنفسهم السوء ، و أيضًا لم أسلم منهم ؛ رغم نقلي ، و تمشيت مع "صادق" حتى إفترق طريقنا ، دخلت البيت و أطعمتني خالتي البصارة مع البصل المقلي ؛ التي لا أبتلع رخويتها و لا أستسيغ طعمها الأخضر المحروق .. ثم طلبت مني أن أُحَضِر نفسي لأنها سوف تُرجِعني إلى البيت اليوم .. دون مُماطلة و تفكير ؛ بالتأكيد سأمني الأب البارد و الإبن المُصَقَّع ، و تكلفت معي خالتي كفايتها ب قدر إستطاعتها .. تحركنا إلى البيت و انا كالشاه الذي سيستلمه الجزار أمام المذبح ؛ و هو يُلَوِحَ له مُرَحِبًا

بالسكاكين .. كنت واقفًا أمام أبي و زوجته المُستذئبة ، رحب بي أبي و كأنه إفتقدني ؛ أو شـــعر أني تغيبت من الأصـــل ، و نظرت لي "عشم" كالجائع الذي وجد وجبة غداءه غدًا ، و قبل أن أدخل غرفتي لأضـــع حاجتي ، ندهتْ عليَّ خالتي لأتوقف و أجلس معهم ف هناك موضـــوعٌ علينا التحدث فيه جميعًا .. في الحقيقة لم أكن أرى في خالتي شخصية تسمح أن أتحامى فيها حين أصاب ب ضرر ، دائمًا ما كانت متخاذلة مهزومة ، صـابرة كإسـمها و مسـتسـلمة ، و لكن اليوم رأيت فيها روح أمي ، غير ملامحهم المتشـــابهة ، و قفت ب قوة و هي تزدري بنظراتها "عشـــم" تعدِد بما حكيته لها من أفعالها بي ، تعنِفها شـذرًا دون مَهابة ، و تلوم أبي على عدم تصـديقي ؛ و البُعد الذي أدى لما عليه حالي الأن ، لم يحتويني بالقدر الكافي أو سـأم المحاولة ، ف رد أبي أن زواجه كان محاولة لمسـاعدتي أنا ، لأنه تخَوَف أن لا يكفيني إهتمامه وحده لأعيش حياةً طبيعية ، ف ردت خالتي : "فإستأمنت عليه من لا تسعى إلا ل شقاءه و تعاسته !!" ، نظر أبي - بعد كلام خالتي الذي أثلج صـــدري - إلي عمتي "عشـــم" نظرة مُؤنِبة مُرعِبة ، و طرح يده لتصـــفعها و تدوي بألم المُســتقوية - عليَّ فقط - إلى الأرض و هي تصـــرخ من الوجع في ضـــعف و نزفت دمائها ؛ و هو شـــيئًا تخيلت أنها لم تُخلَق به من الأســـاس ، و كاد ينقض فوقها ليكمل عليها ، و لكن خالتي حالت بينهم ، ف هي حِبلة ، و قد تموت في يديه ف يزرف هو ثمن هذا حبسًا ؛ و لن ينوبه سوا تشردي و ضياعي من بعده ، بصق عليها و أمرها أن تترك البيت حالًا و تحل عنا ، و إذا تصـادف و رأى ظلها النجس ف ســـوف يجعلها عبرةً لمن لا يعتبر ، و حين تُنجِب ما ب بطنها النجس عليها ان تنســى أنها تزوجت و أنجبت من الأصـــل .. تحركت و هي تمسح بردائها أرضية مُترَبة كثيرًا ما نظفتها دموعي ، و دخل أبي إلى الغرفة ليرمي لها ملابسها مع كيسٍ ممزق من جلد الماعز تجمعهم فيه ، و بعد أن هَمَت واقفة و فتحت الباب نظرت لي و إخترقت عيونها قلبي ب رعبٍ مميت لم اختبره من قبل رغم كل ما مررت به معها ، و ذهبت صافقة الباب ب غل .. إستأذنت خالتي لتأخر الوقت و أوصـت أبي عليَّ و أني أمانة في رقبته كما بعثت له

معها أمي في رسالتها الطيفية ، و تلألأت عيون أبي حين ذِكرها ، و كأنه قد نســـاها و أتت هي ل تلومه على ما بينهم و ما ولاه و رماه وراء ظهره في غضـــون ايّام .. بقينا وحدنا أنظر أنا للأرض التي وقع فيها الوحش مهزومًا ، و أبي ينظر لي و بقلبه ما لا يســـتطيع الحديث وصفه ، لم أكن أنتظر كلامًا ، لم أكن أأمل بهدية لتعويضي ، كل ما كنت أحتاجه هو أن يأخذني ف حضنه و أشعر فيه ما كنت أشعره في أحضان أمي ، الذي لم أعثر له على شبيه ، متأخرًا فهم ما احتاجه ، و لكن يكفيني أنه فهم ، إمتزجت دموعنا ، و إلتقت أرواحنا ، و ظللنا على هذا الحال فترة ، و رغم الأمان الذي زارني بعد فراق طويل ب طول بُعدِك عني ، إلا أنه أختُرِق بنظرة عين عشم الأخيرة التي إحتلت كوابيس هنيَّة وسط أحلام مخيفة تقول ان ما بيننا لم ينتهي هنا .. ألا تشعرين معي بهذا ؟! .

***

بعد التحرر من إستعمار "عشم" الغاشِم ، بدأت حياتي تتلوَّن بعدما بهتت و إغمَق عبق ألوانها ، عشت مع أبي ايامًا جميلة رقيقة ، كان يأخذني إلى فُسَحٍ مُسلية جوبنا فيها الإسكندرية كلها ، و أكلنا كل الطعام الذي أفضله حتى إمتلئ جسمي بعض الشيء ، و كل يوم قبل غروب الشمس كنا نمر لنقرأ الفاتحة على الأرض المُزهِرة الكئيبة ، التي منذ زيارتنا لها أول مرة حينما سافرتي إلى السماء حتى إعتقدت أنها مصدر سوء حظي ، و لكني - رغم ذلك - كنت أشعر فيها ب سكينة تملئ صدري و أشم فيها رائحتك التي إختفت من بيتنا ؛ إلا في دولاب مُتعلاقَتِك الغالي على قلبي .. تحســن إستيعابي بشــكلٍ ملحوظ و كدت أكون التلميذ الأنجب عند معلميني و أســاتذتي - حسب قولهم ، لنمو عقلي و لغتي بشكلٍ أسرع و أكفئ من أقراني ؛ ل كثرة قِراءاتي - ، و كل مرة يرجع أبي من دوامه كان يُفاجئني ب حَلًّا مختلف - بعدما عزفنا عن عم بكرى و أرزه الذي أذهبت حلاوته "عشم" - ف كان يجلب لي الهريسة ، اصابع زينب و لقمة القاضـــي ، ماعدا ســد الحنك لأني لم أتذوق في لذة ما كنتي تعدينه مهما تذوقت من خلطات مُشــابِهة .. أما اليوم ؛ ف إعتمرتُ قُبعتي

المفضـلة بعدما إرتديت أقيَم ملابســي و ضـبط لي أبي إبزيم حذائي الجديد و ذهبنا لزيارة صـــادق و أهله ؛ بعدما دعونا للغداء عندهم اليوم بإصـــرارٍ تام .. كان الغداء به خياراتٍ كثيرةٍ ، الرُّقاق باللحم المفروم المُبَهَر مع البصل المبشور الذي يسيل له لعابي و طاجن من البامية و اللحم البقري - ف قد حكى لهم صـادق أني لا أطيق رائحة اللحم الضـأن - و ديكٌ محمر بالسمن الدَسِم و أرز ليتشرب الملوخية و أزواج من الحمام المحشـــو بالفريك ، ف تعكر وجه ابي ؛ ف قد أمسى عليه رد العزومة قريبًا بما يقارب ذلك البزخ ، أكلنا و شبعنا ، ثم صَبَت لنا "أم صـادق" الحنونة عصـير الموز المخلوط بالحليب ؛ و دخلت لتغسل الأواني و الصحون ، و جلسنا انا و صـادق نتكلم في حجرته و نسـتذكِر بعض الدروس الصـعبة الثقيلة ، و جلس أبي مع والد صـادق يثرثرون في أحوال البلاد و العباد ، حتى إسـتمعت عن طريق المُصـادفة و التنصُـت إلى حديثهم الذي إختلف فَحواه .. كان والدي يقول :

- توطدت علاقتي ب مســعود و هذا المُهم عندي .. و يكفي ما فعلته "عشم" لأتبيَّن خطئي .

= ألا يمكنك أن تعطيها فرصــة أخري ؟ ؛ ف أنتم على أعتاب مولودٍ جديد ، و لن تقدر على حمل مشقة تربية غُلامين وحدك .

- لا أعرف يا "محمود" صدقني ، الأمرُ صعب و حاد .. و انا لا أقدر على أن أتخذ فيه القرار الصواب حتى الأن .

= ما رأيك أن تجرب حظك مع إمرأةٍ أُخرى ، لا تحكم على عامة النساء بسبب واحدة ، بالتأكيد هناك من ستتقبل الوضع و ترضى به و تساندك في ما بلاك .

- هذا مستحيل .

= حسنًا إن أردت النصيحة ، انا من رأيي ان تُصلي صلاة إستخارة ؛ و دع ربك يتدبر لك أمرك و خيارك .

تسألينني عن رأيي ؟! ، لا أعلم إن جيئتي للحق ، انا سعيد ب حالي الحالي مع أبي ، و لكن السؤال هنا ؛ هل هو سعيد ؟ .. هل لا يفتقد وجود "عشم" او غيرها في حياته .. سمعت ان للرجال مطالب كثيرة لا يمكن أن تنقضي دون وجود إمرأة ، ف هل أبي يجب أن يكون من هؤلاء ؟ .. و هل إذا أختار غير "عشم" سأرضى و اطمئن لها ؛ أم سأكرهها لسببٍ دفينٍ في نفسِ يعقوب ؟ .. انا أيضًا أجده - بعد لحظات الإعتناء بي - وحيدًا خالي من البهجة ناظرًا إلى السراب ، و سريعًا ما يسأم من أحاديثي و أسئلتي الكثيرة ؛ خصوصًا التي عنكِ .. هل انا من يَصْعُب تَقَبُلي و الإكتفاء بي ؟ ، أم أبي من لا يستطيع تحمل تَفرُدِي على عاتقه وحده و أني لا أقبل شريكًا لي فيه ؛ من بعدكِ .. لقد إحترت .. و انتِ ما هو رأيك يا تُرى ، أم سوف تستكترينه عليَّ كذلك ؟! .. لديَّ الكثير من الأسئلة لا أجد لها منكم إجابات مُرضيات.

***

رجعت مع أبي و مشاعري بها شائبة تكدر و حزن ، لم أُلمِح له أني إستمعت لحوارهم ، و لكني أشعر ب غيابه عني في دوامة أفكاره ، و لبسنا يومين تائهين قَل فيهم الكلام و الأسئلة و إنعدمت التمشية التي كنا إعتمدنا تثبيتها ، و بدأت أسرح في الفصل تاركًا واقعي و من حولي سواء التلاميذ المُتمَحلِسين أو الأساتذة المُعلمين ، كنت مع ذاتي في مكان بعيد أكبر ما فيه صورة أمي مبتسمة ، و من بعيد ألمح أبي ؛ تحتضن يداه كف أُنثى طولها و هيكل جسمها مشابه ل الأتي لا تُسمى ، و كانت هي بالفعل ، يقتربون ب خطوات ثابتة مُترصدة و أصوات همسهم تتردد من حولي و تخترق عقلي و إذا حاولت عدم النظر لها ؛ تنفرِج جفوني كالراغب في التمحيص و التأمل ، و أسمع ضحكتها الشريرة ب صدا صوت مزعج و كأني في كهفٍ يبتلعني من داخلي ، أرى فيه ملامحها ظاهرة فجَّة ؛ بعدما

نُقِشـــت بيد ذئاب مفترســـة أظافرها دامية على أحجار كهفي ، حتى تهيأ لي أني بداخلها ؛ او هي التي بداخلي و تحبسني داخل كابوسها .. أفقت على ماء صـــاقِع ينهمر على رأســـي من قُلَّة معلم الحســـاب حتى أفيق من توهتي التي إستحضرتني ، و وجدت صوت ضحكات الزملاء من حولي كلها ب صـوتها هي ، و جميعهم ب ملامحها ، و صـــوت الخَرْفَشَـــة ب وقع أيدي الذئاب على الجدران يزيد و اللون الأحمر الدامي يصـــبغ كل ما حولي مع عوائهم .. أفقت و العرق يتصبب مني إليَّ ؛ ولا أحتمل إنهماد جسدي على السرير ، شربت بعضًـا من الماء و غسـلت وجهي ، و تسـحبت ب خُطًا مُتمَهِلة إلى سـرير أبي لأندس فيه بجانبه أحتمي به ، عدلت من وضـع جسـمي ليتناســـب معه و حركت يد أبي الثقيلة لأجعلها تحاوطني و تطمئنني بالحماية ، و لكنه إبتعد عني تمامًا ، و تَقَلَب على الجانب الأخر ؛ ضم يداه حول وسطه وتركني وحدي .. يعبث في وجداني المجهول ؛ و كهفي يَنبَثِقُ من خوفي ، ليفتح لي بوابـة الـدخول ، و لكني اغمضت عيني بيداي .

في ليلةٍ شتوية نزلت الأمطار تَرُخ و تقتاد أتباعها الخِشان ؛ الرعد و البرق ، و الجو أصبح يُنبِئ ب نوَّةٍ شديدة تضرب الإسكندرية ، ف منعني أبي من النزول للمدرسة و رضخ هو أيضًـا لعدم النزول لعمله حتى يتأنى السلامة ، أصـابتني البرودة و تغيير الجو ب نزلة بردٍ أهمدتني ؛ و حلقي يرفض البَلعَ ليتجنب الألم ، و رأسي مُهتَز و جســـمي غير مُتَزِن ، أعد لي أبي شُـــربة الخضـــار التي أكرَهُهَا و شـــربتها أمِلًا في تخفيف ألام حلقي ، و تبعتُها باليمون المُحلى بالعسل ، و قُرب الغروب و قبل صلاة المغرب ؛ بعد أن هدأ إحتدام العاصـــفة بالخارج قليلًا ، وجدنا من يطرُق بابنا المُتهالِك ، و كانت عمتي "زبيدة" ، أي أول بوادر خنقتي التي تبدأ ، و بعدما دخلت إســـتأذت في حرج ل دخول ضـــيفة تنتظر في الخارج و طلبت أن يكون إحترامَها من إحترامِها ، ثم دخلت مُســـتَتِرة مُنكَسِـــرَة عمتي "عشـــم" ؛ فوقف الهواء على حافة رئتاي و رفض أن يتم تنفســـه .. هل تعلمين شـــعور أن تكون الأمور مُرَتَبَة أكثر من اللازم ، هذا ما

لَمِعَ في عقلي حينها ، دخلت عمتي "عشـــم" و كأن نارًا قد قادت في جسد أبي و بدأ يسبها و يقل من هيبة عمتي التي سمحت لنفسها أن تحضرها إلي هنا مجددًا بعد كلامه الواضح ، صدح قلبي بالفرح من حديثه و أراحني بدرجة كبيرة ، و كاد ان يمسكها من تلابيبها إلا أن عمتي حالت بينه و بينها ، كانت تحميها مثل شـــجر الغرقد الذي سيختبئ وراءه اليهود قبل حلول الساعة ليحتموا به من المُسلمين ، حتى أصـــابها أبي ف كتفها عن طريق الخطأ ف وقعت أرضًـــا و تألمت و في عينها دموع التماســـيح ، حتى غبرت قلب أبي ف نزل على ركبتيه ليطمئن عليها ، إستعطفته أن يرأف ب حال "عشم" ف من يوم أن طردها و هي تأتي لها كل يوم تتمســـح في تراب أقدامها لتعيد المياه لمجاريها معه ، و هي من أخذت بخاطرها و فهمت الأمور بشكلٍ أدق ، الغضب هو من غمى عيون أبي و جعله يتهور و يظلم الفتاة ، و قالت و هي تركز نظرها ل عيونه :

- إن مسعود مُجرد طفل ، واسعُ الخيال ، لم يستطع أن يتقبل بديلة لأمه ، غار عليك ف صَوَر تلك الملاك البريء في عقله بأنها تكرهه و تحاول اذيته و اوصل تلك الرؤية ل خالته التي إحتدت عليها بلا دليل ؛ لِما ســـمَعتُه منه فقط ، و لكن و حياة المرحومين يا أخي هل يومًا صادفت منها كلمة او فعل يُسيئ له أو أشعرك أنها تضمُر له السوء ، انا متأكدة أنه بالعكس ، لا تظلم فتاةً يتيمة تحمل لك في جوفها الحب و الاحتواء ؛ و طفلٌ أتٍ أنت والده ، من أجل أخَر مع الوقت ســـيتأقلم و يفهم ، لا تتسرع يا أخي ف إن العَجَلَة من الشيطان و فيها الندامة .

شعرت به دون أن أنظر له ، تراجع عن موقفه ، أعجبه ما سمعه ، يُقَلِبُه الشك صحيح ، و لكنه أميل للإقتناع و التصديق ، نظر لي و ظللتُ صامدًا ، كنت على وشك البكاء و لكني تمساكت ، لا أعرف ما الذي زرع فيَّ تلك السكينة و الهدوء ، هل لأني شعرت به تائهًا يتمنى أن يجد على وجهي ما يُثبِتَه او يهدِئه ب قبولي و تأكيدي لما سمعه ، شعرت أني من ب يده المُعضِلة و حلها ، انا الآمِر الناهي ، نظرت إليهم نظرات خاطفة .... العمة التي لم تحبني أو تتقبلني يومًا

لأني بالنسبة إليها أُشبِه أمي التي لم تكره شيئًا في الوجود أكثر منها ، كانت دائمًا ما تحسدها و ترى فيها كل نواقصها ف أصبحت مُسَبِبَة الخلافات بين أمي و أبي لتهز هذه الصـــورة المثالية لها ، و حين أتيت أنا أصبحت ثاني أكثر شيء تبغضه في الحياة و تعودتُ على ذلك ، و عرفت الأن أن الأمر ليس في "عشـــم" و تذللها لها لإسترضائها ؛ او في سعادة أبي و إبنه الثاني المُنتظَر ، هي فقط لتأكيد إكتمال تعاســـتي لتُحلي حياتها ب مراري الذي تهواه .. و بجانبها "عشم" التي حين دخلت حياتي كنت انا الجاني في قصتها ، حتى إكتشفت أنها كانت نسخة مني ، ظلمتها الحياة و من يحياها ف قررت أن تعيد قصتها ب عكس الآية و الأدوار ، و لكن من عيونها المكسورة ينضح الشرر و الشر الذي ينتظرني بعدما يتم الصُلح الذي على أعتاب الحدوث .. و أبي .. أهٌ منك يا ابي ، انت من تصعب إختياري و تضع رأسي تحت أقدامهم ليعبروا بها إليك ، و تنسى أنك تركتني على هذا الوضع و كأني مستمتع به ، تنظر لي و عيونك لا تراني ، تعتقد أنك تبحث عن راحتي و لكنها متعارضة مع رغبتك ف تدع الإختيار ف يدي مع عين تملؤها الدموع لتؤثر في قراري .. هل هذا ما تريده حقًا ؟! .. حســنًا ، أنا لن أكون العقبة في طريق ســـعادتك ، حقًا يكفيك هذا ، لقد تحملت الكثير من همي وعِشرَتي .

إستمروا ينظرون إليَّ ، ينتظرون ردي ، أغضمت عيني حتى لا تفلت الدمعة و إبتســمت ب صـــعوبة و انا أحرك رأســـي إيجابًا ، فالتعيش ما حُرمت منه يا أبي ، فالتأخذي فرصة عوَضِك يا "عشم" ، فالترتاحي من عناء كُرهِك لي يا عمتي ، أما أنتِ ف أستسمحكِ أن تنتظريني بضـــع دقائق .... إحتضـــن أبي عمتي "عشـــم" و الدموع تنهدِل منهم في تأثرٍ و وَحشـــةٍ ، و عمتي تنظر لهم ب فرحٍ و زهوٍ كالشـــجرة التي تظلل و تدلل ذلك الحب ، و أنا تحركت ببطءٍ ناحية الباب ، نزلت عتابات السلم مهروِلًا حتى لا يتبعني أحد ، جريت من شـــارعنا حتى لا يوقفني شـــخص من معارفنا و يعيدني إلى البيت ، حتى علمت أن لا أحد يعرفني في هذا المكان ، كما لم يعرفني غيرُكِ

في الحياة ، تمشيت حتى الشاطئ ، و المطر زاد توَحُشه و كبرياؤه بعدما قارنت دمعي بعدد قطراته ، تبللت ملابسي حتى كدت أغرق فيها ، و أغرق في نفسي التي لم يمد أحد قشّة لينقذني منها و يكذب ظنوني ، تتبعتُ الخطوات التي سَبَقَ و أحصيتها عند زيارتي الأخيرة مع أبي هنا ، الخطوات التي تفصل الشاطئ عن البئر ، و تفصلني عن قُربِك ، وصلت ، و نظرت عَلِّي أراكي فيه ، و لكن الظلمة حالت بين رؤيانا ، سمعتُ همسِك ب صوتٍ عذب يزينه الضحكة التي لم تفارق يومًا وجهك المُنير، أعرف أنكِ لم تسافري للسماء ، و لم تدفني في أرض ، لقد سكنتي روحي و اتخذتُ من وجودك ملجأ ، إخترتي لي أن نتقابل هنا ، في المكان الذي كثيرًا ما كتم أسرارك أنتِ و ابي ، ليحتوي سِرَّنا ، أنا أنتظرك ، و رغم بللي و تعبي ، و رغم خوفي من الظلام الساكن في الدنيا ، سأنتظرك مكاني ، و اعلم أن لقاءنا لن يغيب .. أنا أنتظرك ، و يخيَّل لي أني أراكِ ، هذه المرة بحق .

《إهداءٌ واجبُ الإهداءِ》

♧●●●●●●●♧

الإهداءُ الاول

إلي رفيقة رحلتي من منبتي حتي تَفَرُعِي ، إلي أمي أغلى ما في الوجود ؛ و أحن من على قلبي يجُود .

♤ ♤ ♤

الإهداءُ الثاني

إلي حبيبتي و حبيبة -ي- و كل ما تمنا قلبي و كان محجوزاً في قُربِكِ ؛ لي ، أحِبُكِ كما لم أُحِبْ بشرًا من قبلُ او من بعدُ .. و بالفعل القدر الذي يجمعني بك هو لقَدَر جميل ب قَدْرِ جمالك .

♤ ♤ ♤

الإهداءُ الثالث

إلي أبي العزيز ، أرجو أن أشرفك يومًا كما تتمنا و أتمنا .

♤ ♤ ♤

الإهداءُ الرابع

إلي أخوتي .. إيهاب ، يوسف ، أيات

♤ ♤ ♤

قِصَصُ ... بئْر

١. سِرْدَاب ٧

٢. وَسَن ٢٧

٣. تَوَحُد ٣٩

٤. عجز ٥٧

٥. صَيَّاد ٧١

٦. كَاتِب ٨١

٧. إغْتِمام ٩٧

٨. بِئْر ١٢٣

الحياةُ صعبة

و أصعبُ ما فيها أن تحياها